

الأعوام الحاصرة

للفيلسوف:

أوزق الله - بيننا وبينكم

قادره ونجده منكم لانيته

على الحاكم

الى الأرضانة هيئما كانت ...

الى الشرق الناهض ...

الى مصر الطامئة

ص	س	الخطأ	الصواب
٤	١٥	Segischesal	Schicksal
١٦	٨	Kontropunkt	Kontrapunkt
١٧	٨	Des Kapital	Das Kapital
٢١	١	مد هائلة ليس إلا	مدن هائلة ليس فيها إلا
٢١	٩	هذه الأدوار	هذه هي الأدوار
٤٩	٢١	الشرط كي . نسجل	الشرط . كي نسجل
٦٤	٢١	يتغلغل	يتغلغل
٦٥	١٢	ارتبكت	ارتكبت
٧٣	٣	عصر السياسة	عصر الحساسية
٧٣	١٨	التشكك	الشكك
٨٦	٢	ككتلة عضوية	ككتلة غير عضوية
١٠١	٤	ثانية من شيء	ثانية شيء
١١٢	٨	وللحضارية	وللمضاربة
١١٣	٨	Kontinenfalspeve	Kontinentalspeve
١٢٢	٤	أما هجمات	أمام هجمات
١٢٥	٢	لأشد خطر	لأشد خطرا
١٢٧	٨	برولتارية	برولتارية
١٢٨	١٣	Lwa	Iowa
١٢٩	١٦	لم يكن يعنى	لم تكن تعنى
١٣٠	٥	وواء	وراء
١٤٧	١٣	المالوثة	المالوثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

أو النظرة المصرية

* * *

لقد ابتدأت في هذه الأيام معان سامية منها الفلسفة التي أصبحت إما نقلا أجوف لشتى المذاهب ، وفي مختلف الثقافات قديمها وحديثها ، وهو نقل يقص ما بينها وبين الإدراك السليم ، ويجعل منها عبارات غامضة لا يتذوقها إلا طائفة محدودة تستأثر بها وبغوامضها ، وإما لهما ولعبا ينضم إلى سائر ضروب الشعوذة الأدبية التي ترمى إلى صرف النشاط الثقافي عن جوهر الأمور .

وليس « أوزوالد شبنجلر » من هؤلاء المتفلسفين ، فلا هو بالناقل ، ولا هو باللاهى ، وإنما هو مفكر أصيل جرى خشن ، فأفكاره عصارة دمه قبل أن تكون وليدة فكره ، ولذلك يعرضها عارية من كل ملطف ، وهو يقذف بها في وجه العالم أجمع في شجاعة أليق بالفعالين منها بالمفكرين .
وإنه ليسعدنى أن أقدم لقراء الشرق بعامة والعربية بخاصة آخر ما أنتجه شبنجلر ، وكان ذلك قبل وفاته ، فلقد كتب هذا الكتاب عام ١٩٣٣ بعد تولى هتلر ببطانة أشهر ثم مات عام ١٩٣٦ أى قبل شبوب الحرب الماضية بثلاثة أعوام ، وإنه لكتاب يتناول قضية العالم الحالية ، قضية العالم الكبرى التي تنتظم كل المشكلات كفروع ، وقد صورها وسطرها قلم جبار يضع

ص	س	الخطأ	الصواب
١٤٧	٢٠	بنفحة	بنفحة
١٤٨	٩	يضع	يضع
١٥٧	١٤	تبدو	تبدو
١٦٠	١٣	تصبح	تصبح
١٦٣	١٢	بها يلحقها	بها يلحقها
١٦٥	٢٠	إذا كانوا	إذا كانوا
١٧٤	١١	السجون الذي	السجون التي
١٨٧	١٦	Homo Sapiens	Homo Sapiens
١٨٩	١٦	فكل المثليين	فكل من المثليين
١٩٥	١٧	جميع الحشرات	جموع الحشرات
٢٠٨	١١	لا يرضى لنفسه	لا يرضى لنفسه
٢٢٣	٢١	عل ما لكيها	على ما لكيها
٢٣١	٥	لو حدة	بو حدة
٢٣٢	١٣	الكم قبل ، والقطيع قبل اليسد	الكم بدل ، والقطيع بدل السيد
٢٣٣	٢١	المثيرة	المثيرة
٢٣٦	٤	لم أفهم	لم أفهم
٢٥٩	١١	في جاوه	في جاوة بأثنى عشر ماركا
٢٦١	١٥	مرييا	مرييا
٢٦٥	١٧	بقوة	بقوة
٢٦٦	٤	حو له	حول
٢٦٨	٨	البن ولتيارية	البرولتيارية

المشكلات فى بوتقة واحدة فتفتتح العين فى سحرية رائعة على وضع جلى واضح يفسر كل غامض ويجلو كل مبهم .

وهو قد كتبه كمفكر ألمانى ذى نزعة بروسية ووجه الخطاب إلى أوربا وإلى الحضارة الغربية وخص ألمانيا قبل كل شىء .

ومع أنى لأسلم بكل ما رآه إلا أن صراحته الألمانية الخشنة تفتح لنا فرجة إلى خفايا كلها فائدة وخير لنا ، إذ كشف لنا عن أعماق أسرارهم الدفينة أعماق نهضتهم وعوامل انحلالهم بلسان صريح وقول جلى .

وسوف يرى القارىء كيف بلغ هذا العبقرى الإعجاز فى تصوير الحاضر وتقدير المستقبل قياسا على الماضى وبناء على نظريته التى ابتدعها بشأن الحضارات ودوراتها المحتومة ، بل كيف أن تقديراته للمستقبل بلغت روعة فذة إذ أنه قدر الحرب الأخيرة الماضية ، ونتائجها إلى حد كبير ، وذلك قبل اندلاعها . وقد اندلعت فعلا بعد وفاته وبعد نشر كتابه ، كما قدر الساحة السياسية والحربية تقديرا عبقريا ، حتى إنك لتقرؤه اليوم وقد مضى على كتابته أكثر من خمسة عشر عاما وكأنك تقرأ تصويرا للحاضر يستحيل على غير المعاصر أداؤه . وكل ذلك لا عن طريق التنجيم ولا عن طريق التعليل ، بل على طريقته الخاصة التى ابتدعها وكانت ثورة حققة فى فن التاريخ والفلسفة التى أرى أن ندعوها « الفلسفة الواقعية » .

وليس من السهل أن تقرأ لشبنجلر ، فالصعوبة لا تقف معه عند العمق والأصالة ولا عند توفيقه إلى فكرة شاملة تتحكم فى كل ما يعرض ، بل تتجاوز ذلك كله إلى أنه قد صاغ عبارات وألفاظا جديدة ليؤدى بها فى قوة أخاذه آراءه المبتكرة ، وقد يسر له ذلك أن اللغات الأوربية والألمانية على

الأخص قد ألقت هذه الأبحاث ، وألفت الابتكار في الألفاظ حتى أصبح الجديد منها يتساقط عفواً ومن غير تعمل على أقلام الكتاب كل حين أضف إلى ذلك المرونة الطبيعية التي أبقت على حيوية المادة اللغوية عندهم فجعلتها تلين في طواعية إلى التجديد ولا تجهد الكاتب في الصياغة ولا غرو فإن اللغات الأجنبية بحكم طبيعة تطورها في أحضان الثقافة الغربية ملائمة لها كل الملائمة وميسرة للمستزيد منها كل التيسير .

فنظرة شبنجلر إنما هي فكرة شاملة جامعة تنتظم كل مظاهر الحضارة وتخزنها في حين واضح طلي ، لذلك وجب أن يلم القارئ بمذهب الرجل ، وأن يدركه إلى الحد الذي يسمح له بتذوق ما يقرأ ، وإدراكه على الوجه الذي يقصده شبنجلر . وهذا مادفعني إلى تقديم كتابه بهذه المقدمة التي حاولت فيها ما وسعني أن أنقل مذهبه في أوجز عبارة ممكنة وأبسطها .

ومذهب شبنجلر مدون في كتابه الأصيل (Untergang des Abendlandes) « أفول الغرب » وقد مضى على نشره قرابة الثلاثين عاماً ، (وأرجو أن أصدر تعريبه في زمن قريب) . وقد أحدث يوم نشره في عالم الفكر الغربي دوياً قل أن يحدّثه مؤلف آخر إذ كتب عنه عام نشره ما يقرب من أربعائة كتاب ورسالة بأقلام أئمة الفكر ، ولم يكن ذلك غريباً على رأى صدم كل مألوف وصدع معاقل كانت لبدايتها في مأمن حريز من كل نقد ، بله تناولها أو معالجتها .

نعم لقد قام شبنجلر بثورة قلبت كثيراً من أوضاع الفكر المقررة ومن أسس الفنون وسائر الاتجاهات العلمية والأدبية ، فكم من هيكل فكري أو حكم راسخ حمته القداسة مئات أو آلافاً من السنين قد انهارت تحت معوله القاسي .

وكفاك أنه أحكم القضاء على المنطق المألوف منطق العلية فنزع سلطانه وأخذ بمنطقه الخاص الذى أسماه منطق الحياة أو المنطق العضوى . إنه يرى أن كل ألوان القياس والقضايا تستند فى النهاية إلى بدهيات هى ذاتها قضايا ، ولكنها قضايا مسلم بها لا تتسع لأن تبنى على قضايا أخرى . وهنا يتساءل : أليس كل التفكير أذن مرتكزا على الاعتقاد ؟ وأليس كل ما تعارفنا عليه من نظريات وأسس علمية مهما تباع من الدقة مبنيا على مسلمات (Postulate) هى فى ذاتها عقائد ؟ . فإن كان الفكر فى أعظم صورة مبنيا على المسلمات والعقائد فما الفارق إذن بين التفكير والاعتقاد ؟ أليس هو فى الدرجة فحسب ؟ أى فى أن الفكر المألوف أبعد عن العقيدة الأساسية منه عن العقيدة المألوفة التى تطالعك مباشرة ، وبدون أدنى وسيط أو تسلسل ؟ وبهذا حول العلوم فى أسسها إلى عقائد وقال : إن ما يأخذه العلماء على الدين إنما هو (بومرانج) أو سهم مردود الى راميهِ .

وهكذا هدم العلية المألوفة وحصرها فى حيز ضيق واهتدى إلى أن وراء الحوادث ما يعملو على الأسباب السطحية ، وراءها منطق الحياة والزمن ، وراءها القضاء أو المصير بالمعنى الألمانى Schichsal القضاء الذى يعمل على الفرد وعلى النوع وعلى الحياة ألوان النمو والتطور مما لا يمت بأى وشيجة إلى السببية فهو يعتنق جبرية من لون جديد تتصل بالجبرية الإسلامية وتختلف عنها : تتصل بها من حيث الحتمية ، وخطوها من التدبير . ولكنها تختلف عنها من حيث ردها إلى القدر بصورته الفلسفية الألمانية ، ذلك القدر الذى تلعب فيه الإرادة البشرية الفردية دورها . ومن العسير على غير من تذوق الثقافة الألمانية أن يتصور كيف تنسق صورة القدر مع فكرة إرادة ذاتية خارجة

عن الروح الصكونية

ومها يكن لون هذه الجبرية التي أتى بها شبنجلر فانها مع غيرها من أركان مذهبه كانت معولا جبارا أصاب المادية الحديثة في أرسخ جذورها، وأفسح الطريق لضرب جديد من الروحانية ينظر إلى المرحلة الحضارية الحالية في الغرب نظرة فيها لنا نحن الشرقيين رضا وتأس وبسط للامل في المستقبل . فهو روحاني أصيل . قد تفقد ببصره الثاقب إلى ما وراء المادة ، واهتدى إلى أن الروح هي جوهر الأمور لا المظاهر المادية التي تلعب بالأحاسيس فتخدعها وتصرفها عن الحقيقة الكامنة .

وليس من السهل أن تعين الناحية الثقافية التي ينتمى إليها شبنجلر : أ إلى الفلسفه أم إلى العلم أم إلى الفن ، والواقع أنه قد جمع بين كل ذلك وقد تجلّت عبقريته إبان الطلب إذ نال أعلى الدرجات الجامعية في كل من الناحيتين العلمية والأدبية ، وهو جمع قل أن يتوفر لدهن واحد . ثم تنجلي هذه العظمة في بحثه الأصيل إذ تراه يحول ويصول ذا مقدرة إعجازية في تيه الأعماق العلمية والفنية والفلسفية والرياضية والدينية ، ويتسع لتلك الكتل الهائلة من المعلومات التي تناوّلها ضمنا وتنسيقا في خفة وحذق ، ثم اقتنصت عبقريته من بينها علاقات بلغت الاعجاز في جدتها وأصالتها ، وهذه العلاقات هي أساس مذهبه الطلي الأصيل ولا شك في أنه اهتدى إلى مذهبه عن طريق استقراء علمي رائع في هدى إيمانة عبقرية شأن العالم المبكر الأصيل .

ولا شأن لنا هنا بكثير مما جال فيه فما يعنيننا أن نعرض إلا ما من شأنه أن ييسر للقارئ إدراك عباراته ومزاجيه ، وعلى من شاء الاستزادة والامعان في دراسته أن يقرأ له في لغته الأصلية أو في أية لغة غربية ، فقد ترجم إلى معظمها كتابه الأصيل « أفول الغرب » ولكن جوهر بحثه على أية حال هو نظرة جديدة إلى التاريخ أضفت على دراسته ضوءا جديدا ينصرف به عن العلمية

التي بلغ بها مومزن ورائكة الذروة والتي من شأنها أن تنقضى للحوادث مسبباتها ،
نظرة خرجت به إلى الفكرة العضوية التي مهد لها مواطنه جوته منذ قرن ونصف
من الزمان .

فهو يرى أن حياة الانسان الاجتماعية تسير في لونين :

حياة كلها رتوب لا تنوع فيها ولا جودة ولا ابتكار ، حياة لا تحصى الزمن
ولا تشعر بالتاريخ ولا بالحضارة وإن تخللتها بعض مظاهرها وهي ما يدعوها
بالحضارة الفطرية أو البدائية (Urkultur)

وحياة أخرى تتجلى فيها ضروب معينة من الحضارة تحدد للمجتمع ذاتيته-ه
وهي حياة الانسانية في صور شتى من الأمم واللغات والديانات والفلسفات
والفنون وما يستتبعه ذلك من أنظمة وأحداث سياسية واقتصادية وبالأجمال
في كل ما تعارفنا على تسميته بمظاهر الحضارة .

أما هذا النوع الأخير من المجتمع الانساني فهو تلك الجزائر المحدودة المعالم
في بحر الانسانية الزاخر . هو المجتمع كصورة عضوية ، وهو الذي تناوله التاريخ
وانتقل في معالجته من محض التسجيل إلى التحليل والتعليل مختلفا في ذلك باختلاف
موقف المؤرخ : فن المؤرخين من يجعل الأمة وحدة التاريخ ، ومن يجعلها الدين
والملة ، وآخرون يعدونها العنصر أو الدولة وغيرهم اللغة ، وطائفة غير أولئك
وهؤلاء تعدها خليطا من هذا وذاك .

ومها تختلف نظرة هؤلاء المؤرخين فانهم تأثروا فوق كل شيء بمكانهم
وزمانهم فكان إقليمهم الذي نشئوا فيه وتأثروا به ، وعصرهم الذي غمرهم
في لجته ينالان من عنايتهم شأننا لا يتناسب مع قدرهما الطبيعي . وآخر شاهد
على ذلك محدثو المؤرخين في الغرب الذين درجوا على تقسيم التاريخ العام إلى قديم
ومتوسط وحديث وأفرغوا للقديم الذي دام آلاف الأعوام وشمل عشرات
من الأمم حيزا لا يكاد يوازي ما يشغله جيل أو جيلان من التاريخ الحديث ولم

ينج من ذلك مؤرخو الصين والعرب إذ جعل كل منهم حاضر بلاده أصل التاريخ وخط من قدر الحوادث كلما قرامت في البعد مكانا أو زمانا .

وأخيرا أتى « شبنجلر » بشورته في معالجته التاريخ فأسمها الطريقة « الكوبرنيكية » قياسا على ما أحدثه كوبرنيكس في الفلك لبضعة قرون مضت يوم زحزح الأرض عن مركز الكون ، وقد كان العلماء قبله متأثرين به كل التأثير . فلقد قام شبنجلر بمعجزة تجريد نفسه من جاذبية الحاضر والبيئة واخترق الأحقاب والأصقاع وإذا به لا يرى تاريخا للإنسانية مطرد التقدم وإنما رأى في التاريخ مجموعة من وحدات عضوية تعارف القوم على وضعها في المرتبة الثانية لا على جعلها أساس كل شيء . رأى أنه لا الأمة ولا الدين ولا الدولة هي الوحدة التاريخية ، وإنما هناك ما هو أعم وأشمل ، هناك « الحضارة » .

فالحضارة في نظره كائن حي بمعنى الكلمة شأنها شأنه دائما من حيث إن أمورها ليست عللا ومعلولات وإنما هي دورة عضوية تبدأ بالخل والميلاد وتنتهي بالموت ، وتتميز بخصائص الكائن الحي ، بمعنى أنها تسير في دورات محتومة ، لا تنجو منها حضارة ما . وعلى رغم هذا التشابه في الكثير من مظاهر النمو والصورة اتسمت كل حضارة بسماتها الخاصة التي تميزها عن غيرها كما يتميز الفرد عن الآخر ، وتسمها بطابعها المعروف . وهذه الدورة التي تخضع لها كل الحضارات ، ثم المميزات التي تتميز بها كل حضارة عن الأخرى ، لا تخضع لإرادة بشرية . وإنما تسير سيرتها العضوية . فليست الحضارة في نظره على هذا الأساس هي هذه المظاهر المتنوعة التي تفرع الحس والفكر من لغة وفن وعقيدة وعلم وفلسفة ونظام سياسي واجتماعي واقتصادي وإنما هي

روح تتخذ من هذه النواحي سبلا للتعبير ، روح شحنها القدر بما تشحن به كل روح فردية . وهو في ذلك يتفق إلى حد ما مع المذهب الروحاني الذي يرى وراء مراحل النمو الأحيائية دورة مرسومة ، أي إملاء من القضاء لا تتجاوبا مع البيئة . فالضرورة هنا إنما هي ضرورة لا يفسرها سبب ولا علة ، هي الضرورة الأحيائية التي تجعل من الحبة الصغيرة نباتا باسقا متفرعا ، ومن الحيوان المنوي الضئيل إنسانا يافعا معقد التركيب . فكل ما أتاه الإنسان في هذه الحياة الحضارية الخصيصة المتنوعة إنما هو تعبير عن هذه الروح الكامنة ، وليس الأمر أمر أسباب للتقدم أو للتأخر أو للشورات أو لغيرها مما تمتلئ به بطون التاريخ على غير أساس .

وبما أن الحضارة في مظاهرها المألوفة ليست إلا وسيلة للتعبير عن الروح الكامنة وراءها ، والتي لا سييل إلى تجاوزها عتبة الوجود العميق إلى ساحة الوعي والحياة الظاهرة إلا عن طريق هذه الوسائل المألوفة ، فقد أصبحت أهمية المظاهر الحضارية في روحها لا في مظهرها ، روحها التي تدب وتنبض في كل فن وعقيدة وأصول علمية وسياسية . وهكذا أتى شبنجلر بأحد كشوفه الرائعة وهو أن لكل حضارة رمزها الذي يصل ما بين الروح والحس ، رمزها الممثل للون عمقها ، رمزها المتحكم في عقيدتها وأسسها ، في موسيقاها وصورها وسائر إنتاجها الفني . وإن هذا الرمز ليزبثق في قوة ، وعلى حين بغتة في ربيع الحضارة فيشيع بقوة وبغمر النفوس طوفانه ، ولا يفسره منطق ولا عليّة ، وعلى ذلك فهمما تتصل حضارة بأخرى وتستعر من غيرها قبسا من أدها أو فلسفتها أو نظامها أو أسسها العلية يكن ذلك وهما لا يتصل بالجواهر ، ولا فرق بينه وبين ذلك الذي يتزيا بلباس آخر متخيلا أنه بذلك الدثار قد أصبح

يشعر شعور صاحبه الأصيل ، وبمعنى آخر أن لكل حضارة عقيدتها وفلسفتها وأسس علومها وأنظمتها السياسية وسائر ألوان فنونها ولها قوانينها ، وإن فيلسوفا أو فنانا يونانيا لا يتذوقه حق التذوق إلا يوناني أصيل في هذه الحضارة ، وأن نقل الفلسفة والفن من حضارة الى حضارة إنما هو اقتباس وتفاعل لا نقل ، فالنقل مستحيل لأن الروح الكامنة لا تنقل . وإن ما يقرؤه الحضارى العربى ويفهمه عن فيلسوف أو فنان يوناني يستحيل الى روحه العربية مهما يتباين الدثار . وبفضل هذا الكشف الرائع سهل تفسير تلك المناقضات بين فلاسفة العرب وفلاسفة الغرب فيما نقلوه عن أرسطو وأفلاطون وغيرهما ، فلم يجمعوا على شيء منه الى اليوم اذ أن كل ما تمتلئ به فلسفات العرب والغرب عنهما وعن غيرهما ليس الا نظرات عربية أو غربية تسردها روحهما الخاصة لا الروح اليونانية .

فليس هناك فلسفة ولا فن ولا علم ولا نظام قانونى مطلق فى التاريخ . ليس هناك تاريخ قديم أو متوسط أو حديث ، وإنما هناك حضارات منعزل بعضها عن بعض كل الانعزال ، لكل منها فلسفتها وعقيدتها وفنها وعلومها وقانونها . هناك فلسفات وهناك علوم وهناك فنون مستقلة لكل حضارة يستحيل أن تنقل من حضارة لأخرى ، وهكذا قضى شبنجر على وهم متمكن من كل عالم وفنان : هو أن هناك فلسفة عامة وعلما عاما وتاريخا عاما وفنا عاما إذ قضى أن ذلك كله وهم وضلال . كما فسر بهذا الكشف معظم المغالطات التى لجأ إليها مؤرخو العلوم والفنون والأنظمة . فقد تأخذك روعة تحفة أو فكرة أنتجتها حضارة أخرى . ولكنك فى تأثرك تتأثر كفرد من أفراد حضارتك . لا كفرد من أفراد الحضارة الأولى ، وفى ضوء مصباحك

الخاص بلونه المميز ، أى يلهام روحك الخاصة .

وهكذا فاجأ المؤرخين بضربة قاسية . وهى أن جل التعليقات التى أدلوا بها لروائع الحوادث ليست إلا وهما زيفه سلطان المنطق المؤلف وقد أبان فيما أبان أن الثورة الفرنسية لم تأت عن طريق الأسباب التى تمتلئ بها بطون الأبحاث التاريخية ، والتى منها الضنك والظلم ، إذ تبين أن الزارع الفرنسى فى ذلك الأوان كان من أسعد الزراع فى أوربا كما أنها لم تتجاوز « باريز » والمدن الكبرى كشأن جل الثورات السياسية ، وبعبارة أخرى أبان أن تلك الثورة وأمثالها إنما هى مراحل انقلابية لا بد من وقوعها فى ذلك الوقت بالذات وكل ما هنالك أن لون الانقلاب هو الذى يختلف باختلاف الظروف ، كذلك لم تسقط غزوات الجرمان روما ، وإنما أسقطتها شيخوختها ، وكل ما فى الأمر أن الغزو والشيخوخة ظهرا معا على مسرح التاريخ . وهوى ألقى الك بما يراى ذلك وغيره فى كل حضارة أخرى فى دقة رائعة .

وعلى ذلك فإن الأحداث مهما تبلغ من قوة ، لا تستطيع أن تنال من تطور المواحل والمعالم العضوية لحضارة ما ، إذ أن نصيبها لا يتعدى نصيب المذهب من الفرد .

وكما عجز العلم عن إحداث أى تعديل فى تركيب الأجهزة وآجالها المقررة كذلك لا تستطيع العلوم والعقريات والعوامل الاقتصادية التأثير فى المعالم الأساسية لسير الحضارة التى يتحكم فيها القدر الأحيائى نفسه ، ذلك الذى يسير بالكائن الحى من البويضة إلى الموت فى مراحل مرسومة دقيقة . وكل ما يستطيع هو ما يوازى نصيب التربية فى الإنسان والحيوان والنبات ، أى حسن التوجيه فى احترام السنن العضوية المتحركة فى ذلك النمو .

لذلك كانت مهمة القيادة والزعامسة عند شبنجلر التهذيب لا الإبداع ،
التهذيب المبني على احترام سنن تطور الحضارة ، تلك السنن التي تشمل فيما تشمل
الإبداع نفسه الذي يبرز في وقته المعين في النمو الحضارى . لافرق بينهم وبين
المربي الماهر والزارع الحصيف اللذين يحترمان سنن الحياة ولا يسمحان
لجهودهما أن تتصل بالمستحيل : فالزارع الحصيف لا يحاول أن ينتج القطن
في أسبوع بدل الأشهر الستة أو السبعة ، وإنما يحسن القيام على زرعه حتى
يأتى بأكبر محصول وأحسنه ، ويرى شبنجلر في هذه المناسبة أن الأمة إنما
هى القادة فحسب لأن الشعب لا يسير إلا بإيحاء قادته .
وهكذا تبدت إمكانية جديدة لم يحظ بها التاريخ قبل تطبيق هذه النظرة الشبنجلرية :
تلك هى أن المؤرخ على طريقته الجامعة بين التوسم والقياس يستطيع قراءة
المستقبل إلى حد كبير على ضوء نمو الحضارات السابقة . بل يستطيع أن يملأ
كثيرا من صفحات التاريخ الماضى التى أصابها الفناء بنفس الطريقة التى يصل
بها عالم الحفريات إلى بناء هيكل الحيوان ضخم بائد من أحد عظام الجمجمة التى يعثر
عليها . وهذه الطريقة كشف شبنجلر عن سر غامض من أسرار تاريخ مصر
القديم وهو عصر الهكسوس لا من حيث الإمعان فى تفصيل وقائعه
ولكن من حيث وضعه وحوادثه اجمالا . أى ما نال مصر فيه من تغييرات
تعتمد المؤرخون المصريون إبادتها من بحلاتهم الجبرية والبردية الخالدة .
وما كان ذلك من عاداتهم . وما أبادوها الا خجلا من مظاهر الانحطاط التى
تسجلها تلك الحقبة ، كما جلا الغموض عن كثير من مراحل معينة فى تاريخ الهند
والصين والحضارة العربية والأمريكية القديمة وعلومها وفنونها وفلسفتها
ودياناتها وأنظمتها .

وتولد الحضارة إذا ما أُلتي القدر بذرتها في تربة مجتمعات رتوبية ،
تسودها تلك المظاهر الحضارية البدائية ثم تأخذ في النمو والتشكل العضوي
والازدهار في بقعة محدودة معينة على سطح الكرة الأرضية حتى إذا ما حققت
جميع إمكاناتها من شعوب وعقيدة وفنون ودول وعلوم نالها عامل الموت المحتوم .
فالحضارة وهي ذلك الكائن الحي الروحاني الكامن وراء مختلف المظاهر لها
ميلادها ولها موتها . وهي في حياتها تحقق في سجل التاريخ سائر إمكاناتها .
وإن الحضارة في أول أمرها يوم ينبثق فيها الرمز المميز لها ويسود مظاهرها
البادئة في الشكل ، هي المرحلة التي يسود فيها الإلهام والعقيدة ، وتظهر فيها
ظهوراً قوياً الأصول الأولى لكل عقيدة وكل فلسفة وكل فن وكل نظام .
ثم تأخذ الحضارة في التطور والتشكل حتى تبلغ مرحلة الكهولة وإذا ذلك تتحول
إلى مدنية (Civilisation) بعد أن تأخذ روحها في الاجتذاب . وكلما أخذت
إمكاناتها في النفاد لجأ العقل إلى تحويل تلك الإمكانيات إلى مظاهرها المادية ، إلى
تلك القشور المتجسمة في حوادث التاريخ والتي تزرع بها انقلاباته . فتأخذ
هذه الفيوض الروحانية التي ضمرت سياق الحضارة تلك المظاهر المادية وغير
المادية التي تتمتع بالبقاء والتي يظل بعضها قائماً لا في مرحلة المدنية أي المرحلة
الحضارية الأخيرة فحسب ، بل بعد موت الحضارة نهائياً ، في تلك المجتمعات
الرتوبية اللاحقة بالحضارة حيث تعيش مجردة من لبضها الأصيل . فلا
يجمع ألوان الحياة رمز ولا طراز لا أي عامل موحد يعكسها طابعاً
خاصاً مميزاً .

وكل حضارة لها مرحلة الشباب . مرحلة الحضارة الأصلية التي تغمرها
الروحانية وهي التي يطلقها شبنجر على المرحلة الكاملة أي حضارة (Kultur)
ولها كهولتها وشيخوختها وهي التي يطلق عليها المدنية (Civilisation) وفي
الأولى أي الحضارة بمعناها التي المحدود تقوى كل المظاهر الإلهامية والوجدانية

حيث يبلغ الإنتاج الروحي أوجه بعكس ، مرحلة المدنية عندما تغطي المادة على الروح . وينخدع الباحث والمؤرخون فيرون في التقدم العمراني المادى وبخاصة في كمه ، تقدما ورقيا ، وما هو في الواقع إلا الجذب الروحي ، وهم في ذلك متأثرون بالحس وبقاء آثاره مدة من الزمن قد تطول إلى حد بعيد .

وما مرحلة الحضارة الغربية الحالية إلا غمرة المدنية المضللة بهرجها الذي يستر فقرها الروحي وقد نفذ من أمد . فهي سائرة الآن بخطا واسعة إلى الفناء المحتوم الذي أصاب الحضارات السابقة ، وسيصيبها ويصيب كل حضارة تولد ، لا مفر من ذلك مهما يلجأ العقل المغرور إلى التنظيم والتدبير . تلك سنة الوجود ولاراد لأمر الله . وتلك المرحلة الراهنة في الحضارة الغربية هي نفس مرحلة المدنية التي أصابت اليونانية في عصرها الروماني ، وأصابت المصرية القديمة في عصرها الإمبراطوري . وهكذا يفسر هذا الكشف الرائع ذلك الجمال الذي يغمر الإنتاجات الفنية للعصور الأولى مهما تكن بسيطة . كما يفسر ذلك الجذب الذي يصيب تلك التحف التي تظهر في عصر المدنية بكثرة وضخامة وإمعان في التعقيد والزخرف ولكنها سخيصة سخف الغنى المحدث في هذا العصر الراهن من مرحلة الحضارة الغربية .

نعود إلى ميلاد الحضارة فنقول ، إنه إذا ما أُلقيت هذه البذرة الإلهية في تربة البشرية غمرت النفوس في هذه البقعة المعينة نزعات خاصة هي ديب الحياة الحضارية فتندفع هذه المجتمعات على اختلاف أقوامها ولغاتها وسائر ألوان حياتها إلى الشعور بذاتها في وسط الكون الأعظم ، وتأخذ الروح الحضارية في التعبير عن هذا الشعور في العقيدة وألوان الفن والأنظمة الاجتماعية والسياسية والعلوم وغير ذلك . بضروب من التعبير يتحكم فيها

جميعاً بقوة خارقة « رمز ، الحضارة الذى يظهر فجأة فى قوة رائعة ، فنجد الأسطورة الأساسية التى تبنى عليها عقيدة الحضارة للتعبير عن الشعور الكونى كما تأخذ الفنون فى إعلان الروح الجديدة أولاً فى خوف وحذر ثم تنطلق فجأة فى جراحة سحرية .

وتميل كل حضارة إلى تفضيل ناحية معينة فى مبدأ نشاطها الحضارى ولكن لا يلبث هذا التعبير أن يأخذ فى الانتشار وشمول سائر النواحي .

وعند ما يبدأ الرمز فى الظهور يكون شأن الحضارة كما لطفل الذى يقابل الحياة فى خوف وانزعاج فيلتجئ إلى صدر أم حنون . كذلك قد تلجأ الحضارة إلى صورة حضارة أخرى أصابها البلى والفناء ولم يبق فيها غير هياكلها العقيمة فتقتبس منها ما تتدثر به على سبيل الاندراض ، وهو ما يسميه شبنجلر « التشكل الكاذب » (Pseudomorphose)

فإذا ما صلب عودها - وقد يكرر ذلك وقد يتأخر - اندفعت فى قوة إلى خلع ذلك الدثار الكاذب ورمته جانباً واذ ذاك تتجلى الحضارة فى أروع صورها على مسرح التاريخ .

ويتميز ربيع الحضارة بعدة مميزات ، فمن الناحية الروحية تبدأ النظرة العالمية الأسطورية والميثافيزيكية فى النشك ويزغ ويشيع رمزها فى مختلف الميادين عن طريق إلهام روحى قوى فجأى يغمر النظرة الكونية ويسود الفنون وبخاصة فن العبارة .

ويبتدىء تشكل الأقوام على صورة أمم أى وحدات عضوية سياسية ويتزعم الجميع إذ ذاك الطبقتان الأصيلتان : النبلاء ورجال الدين . ويحيا حياة ريفية تأخذ فى التمحض عن تلك الوحدات الاجتماعية التى تبدأ فى التكون

حول قصور النبلاء والأمراء وكبار رجال الدين ، وهو ما يميز عهد
الفروسية والإقطاع .

ويتلو هذه الوثبة الربيعية رد فعل أول ، تعارف المؤرخون خطأ على
نعتة بالنهضة (Renaissance) وما هو في الواقع الا محاولة خائسة لروحها ،
بالارتداد الى صورة لحضارة بائدة يخيل اليها أنها تحياها من جديد ، وليست
في الواقع الا تكلفا لا يصل الى السياق الاصيل للحضارة الفتية ، فعصر النهضة
في الحضارة الغربية الذي كان مركزه جنوب أوروبا لم يكن في الحقيقة
احياء للحضارة اليرنانية القديمة كما يغالط به التاريخ وانما كان الرد الفعل الذي ليس
فيه من القديم الا وهم وخداع .

فاذا ما حل صيف الحضارة . أي أوجها . اكتمل شعرها الذاق وبدأت
تنزع نزعة روحية اصلاحية قوامها من الناحية الدينية ثورة شعبية تصل بين
روح الحضارة الحققة والعقيدة ويأخذ الفكر في النمو وتسديد سهامه الى الأصول
التي سلكت بها الحضارة في ربيعها وبخاصة الدين . كما تبدأ الآراء الفلسفية
المحضنة في الظهور ، وتظهر الخصومات بين الأنظمة المثالية من جهة والواقعية
من جهة أخرى .

وهو يرى أن المجتمع في شباب الحضارة يأخذ في التشكل العضوي : فكما
يتميز الكائن الحي بكمال تشكل أجهزته وأعضائه في فجر شبابه يكتمل تشكل
المجتمع في ربيع ، وما الطبقات الاجتماعية التي تميز عهد الاقطاع والتي تفرق
بين النبيل وغير النبيل الا تلك العضوية التي ينوء بها شبنجلر ، وهو يسمى
المجتمع اذ ذاك بأنه على « صورة » (In Form)

تلك الصورة التي من شأنها أن يندفع الإنسان أو الحيوان في عمله لانتيجة

للتمعن والتدبير بل للسليقة والتقاليد ، تلك السليقة التي تنحدر خلال أجيال من دماء الفصيحة أو الجدود إلى الفرد ، فيكون لعمله إذاك روعة مهيبة تأخذ بلب المشاهد ، روعة لا يعرفها العمل المنظم المدبر . فالكوكبة من الخيل التي تسير منضمة في ميدان السباق ، في توافق تام ، والتي تترك قوائمها هذا التوافق إذا ما تركت السهل إلى أرض وعرة ، والتي لا تلبث أن تعود إلى تواقةها الجميل إذا ما استأثقت العدو في الأرض السهلة إنما هي « على صورة » . كذلك حين يقوم الجندي والمصارع والمبارز بأخطر الحركات من غير تدبير يكون كل منهم إذاك على « صورة » كذلك عند ما صدر ال (Kontropunkt) عن باخ كان هذا الصدر إذاك « على صورة » كما كان « على صورة » جيش نابليون في أوسترليتز ومولتكة في سيدان .

وبالجملة فإن كل ما أنتجه التاريخ من عظمائم الأمور في الحرب وفي متابعة الحرب بوسائل فكرية ندعوها « السياسة » ، وفي تنافس الدول والطبقات الاجتماعية أو الأحزاب ، كل ذلك كان من فعل تلك الوحدات التي وجدت نفسها « على صورة » إذاك .

ويرى شبنجلر أن المجتمع يبلغ أكمل صورة في الحضارة حين يتمثل في صورة الدولة ، وهي وحدة بين مثيلاتها . ثم إنه لا يرى في قوتها الداخلية مهما تبلغ أية أهمية بجانب قوتها الخارجية بل إنه لا يرى في هذا الكمال الداخلي إلا تأهباً واكتمالاً للصورة لتكون على استعداد في الحرب .

والحرب عند شبنجلر كما هي عند كثير من سبقه من مفكري الألمان - الأساس في الوجود ، وهو لا يرى في السلم إلا فترات غير طبيعية في التطور الاجتماعي للحضارة ، وسيتبين القارئ في هذا الكتاب الذي أقدم له : كيف أنه لا يرى في الفترة السلمية التي دامت من ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ والتي لم تسجل غير حروب محلية ضئيلة - إلا فترة نادرة وشاذة في تاريخ اللسانية جمعاء ، ضللت المؤرخين

المعاصرين عن تلك الحقيقة البارزة . ودَعَمَ ذلك بأن أبان بالإحصاء
أن أيام السلم أقل بكثير من أيام الحروب .

فالحرب هي خالقة كل شيء عظيم ، وكل ماله معنى في تيار الحياة إنما ينشأ
عن النصر والهزيمة .

وتساهم هذه النظرة فيما رآه شبنجلر من أن الفلسفة الأخلاقية النفعية التي
رفع لواءها فلاسفة الإنجليز ، والاقتصاديون منهم بخاصة كآدم سميث وبنيتام
قد وضعت مُشْلا منحنىة للمجتمع ، تتجمع كلها حول السعادة التي اكتملت
كهدف عند ماركس في « الرأسمال » (des Kapital) الذي نظم للمجتمع
مثاليته الشيوعية على هذا الأساس وهو يعيب على البشرية أن تنحط إلى
هذا الدرك إذ أن التاريخ لا يعرف السعادة . فالحياة مأساة ، ويجب ألا تخيب
مرارة الصورة عن الأذهان . يجب ألا ينشد الإنسان الهناء والرفاهية
ولنما عليه زشدان الواجب والتضحية . بل استطابة التضحية لذاتها
في سبيل كل واجب .

ثم تبدأ الحضارة في الاتجاه من الروح إلى الفكر ومن الريف إلى المدينة
وتأخذ الطبقة الوسطى في التمكن ، ويشرع المجتمع يأخذ سبيله إلى صبغته
الدولية ، ويبلغ النظام السياسي إذ ذاك أكمل صورة في الحكومة المطلقة
القوية التي لاراد الحكمة رئيسها وتكتمل صورة الدولة في لون حكم بالغ آيته
في أنظمتها وعرفه وتقاليده سواء في علاقاته الدولية أو إجراءاته المحلية ،
وتكون صورة الحضارة إذ ذاك قد شرعت تفرغ حيويتها متجهة إلى ذلك
التحجر المدنى في إطار الشطرنج (Stile) .

ثم يحل الخريف الحضارى وهو ما نسميه بالمدينة ، وفيه تبلغ القوة

الفكرية أوجها على حساب الروحانية الخالدة فيعظم شأن المدينة الكبيرة التي تشيع فيها حركة التنوير المنادية بالسلطان المطلق للفكر وعبادة الطبيعة ، كما تتكون نهائيا المذاهب العظمى في الفلسفة والنظريات العلمية الرائعة . وبانطفاء الشعلة الروحية تحتكر الفلسفة الأخلاقية العملية الميدان ، وتسود المادية والنفعية جميع الأنظمة ، ولفقير الروح والصور الداخلية تأخذ الطُّرُز في التحكم في ميدان الفن فتبدأ « المودة » ، في السيطرة متبدلة كل حين وتنحدر الفنون إلى حرف ، والابتكار إلى تقليد وتلفيق ، ثم تحاول هذه الفنون يوما وفي نشاط احتضاري - الأخذ بأسباب التقليد ، والتزين بموتيفات (Motive) عصر الشباب لهذه الحضارة نفسها أو لحضارات أخرى وهو تقليد أو تزين خال من كل معنى ، وهو ما يعبر عنه عادة « بالكلاسيكية » وفي الناحية السياسية تنهار صورة الدولة وتحل تلك المرحلة الرهيبة التي هي « الثورة » ، وما هي الا الانتقال النهائي من مرحلة الحضارة وشبابها الى كهولة المدنية بصفة قطعية وبفكرها المحض . وهي ما يسميها شبنجسار بالنابليونية وفيها تقتصر المدينة نهائيا على الريف ، أى الشعب على الطبقات الممتازة أو الفكر على التقاليد ، والمادية على الروحانية ، وأخيرا وفي نهاية الخريف يشتد انحلال المجتمع فيتخلى عن الصور العضوية شيئا فشيئا متجها الى صورة جموع عالمية عملية حضرية ، وتزداد حدة الفواصل بين المدينة الكبيرة والريف ، كما يقوى سلطان المال في ميدان الحياة ويأخذ الاقتصاد في السيطرة على السياسة وعلى سائر الاعتبارات الاجتماعية الأصلية ، ويقفر الإلهام المبدع في الفنون ويتمكن التلفيق فيصبح المؤلف الموسيقى ملفقا محسب ، وكذلك المصور والفن في العمارة . وهو ما نشهده اليوم . كما تظهر في المجتمع

طبقة جديدة لم يعرفها شباب الحضارة ، وهي ما نسميها بالطبقة الرابعة وما هي الا الدماء الحضرية التي لاتعرف من الريف الا اسمه والا أن يكون عبدا للمدينة وسخرية لها ، تلك الحضرية التي يقول فيها شبنجلر : انها بتركها الريف قد قطعت الصلة بالتربة بصفة قطعية لاراد لها . هذه هي المدينة في أتم صورها وهي جماعة من الغوغاء « فاقدة الصورة » يوجهها المال أولا عن طريق الصناعة ثم عن طريق « الخبز واللحم » ويسير المجتمع الغربي والمجتمعات التي تحوم حوله في سرعة نحو هذه الصورة المعبرة عن الانحلال بأتم معناه وقد بين التاريخ كيف أن المدن الكبيرة في دور المدينة المتأخر كانت هائلة في اتساعها كما كانت منازلها تحاكي ناطحات السحاب الأمريكية من حيث الاستعاضة بالارتفاع عن اتساع الرقعة بسبب الازدحام فكانت (سر من رأى) (سمرا) ذات طابع أمريكي تمتد ثلاثة وثلاثين كيلو مترا على شاطئ دجلة كما كانت مساجدها في حجم هائل حتى كانت رقعة أحدها ٢٦٠ في ١٨٠ مترا وقد بلغ طول القصر الذي بناه المتوكل لأحد أبنائه ١٢٥٠ مترا . وكان في مدينة « أخناتون » من الشوارع ماعرضه خمسة وأربعون مترا . هذه هي الامبراطورية بأجل معناها لا تنفع الا لكل غث وتجهل المدن العالمية الكبيرة صورة واحدة . فلا فرق بين نيويورك ولندن وكالكوتا وشنغاي والقاهرة (اذا ما استثنينا الأحياء القديمة وقد أصبحت قليلة جدا نسبيا) لأن الروح قد أمحت والطابع المميز قد زال ولم يعد هناك غير أفراد لا ينتظمهم الا المال وسلطانهم بقانونه ونظامه وماديته وقسوته الباردة . ثم يحل الشتاء فتقف الروح نهائيا ويقضى على التقاليد : فلا تجد الفنون من يتذوقها ولا التقاليد من يحترمها وتسيطر المادية سيطرة مطلقة .

في هذا الاوان تموت الانعام بموت كل متذوق لها ، وينفي الجمال بشيوع
الرتوب والمادية ، ويصبح كل خير خبرا من الاخبار ، ويعفى على كل مظاهر
الترف والعظمة سياج المساواة والسك كما يتحجر العرف والعادات نهائيا
في قوانين جامدة .

حتى اذا بلغت هذه المادية أوجها يتجه المجتمع إلى القيصرية التي لا تسيطر
على قوميات محدودة المعالم بل تنتهي إلى السيطرة على جموع فاقدة الصورة
أو استغلال أهم أجنبية استغلالا ماديا محضا .

وقبل انطفاء قبس الجذوة الروحية تومض للمرة الأخيرة في شكل تدين
جديد كما ظهر في التدين النشاني في عصر أوغسطس في الحضارة الرومانية
وشهونجتي في الصين ، والتي أثرت في نفس هيرودوت خلال زيارته لمصر ، وهي
تبدأ عند إفلاس العقلية إفلاسا نهائيا . وربما كانت الحضارة الغربية الآن
على وشك الدخول فيها . ويقول فيها شبنجلر : إن النفس البشرية تصحويوما كما
ينقشع الضباب عن مدينة قديمة فتأخذ معالمها المرئية في سبيل وضوح
أخاذ ولكن الروح الأصيلة التي كانت تنبض فيها يكون قد عفى عليها الزمان .
هذه هي الومضة الأخيرة التي تظهر في الحضارة كآخر تسمية في وجودها الحق .
ثم تنتهي الحضارة نهائيا بعودة المجتمع إلى حياة رتوبية ذات لون خاص
يسمى شبنجلر « بالفلاحية » نسبة إلى فلاحى مصر في العهد الرومانى . وقد
تطول هذه المرحلة التي ليس فيها شيء من صميم الحضارة وإن كانت قد أبتقت
على بعض مظاهرها قرونا بل آلافا من السنين تظل فيها تلك النواحي المتحجرة
محفوظة على معظم الصور محافظة شكائية بحكم العادة وتمثل هذه الحياة الرتوبية
ذات اللون الخاص في الصين والهند وغيرها ، من الأمم التي طالعتها الحضارة
الغربية الحالية في غزوتها اليوم .

هذا عصر الامبراطوريات الذي يبدأ بالقيصرية وهي الدولة التي لم يعد فيها

من العضوية أثر ما ، فتصبح هناك فيها مد هائلة ليس إلا سادة
وجموع لا يربط أحدهما بالآخر أى رباط اجتماعى ولا أى أثر للتقاليد .
وتعيش هذه الجموع الزاخرة على ما يلقى إليها من فتات وما تستمتع به من
هو ومشاهدة للألعاب . هذا هو عصر تلك المباني الرومانية التى ترى آثارها
وأطلالها فى إيطاليا وجنوب فرنسا وغيرها من « استادات » ألعاب وما إليها .
والخلاصة أن الدورة الحضارية تبدأ بالحضارة وهى ازدهار الناحية
الروحية وتنتهى بالمدينة حيث ينمو سلطان المادة والفكر العمل . فالحضارة
تتفتح من الداخل والمدينة تنبثق الى الخارج .

هذه الأدوار الحتمية التى لا بد أن يمر بها ذلك الكائن الحى المسمى
بالحضارة . وهذه هى الدورة التى اقتنص أسرارها شبنجلى من بين سطور
التاريخ وخفائيه وطبقها على جميع الحضارات حتى إنه أطلق لفظ « المعاصرة »
على معنى جديد يتخطى الأحقاب والعصور وينصب على حادثتين أو شخصيتين
تاريخيتين لا تعيشان فى وقت واحد كما تفهمه اللغة المألوفة ، ولكن قام كل
منهما فى نفس الموقع من نفس المرحلة فى الحضارة التى يتبعها وبذلك تتمتعان
بخصائص متطابقة فى كل ناحية كمعاصرة نابليون لاسكندر والبوذية الهندية
والكنفوشية الصينية للرواقية فى اليونانية والاشتراكية فى الغربية الحالية .
ومن طريف ما اهتدى اليه فى التاريخ الصينى محاولة الامبراطور « هيانج سوى »
عام ٥٣٥ إنشاء عصبة سلام بين الدول الصينية المتطاحنة مدفوعا « بالتاويين »
وفلسفتهم السلمية ، وقد غلبت هذه الحركة على أمرها أمام قسوة الواقع
وقوة غرائز الإنسانية فاكتمسحتها الحروب كما اكتمسحت معاصرتها فى الحضارة
الغربية وصنوها أعنى جمعية الأمم بجنيف كما أنه لافرق بين « هوانج » فى الصين

وأما زيس في مصر وألب أرسلان فيما بين النهرين مهما يتذكروا في أزياء متباينة فكلهم قياصرة .

وقد كشف شبنجلر عن عدة حضارات تختزل التاريخ البشرى وفيها لعبت الدورة السالفة دورها ، كما سجل لإحداها وهي الأمريكية القديمة ظاهرة أخرى وهي كيف يُقضى على حضارة قبل أن تستوفي دورتها . وذلك أن الكاشفين الأسبان ومن معهم افترضوا الحضارة القائمة يومئذ في المكسيك وما يجاورها . وكان فيها مدن تباهى مدن الغرب الحالية باتساعها وعظمتها مطبوعة بطابعها الخاص . وكيف أن تلك الحضارة التي بلغت في الرقي الثقافي شأوا لا يخطر على الخيال قد أريدت بضربة واحدة ، فقد كان لها رياضة عالية وفلك وقانون وفنون في مستوى رائع .

أما تلك الحضارات التي يثبتها التاريخ فهي المصرية القديمة وزميلتها البابلية بين النهرين ، ثم الصينية والهندية ونكادان تكونان متعاصرتين ، ثم اليونانية القديمة (أو الأنثيكية) أو الكلاسيكية أو الأبولونية «نسبة إلى الإله أبولو الذي تجسمت في صفاته روح هذه الحضارة » ، وهي الحضارة التي يتجسم شبابها في اليونانية القديمة وخريفها وشتاؤها في الرومانية بمعنى أن روما هي كهولة اليونان . ثم العربية وهي تبدأ بميلاد المسيح ثم الأمريكية القديمة وهي متأخرة قرنين عن العربية أو متقدمة سبعة قرون عن الحضارة التي نشهد قرب ختامها وهي الغربية أو الأوربية أو الفاوستية (نسبة إلى فاوست غوتا) التي بدأت قرابة العام الألف الميلادى . ثم يقدر شبنجلر أن هناك حضارة جديدة في دور الولادة هي الروسية .

وقد خرج شبنجلر بشجاعة فائقة على ماعارفت عليه الثقافة الغربية بله

العربية القديمة من تمجيد للحضارة القديمة « اليونانية » فلم ير فيها إلا حضارة
وضيعة تجهل الزمن ولا تعرف معنى الخلود . بل رأى فيها جنوحا الى المادية
كما كانت حضارة حث لا تعرف غير الأجسام المنعزلة وقد انطبعت تلك الخصائص
في دينها الذى لا يعرف غير تعدد الآلهة وأمعن في ذلك حتى رأى في الوجدانية
إلحادا ، كما تجل في نظامها السياسى إذ كانت مدن اليونان دولا تامة ومستقلة الواحدة
عن الأخرى تمام الاستقلال مع صغرها ولم يكن سبب ذلك كما تخيلته العلية
التاريخية - الطبيعة الجغرافية للأقليم ، فكم من بلاد توحدت ثقافتها برغم هذه
الخصائص الجغرافية . ويستشهد بفلسفة ديموقريطس الذرية الذى لم يعرف
غير ذرات المادة أساسا للوجود ، وكان يقول بأن الرؤية إنما هي تطاير لهذه
الجزئيات الصغرى الى عين الرأى . كما بين كيف كانت صورة الكون لدى
أرسطو إمام فلسفة اليونان اثنتين وخمسين كرة طباقا وكيف ان مُثُل أفلاطون
وقد زعموا أنه رب الروحانية كانت صورا مادية بمعنى الكلمة ويكنى عنده
للهوين من أمرها انها حضارة لم تعرف للفراغ ولا للارادة لفظين في لغتها
على الاطلاق ، ثم إنها لفقرها الروحى كانت تنشد الفناء وتجهل معنى الخلود
ومن ثم فلم تر في الانتحار للفرار من تبعات الحياة عارا ، بل كان بين مذاهبها
ما يمجده وهو يعنى مذهب الكليبيين . فما أبعد البون بينه وبين الانتحار
« الهراكيرى » الذى يرمى الى غرض سام هو التضحية في سبيل الامبراطور
او اى مقصد نبيل يتصل بالحياة القائمة لا الى الهرب منها كما كان ذلك شأن
الانتحار الكلاسيكى .

وقد ترتب على نشدانها الفناء وجهلها معنى الخلود ألا تعرف فكرة
اقامة المتاحف ، وألا تحرص على اسماء ملوكها السابقين ، وكان من جراء ذلك

أن فقدتها ، وأن تحرق الجثث مكتفية بالرماد شأن الهندية ، ولذا كان من أدواتها المألوفة وعاء رماد الجثث .

هذا إلى أنها كانت عارية من الروح التاريخيآ ، ويستشهد بمؤرخها الأشهر (Thucydides) وبقصر ، فوآدث الحرب الفارسية اليونانية في أظر الأول ، وحروب قرطاجة في أظر الثاني لم تكن لها أهمية ما . بل لم تذكر أسماء ملوكها الدورين في عصر حضارتها ، ثم إن هذه الحضارة لم تبق على آثارها الأولى بل تركتها أكواما بعد غزوة الفرس .

كذلك كانت فلسفتها وفنونها وأنظمتها وقوانينها . فقد انحصر تمجيد فنها في الجسم العارى ، وكذلك كان أجل ما في فنون هذه الحضارة فن التجسيم للجسم البشري إذا اتفق ذلك مع روحه المبالاة للصغر والتحديد . ولذلك كانت بطابعها الحسى أقرب إلى الإدراك وأدنى إلى القلوب من الحضارات الأخرى فنالت من التقدير ما لا يتناسب مع قدر روحها . وما تلك الروحانية التى اغتصبها أفلاطون وغيره في التقدير من فلاسفة العرب والغرب إلا لون مصنوع في الحضارتين العربية والغربية .

ولم تستمتع هذه الحضارة بمجدها المؤلف إلا لأن العرب لم يكن أمامهم غيرها في شباب حضارتهم للتعبير عن إلهاماتها العربية المنبذقة ، وأمعن التشكيل الكاذب فجعل ذلك الدثار الذهني يدفع إلى الظن بأن ما نقلوه حضارة يونانية ثم نقل الغرب عن العرب في الأندلس وجنوب إيطاليا وسائر الرقعة المتاخمة تمجيد هذه الحضارة . ثم لما فضجت ظاهرة النهضة في الحضارة الغربية التى هى رد فعل لزعتها الأصيلة ولمست حضارة اتقتبس منها لم يكن أمامها إلا هذا التراث ، وخيل إليها أنها يعثت الثمنون اليونانية والرومانية من جديد ثم تمكنت بعض مظاهرها وبخاصة لغتها اليونانية القديمة واللاتينية وبعض آثارها الفكرية من التربة الغربية . ولكن ذلك كله لم يكن مطلقا الشئ القديم نفسه

بل كان محوّرا بما يناسب الروح الجديدة الشابة . وفي الواقع أن كثيرا مما ظهر في عصر النهضة واعتبر بعثا للفن القديم كان عريبا محورا لا يونانيا أو رومانيا ، فجموعة العقد والعباد التي تزين إيوانات مباني النهضة لم تكن يونانية الأصل بل عريته . وبعبارة أخرى أن الروح الغربية في عصر النهضة لم تتخير الا القليل مما أتت به الحضارة القديمة ، وهو ما رأت فيه ملاءمة لنزعتها .

أما المصرية القديمة فتمتاز بالروعة والجد والعظمة والوقار . لقد سيطرت على روحها نزعة الخلود : في فن عمارتها الرائع وفي عقيدتها الرامية إلى أزل قد . وفي اتخاذها الطريق المرسوم المثابر رمزا لكل مظاهرها الحضارية . ويبدأ شبابها بالعصر القديم ، عصر الأهرام وهياكله ، ثم تبلغ أوجها بالعصر المتوسط الذي ولد الهيكل النموذجي (البيلون) واللابرينث ، ثم تنتهي الحضارة ويبدأ عصر الاضطراب وهو ما يعرف بعصر الهكسوس الذي يرى شبنجر أن حضارة جزيرة كريت القديمة تُتبع على آثاره . ثم يأتي العصر الإمبراطوري المصري ممثلا في الأسرة الثامنة عشرة ومبانيها الشاهقة في الأقصر والكرنك وأبيدوس (العرابة المدفونة) وإن ما بقي من تاريخ مصر القديمة بعد ذلك ليس إلا ذلك الرثوب الذي المعت إليه والذي قد يطول إلى آلاف السنين دون أن ينال اللوحة الحضارية أي تغير .

لقد كانت حضارة خالدة بمعنى الكلمة ، وما تلك الهياكل الباقية على مدى الحقب ، وما فن التحنيط ، وما تلك السجلات الخالدة في النقوش الهيرغليفية وأوراق البردى إلا إعلانات عن هذه النزعة الخالدية ، وما تلك السجنة الوقور البعيدة عن الهزل التي تتجلى في تماثيلها وصورها إلا تعبير

عن عظمتها ووقارها .

أما الحضارة العربية أو الماجيية أو السجيرية فهي من كشوف شبنجلر الرائعة ومقرها الرقعة الممتدة من آسيا الوسطى إلى جنوب بلاد العرب والحبشة بما في ذلك فارس وسائر بلاد الشرق الأدنى ومصر وما حولها . وقد ضل التاريخ وقوُع معظم الرقعة العربية لتلك الحضارة في الجزء الشرقى من رقعة المدينة اليونانية فأصبحت بدء النشك الكاذب ، وُخدر العلماء والمؤرخون والفلاسفة الى الآن إذ أن ما يسجله التاريخ عن حضارة البطالمة وبيزنطية الأولى (دولة الرومان الشرقية) ، بل عن الدولة السلوقية التي كانت عاصمتها أنطاكية ، وسائر مظاهر الثقافة اليونانية في عرب آسيا الوسطى والإسكندرية لم تكن في روحها إلا تلك الحضارة الفتية البازغة المتدثرة بدثار المدينة اليونانية الكاذب . ولم تكن فارس الساسانية كذلك على اختلاف لغتها ومجوسيتها ومزدكيته ولا بين النهرين بمذاهبها النسطورية والفدائية والصابئة وغيرها إلا الجزء الشرقى لهذه الحضارة . كذلك لم تكن في الرقعة السورية والفلسطينية التي كانت لغتها الآرامية إلا هذه الحضارة نفسها فلقد كان ما أنتجته قرائح هذه القرون الأولى المسيحية في تلك الرقعة الفسيحة جديدا على الحضارة اليونانية وغير متصل بها بأية وشيجة . فتعدد الآلهة في العقيدة القديمة استحال الى وحدانية اليهودية والمسيحية والاسلام ، ولم تكن الأديان والمذاهب التي برزت في عده ألوان من ثنائية المجوسية : أهوراما زدا (إله الخير) وأهريمان (إله الشر) والمائوية وما تطورت اليه على حين غرة العبادات الوثنية نفسها في تلك الأصقاع . التعبير عن هذه الروح الجديدة التي ولدت في الشرق الأدنى والتي لم تكتمل الا بعد

سته قرون فى أروع صورة هى « الإسلام » .

كذلك فى ميدان الفنون انبثق الرمز الخاص بهذه الحضارة وهو الكهف أو القبة فانتشر على سطح تلك البقعة انتشارا غريبا فى كل ما أنشأه فن العارة . وما هو فى الواقع إلا التعبير عن الروح الكامنة السحرية فى هذه الحضارة التى تتميز بظهور معنى التنزيل أى أن كل ما فى الوجود آت من عند الله ، من الخفاء ، من عل ، من تلك القبة السماوية التى ترتفع فوق الهامة البشرية ، كما أن علومها ولدت الجبر والكيمياء القديمة السحرية التى كان هدفها العثور على الذهب . وهو ذلك البريق السحري الذى لا يعنى اللون الأصفر وإنما يعنى التعبير عن الخفاء ، والذى قد رسمت به صورة القديسين وهالاتهم فى المعابد المسيحية الأولى وفى تلك الحضارة بخاصة ، ولذلك كان حذاق فن العارة الذين قاموا بتشيد المباني العامة للأباطرة فى روما وبيزانطة صنعا من الشرق الأدنى من سوريا وغيرها . فبنى أبولودوروس الدمشقي فى عصر تراجان قبة هيكل « الزهرة وروما » . كما قام ببناء كنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينية والغرف ذات القباب فى حمامات كراكالا (وكان سوريا) . وكانت سيدة هذه المنشآت الباتيون الذى أعيد بناؤه فى أيام هادريان ويعتبر أقدم المساجد من حيث الطراز . ولذلك لم يكن هناك بُنُوَيْنِ تلك المباني ككنائس فى المسيحية وكمساجد فى الإسلام وعلى رأسهما المسجد الأقصى فى بيت المقدس ومسجد أيا صوفيا بالقسطنطينية . ويفول شبنجلر إن الإسلام يتحولهما الى مسجدين لم يحدث أى تغيير .

وبذلك فسر شبنجلر سرعة الغزوة العربية الإسلامية الناجحة التى اكتسحت العالم المعروف فى مائة عام على حين أن مثلها فى الحضارات

الأخرى مكانا وزمنا وأهمية وخطرا لم يتم إلا في عدة قرون ، وأدّى ذلك الى احتباس روحها طويلا تحت ضغط قشرة المدنية اليونانية القديمة الكاذبة فما كادت تنطلق بعد تفتح أعينها على حقيقتها حتى ذاب ذلك الغشاء ، ولقد توفي النبي (صلعم) عام ٦٣٢ ولم تمر تسعة أعوام حتى كانت كل رقعة المسيحية واليهودية والمجوسية في حوزة الإسلام .

وهكذا يتجلى تاريخ تلك القرون في لون جديد لم يعهد من قبل وفيه يطمئن الفكر الى تلك الصورة الجديدة .

فعصر الحروب الداخلية في روما الذي بدأ بماريوس وسلا ثم بومبي وقيصر ثم أنطونيوس و أكتافيسيوس والذي انتهى بانتصار أكتافيسيوس على أنطونيوس في أكتيوم (٣١ ق.م) بعد أن انتصر قيصر على بومبي لم يكن في الواقع نضالا داخليا يخص روما وإنما كان عرا كابين تلك المدنية الهرمة وبين الحضارة المتفتحة وبين الحضارة الكلاسيكية في احتضارها وبين العربية أو السحرية الجديدة التي كان يرفع لواءها أخيرا أنطونيوس الذي اندمج في الشرق ، في فلسفة مصر كليوباترا (قلوبطرات في التاريخ العربي)

وشاء القدر أن يخذل المولود . ولو انتصر أنطونيوس في موقعة أكتيوم لانقلب تاريخ العالم ولا نبعث الحضارة العربية في شبابها وازدهرت وظهرت في روعه لا يعرف مداها الا العليم القدير . ولم يكن شارل مارتل في الحضارة الغربية أمام الجيوش العربية في الأندلس الا أنطونيوسا منتصرا ! والى ذلك الحدث الطبيعي بالسبة للحضارة الغربية يرجع فضل نموها نموا طبيعيا باهرا ، وهكذا لم تكن الإسكندرية في اواخر عهد البطالمة ثم في أوائل العصر الروماني على الرغم من لغتها اليونانية موطن ثقافة يونانية بل موطن حضارة عربية

ففيكون الفيلسوف الروماني اليهودي وأفلوطين (الشيخ اليوناني في الفلسفة العريضة) والفيثاغورية الجديدة والأفلاطونية الجديدة بل سائر المذاهب والأديان في الشرق الأدنى لم تكن إلا ألوانا وتطورات لهذه الحضارة في أول عهدها والتي زادت فجأة وبقوة خارقة في الحضارة الإسلامية ، وهكذا زال بحجرة قلم ذلك الغموض والاضطراب الذي شققت فيه تلك المرحلة من التاريخ في فلسفتها وأنظمتها وعقيدتها ، وكشف السر فيما هُدى إليه مومزن المؤرخ الألماني وحر في تفسيره عندما أثبت أن الوحدات الحربية الرومانية (Legione) انحلت في الغرب إلى « جموع لارابطية بينها » على حين تحولت في الشرق « بزنطة والشرق الأدنى » إلى جيوش إقطاعية تتبع النبلاء وما السر إلا أن الحضارة البازغة في شرق الرقعة بدأت عهدها الإقطاعي فكان الجيش جيش طبقة ذات روح ، أما في الغرب حيث انحلت الصورة بموت الحضارة القديمة ، في روما الإمبراطورية فقد كان جيشا لعضوية ولا حياة فيه ، يسير وراء من يشتريه من الأباطرة .

كما أن إغلاق جستنيان للجامعة أثينا ٥٢٩ وأنطاكية والاسكندرية لم يكن إلا القضاء النهائي على الغشام الكاذب كما أن التلمود الاسرائيلي أكمل عام ٥٠٠ ميلادية .

وترجع قصة اليهودي السموءل بن عادياء ودروعه ووفائه في سبيل المحافظة عليها حين بغاها لنفسه بالقوة أحد أمراء الحيرة إلى أنه كان أحد الأمراء الإقطاعيين في قصره الأبلق ، وهي صورة يفيض بمشيلاتها تاريخ الغرب في عهده الإقطاعي . وكان الأمراء الإقطاعيون يملئون جنوب بلاد العرب والحبشة وفارس . فكانوا في الحبشة يسمون (كبير) وفي فارس (دهاقنة)

وذلك في عصر الدولة الساسانية بل ان اختيار (دقلديانوس) « نيكوريا » عاصمة له كان بسبب هذه النزعة . ويقول شبنجلر : ان دقلديانوس لم يكن إلا خليفة بالمعنى المألوف في التاريخ الاسلامي لا أميرا بالمعنى الروماني ، أي كان ممثلا للوحداية المتجسمة في كل العقائد العربية ، ولم يكن أحد الأمراء الكثرين الذين يملئون الصورة السياسية في اللوحة الرومانية التي تتفق مع معنى التعدد .

وما أعمى التاريخ عن كشف هذه الحضارة خلال هذه المدة الطويلة وعلى هذه الصرورة الا تأثره تأثرا متطرفا ومضللا بالحضارة اليونانية وثقافتها من جهة وبتعدد اللغات في الأمم وآثار الثقافات في رقعة الحضارة العربية الجديدة من جهة أخرى فكان التاريخ يلحق كلا منهما بما يتصور أنه ارتباط طبيعي ، فظل يتصور الأفلاطونية الحديثة وغيرها تدهورا في الفلسفة اليونانية مع أن الصلة منقطعة بينهما ، وحر في تفسير روحانية أفلوطين وتلاميذه التي كانت انبثاقا روحانيا أصيلا ولكنه عربي لا يوناني .

كذلك رفع الستار عن حقيقة شوهها التاريخ - وبخاصة تاريخ القوانين - كل تشويه . ذلك أن القانون الروماني الأخير لا في بيزانطة فحسب بل في روما ذاتها وفي كل البلدان التابعة لها ، لم يكن رومانيا في روحه وإنما كان عربيا أصيلا على رغم تدثره ببعض مظاهر الكلاسيكية فبرزت فجأة « الشخصية المعنوية » التي لم يعرفها القانون الروماني الأصيل ، إذ حصرت الحضارة الكلاسيكية كل استيعابها في الحس والمادة كما بينت .

كذلك الاجماع الذي لا يعترف بالتعدد ويستمسك بوحدة المذهب الذي يشمل جميع المؤمنين ، ولم تكن تلك المجامع الدينية الشرقية التي زخرت بها

قرون المسيحية الأولى إلا الإجماع الذى اكتمل وتجلى بأروع صورة فى الاسلام . فالإجماع هو إشعاع إلهى فى نفوس الأئمة والمجاهدين فتنتطق بما توحى به هذه الروح الإلهية . وهى واعدة الحضارة العربية البازغة . وما القوانين التى جمعها وأصدرها جستنيان إلا قوانين عربية محضة . وذلك فى رأيه هو السر فى تقارب القانون الرومانى فى آخر مظهره من الشريعة العربية ، وقد كشفت فيه نصوص تفيد إجازة قطع يد السارق فى القانون الرومانى ، ومن الثابت أن كثيرا ممن اشتركوا فى جمع قوانين جستنيان كانوا آراميين .

وقد كشف أن روح القانون الرومانى الأصيل لم تكن تشتمل على معنى الثبات إذ لم يكن قانونا دائما فى روحه وإن كان كذلك فى تطبيقه ، ولذلك كان ال Practor الرومانى غير إحصائى فى القانون وإنما كان رجلا له حرفته التى يعيش منها ، إذ لم يكن هناك طبقة قانونية كالتى قامت مع الحضارة العربية ببيروت ، فلم يكن عمل البراتور إلا خدمة اجتماعية . ولم يكن عمله إلا اعلان القوانين التى يحكم بها للسنة التى يعين فيها فحسب . وذلك مجازاة لروح الحضارة التى لا تعرف إلا الحاضر وبعبارة أخرى أن الثبات الظاهرى الذى كان يتمتع به ذلك القانون لم يكن ناشئا عن أخذه بالثبات بل لأن المواقف التى يحكمها القانون لم تتغير .

كذلك فسر ذلك الفقر فى عدد السكان الذى أصاب الرقعة الغربية التى لم تدخلها الحضارة العربية الفتية بأن المرأة كانت بعيدة عن كل أمومة ، وهما الاستمتاع الجنى فحسب والهرب من كل تبعات الزوجية لا انتاج الذرية على حين كان الشرق الأدنى يزخر بالسكان كشأن كل حضارة فى فتوتها .

فتاريخ بيزانطة لم يكن إلا تاريخا عربيا صميا ولكن بلغة غير عربية ، فسيحيتها الأصلية بعد ذلك وأخذها بالإجماع في كل ما يخص الكنيسة كما حصل في الإسلام ، وفنونها العربية بفسيفسائها وقباها وتطور نظامها السياسى من اقطاع الى خلافة ، انما كان كل ذلك عربيا محضا . كما أن سقوط الأمويين لم يكن الا انتهاء مرحلة الحضارة الموازية لسقوط الملكية الفرنسية . فالأمويون كانوا في الواقع الدولة العربية الأصلية لصفاتها الاقرب الى صفات الجاهلية بمزجها وبهجتها وهى التى توازى فى الحضارة الغربية عصر الملكية الناضج فى القرن الثامن عشر . ويرى شبنجار فى الدولة العباسية حركة « موال » غربية عن الأمة العربية وأنها كانت فى الواقع حركة اشتراكية فى الصميم - وهو ما لم يدونه التاريخ الى يومنا هذا - فهى ثورة الطبقة الوسطى على النبلاء ، والمدينة الكبرى على الزيف ، والعقل الحضري على الروح الأصلية . فقد كان كل هؤلاء الموالى من قبل مزدكيين ولكنهم اعتنقوا الاسلام بحمارة واخلاص لم يتجلبا فى العرب أنفسهم . ولقد تطورت هذه الاشتراكية الى لون من الشيوعية على يد الخُسرَمية الذين يرتدون الى مزدك ، ووفق العباسيون الى الاستيلاء على ميراث هذه الثورة ، كما وفق نابليون فى الحضارة الغربية الى مثل هذا الموقف نفسه . وهكذا يضرب شبنجار فى التاريخ العربى ضربة فاصلة كشف بها عن الابهام الذى يغطى حركة البرامكة وتمثيل الرشيد بهم . ولم تكن المرحلة من ٨٠٠ - ١٠٥٠ الامسترحا لانتقال الحضارة العربية من النابليونية الى القيصرية ، من الخلافة الى المملطنة . كما حدث فى القسطنطينية فى الوقت نفسه سواء بسواء .

وكانت الخُسرَمية هذه منتشرة من دجلة الى مرو ، وقد سقط زعيمها بابك

بعد نضال عشرين عاما ٨١٧ - ٨٣٧ ، ويتوازي معه في غرب الرقعة حركة
القرامطة ٨٩٠ - ٩٠٤ .

وقام بجنوب بغداد علي بن محمد الذي ادعى أنه من سلالة علي بن أبي طالب
بحركة لا تبعد كثيرا عن الشيوعية ولكن لها لونها الخاص ، وأسس
في ٨٦٩ دولة زنجية حقة وبنى عاصمته ، المختارة ، بعد أن استولى على البصرة ،
وكانت أعظم الثغور العربية شأنا ، ونهبها وذبح أهلها . ولم تخمد حركته إلا
عام ٨٨٣ ، ولذا سماه شبنجلر بسبارتكوس الاسلام (١)

ثم حل عصر الإمبراطورية المتسم بسمه (السلطنة) وهو النظام
الإمبراطوري العربي الذي كان سائدا في بيزانطة في ذلك الوقت نفسه ، وما
السلطنة التي تميزت بها الحضارة العربية إلا السلطة الزمنية بعد فصاها عن
الخلافة التي لم يعد لها سلطان ما . فالخلافة لا تلغى إذ أن الخليفة ذو شخصية
مقدسة يستفيد هامن الإجماع ، ولكن الخليفة عُزِّي من السلطنة الزمنية التي
تحولت إلى السلطان .

ويقول شبنجلر : أنه كان في القسطنطينية بجانب ، الخليفة ، ميخائيل
الثالث السلطانُ بارداس ٨٤٢ - ٨٦٧ ، وبجانب ، الخليفة ، قسطنطين السابع
السابع السلطانُ رومانوس ٩١٢ - ٩٥٩ ، وقد أصبح الأخير إمبراطورا فعليا
ثم خلفه الأرمن الذين حكموا إلى أواخر القرن الحادى عشر فكان شأنهم
شأن الأتراك لما منح الواثق في عام ٨٤٢ أحد زعمائهم لقب السلطان . ولم
تبدأ الإمبراطورية العربية الحقة إلا بالسلاجقة الذين أرغموا الخليفة على
جعل سلطتهم وراثية وكان ألب أرسلان رمزا لذلك النوع من السلاطين .

(١) زعيم العبيد الثائرين في تاريخ روما وأخضعته الجيوش الرومانية عام ٧٦ ق،م

ولم يكن عصر الهكسوس في الحضارة المصرية القديمة إلا نفس المرحلة الانحلالية وهي قرنان من الزمان من الأسرة ١٢ إلى الأسرة ١٨ وفيه انهار نظام الدولة ، والمجتمع القديم ، وانتهى بعصر الامبراطورية ، وتكشف أوراق ليدن (Leyden) التي تمثل ذلك العصر عن كيفية اندثار التقاليد ، وظهور النكرات ، وانتشار الخراب ، وتدمير المباني العامة ، وتسلب حثالة الدهماء ، وانتشار الفوضى . لذلك تعتمد التاريخ المصرى تجاهل هذه الحقبة ولم يرض بتسجيل نكراته الذين لم يكن كثير منهم ليعيش أياما كشأن الأباطرة الرومان والباطنين الاسلاميين في مختلف البلدان . ويستشهد شبنجلر كظاهرة للانحلال - بأحدهم (Chyem) الذى لم يسم نفسه فرعوناً ولكن (محتضن البلدان) Umarnier des landes (وأمرير الشباب) وهي ألقاب تنطق بروح الثورية كما كان الشأن في العصر القيصري الرومانى .

فإذا ما تناولنا الحضارة الغربية أو الافرنكية الحالية أو الفاوستية كما ينعته شبنجلر (نسبة إلى بطل المأساة الألمانية لجوته والذى يرى فيه شبنجلر رمزاً لكل الحضارة) وهي التي تقوم الآن في آخر أدوارها ، فهي الحضارة التي ولدت في أول العصور الوسطى الأوربية . وما كان عهد الاقطاع إلا شبابها الغض بفروسيته وإلهاماته الفنية والدينية التي انبعثت على أتمها في طراز فن العمارة القوطى ، ثم في التصوير الزيتى الذى جلا لأول مرة المنظور والظل والبعد . هي حضارة رمزها كل ما يتصل بالبعد في المكان والزمن واللانهائى . فالكاتدرائية المرتفعة المحلقة ، والمنافذ الواسعة التي تستوعب أكثر ما يمكن من الضوء والصوت ، والتي تختلف كل الاختلاف عن الصورة اليونانية القديمة في أنها لا تحدد ولكنها تبين الحواشى والظلام والظلال في قوة ، ثم رياضياتها

المتصلة بالوظيفة العددية لا العدد في ذاته وما تطورت عنه في إبان عزها وازدهارها إلى حساب التفاضل والتكامل ، والامعان في التوغل صغرا وكبرا إلى ما لا يتصوره الذهن . ثم نزعها التي ترمى إلى ذرع الفضاء ، وتحليق آدابها وفلسفتها في أجواء لم يألّفها الذهن البشرى والتي كشفت التلسكوب والميكروسكوب والذرة والكهرب الخ ، ثم نظام دولها السياسى الذى لم يقنع بالتهام الكرة الأرضية بل أخذ يفكر فى غزو النجوم والأفلاك ، كل ذلك دليل على نزعها اللانهائية فى الزمان والمكان . فهى تحس الماضى والمستقبل فى روعة بالغة . وإلى هذه النزعة يعود هذا الاستعمار المتسع الذى تميزت به هذه الحضارة وذلك الانتاج الغزير المنظم الذى يسر الصناعة الأمريكية والأوربية ثم إنها حضارة تاريخية بمعنى الكلمة ، فهى كالمصرية تتطلع إلى المستقبل ، إلى الخلود . إذ تلجأ الى الحجارة لتقوم بمشيداتها ، على حين أن اليونانية كانت عمارتها فى الشباب من خشب . وهنا يبين شبنجلر أن الصينيين كشفوا الطباعة والبارود والمغناطيس ولكنهم لم يقوموا بما قامت به الحضارة الغربية التى استخدمت هذه الكشوف . فكانت فى يد الحضارة الغربية غيرها فى يدها فالروح الغربية التى تنزع إلى البعد الساحق والالانهائية عرفت كيف تستخدم هذه الظواهر فى غزارة الانتاج وفى الأسلحة وفى آلياتها استخداما لم يكن ليخطر على بال الحضارة الصينية ، وما ذلك الا لاختلاف الروح ، كذلك الفاهلا موطن الآلهة التيوتينية لم تكن من إنتاج الخيال التيوتونى المبكر قبل بزوغ الحضارة إذ خلت منها الأساطير القوطية والجرمانية وإنما ولدتها الروح الجديدة التى ظهرت فى تربتها وأينعت .

ثم إنها حضارة تتجلى فيها الإرادة بأجلى معناها ، وكفاها أن لهذا اللفظ

في لغاتها المختلفة معنى لاتؤديه لغة في حضارة أخرى . فال يونانية كانت تجهل
اللفظ جهلا تاما .

ويقول شبنجر : إن فن هذه الحضارة الأصيل إنما هو الموسيقى لاتصالها
بكل ما هو لانهاى . ولتأثر هذه الحضارة بمخلفات الحضارة اليونانية والعربية
اقتبست في شبابها وسائل التعبير من هاتين الحضارتين أى فن العمارة
والتصوير ، ولذلك كانت صورها في القرنين السادس عشر والسابع عشر
موسيقى محتبسة لم تتمكن من الانطلاق إلا في القرن الثامن عشر عند ما بلغت
الاعجاز في تصوير المشاعر والطبيعة ، ذلك الإعجاز الذى لم يتجل في عصرها الروحاني
الأول وإنما ظهر حينما أخذ العقل يلعب دوره وينجلي ذلك في أوراتوريات
باخ ثم تمثيلات موتزارت وأخيرا في سيمفونيات بيتهوفن . ويعتبر الأخير
خاتمة الموسيقيين العباقرة وأميرهم غير منازع . فهو إنتاج الحضارة الغربية الخالد .
وكفى تأييدا لما كشفه شبنجر من أن الحضارة هى الروح - أن بيتهوفن ألف
خاتمة سيمفونياته وأروع ما أنتجته الموسيقى في سائر العصور - وهى السيمفونية
التاسعة - وهو فى أتم الصمم . وكل ما أتى به الفن الموسيقى بعد ذلك إنما هو
تلفيق لمختلف الأنغام مع خلوه من كل ابتكار والهام حق ، ثم انه يرى معنى عميقا
في صمم بيتهوفن ، عند ما ألف قطعه الأخيرة - هو أن الصمم أطلق روحه من
آخر عقال لها ، إذ أن السمع والبصر ليسا فى الأكثر إلا معاير للروح .

كذلك كانت فلسفتها وآدابها . فقد نقلت فلسفة اليونان عن طريق العرب
ثم عن طريق مباشر ، وهى فى كلا الثقيلين قلبها رأسا على عقب طبقا لروحها
الخاصة من جهة وطبقا لنزعة الناقل الفردية من جهة أخرى حتى أصبح فى
الفلسفة ثلاث صور لأرسطو : اليونانية والعربية والغربية ، وكل صورة منها

جد متباينة عن الأخرى . كذلك كان لأفلاطون وكذلك يكون لكل ما ينقل من حضارة لأخرى .

وتمثل الثورة الفرنسية ختام دور الحضارة وبدء المدنية فيها ، ختام العضوية الاجتماعية والتقاليد والسياسة ، وبدء عصر سلطان المال والانحراف إلى المادية على حساب الروحانية ، ثم يرينا كيف أن الروح قد استنفدت كل إمكانياتها ولم يعد فيها إلا فلسفة الشك ، وشبنجر نفسه رافع عليها ، وهذه هي المرحلة نفسها التي قام بها في الحضارة العربية الغزالي حجة الاسلام . ويقول شبنجر إنه لم يعد هناك مجال للفلسفة ، وإن كل جهد يبذل فيها إنما هو جهد مراق إذ أنه يتطلب جذوة نار في الماء ، ولقد خبت نار الحضارة العربية وهي الآن تبدأ أفولها المحتوم . ويقول عن الفلسفة الحالية إنها الفلسفة اللاسلفية أو فلسفة أساتذة الفلسفة . فالأبحاث الميتافيزيكية (ما وراء الطبيعة) قد ختمت بكانت (Kant) وتلاها عصر الفلسفة الأخلاقية النفعية التي تحمل لواءها الإنكيز . ولم يبق إلا عصر الشكافية التي هي اللاسلفية في الواقع . ولذلك يطعن شبنجر في كل ألوان الفلسفة النظامية الحالية ويعتبرها زيفا وخداعا . فالفيلسوف الذي يكتب فيها خادع لغيره ، والدارس لها يتظاهر بأنه يتذوق ما يقرأ وهو بذلك يخدع نفسه وغيره . فالقرون الباقية لا تحتل إلا القوة المادية فحسب ، ولذلك يبحث قومه على الاضطلاع بالآليات وما إليها وإكـنه طبقا لطبائع تطور الحضارة يتقرب توهجا عابرا في صورة « التدين الثاني » الذي سبق بيانه كما حصل في سائر الحضارات ، وهي ظاهرة لا تدوم طويلا وليست إلا محاكاة عابرة للتدين الأول العريق .

ويثبت شبنجر أن روح هذه الحضارة على وشك النفاد وأنها في دور

الاحتضار إذ تنحدر بسرعة إلى جوالقيصرية المؤدى إلى رتوب الإمبراطورية حيث تفتح الصورة من المجتمع تمام الانحاء .

والخلاصة أنه يرى أن الحضارة الغربية تجوز الآن مرحلة موازية لمرحلة العصر الهيليني في الحضارة الكلاسيكية ، وهو الواقع في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وأنه لا يزال لها حتى نهاية المدنية وقبل حلول رتوب الإمبراطورية من العمر مالا يعدو قرنين ، تستطيع أن تنتج فيهما أمورا جبارة ، ويرى أن الجنس الألماني لا يزال فيه قبس من روح الحضارة بعكس الفرنسيين الذين يكادون يجذبون منها . أى أن الجنس الجرمانى امل هذه الحضارة الباقى .

فهو ينادى قومه فى هذا الكتاب الذى أقدم له بالتهيؤ للقيام بهذه الرسالة قبل ان يخيم الموت المحتوم على مصير هذه الحضارة العظيمة ، ينادى قومه بأن يحسنوا استغلال الفترة الباقية من حياة حضارتهم بما يتفق مع طبيعتها أى فى الماديات لافى الروحانيات التى اصبحت تكافأ . ثم يناديهم بالتيقظ للشعوب الملونة ، ويأخذ على الحضارة الغربية تفريطها فى أسلحتها المادية والمعنوية ، فى أسرار علومها وصناعاتها وبخاصة ما يتصل منها بالحرب والصناعة ، وهو فى موقفه هذا غربى أصيل وصرىح لازيف فى عباراته ولا مواربة . إنه يعيب على قومه ان رضوا بهضة اليابان وسائر العناصر الملونة ويخشى ان تنهار الحضارة الغربية بأسرع مما قدر لها بسبب رضا الشعوب الشرقية بمستواها وسلامتها من الأمراض الاجتماعية التى نخرت بها عظام المجتمعات الغربية فالأمم الملونة خصم منتصر على طول الخط .

ويؤثر من شبنجلر بأن وراء الستار فى الشرق روحانية مستقلة - إيماننا قويا يقدر

معها أنه إذا ما طرحت شعوب الشرق والشعوب الملونة الحضارة الغربية أرضا فسوف تخلع كل الأثرة الغربية وصناعاتها وكل مظاهر مدنيّتها وتعود أدراجها إلى حياتها البسيطة الطبعية لأن هذه المظاهر لم تدخل في صميم الروح الشرقية ، ولم تأخذ بها الأمم الشرقية إلا كسلاح لا كتطبع .

ثم يرى شبنجلر أن هناك حضارة في دور الولادة هي الروسية وهي حضارة لاتزال في دور الطفولة أو الدور السابق للشباب ، ولم تكيف بعد . وما القرون الماضية من تاريخ روسيا والصقالبية إلا العهد السابق للحضارة الذي فيه قبس من الروح المنتظرة .

فبطرس الأكبر وحركة التطهير التي قام بها والمدن التي بناها وعلى رأسها بطرسبرج ، ليننجراد ، إنما هي حركة مصدرها الحضارة الغربية ولا صلة لها بالروسيا التي لا صلة لروحها بالحضارة الغربية . إنها حركة تشكّل كاذب ، ولذلك ظلت كل تلك المظاهر التي دامت طوال القرنين الثامن والتاسع عشر ، وتلك الصور المدنية التي اقترضتها من الحضارة الغربية - ظلت كلها أجنبية في الصميم عن روح الشعب الروسي الذي لا يزال بعيدا عن المدن الكبرى والحياة المتقدمة في الحضارة ، ولذلك كانت موسكو وغيرها (قبل التجديد) روسية أكثر من ليننجراد ، وما الحركة البلشفية التي شبت عام ١٩١٧ إلا حركة ذات حدين ، فهي شيوعية وروسية . أما الشيوعية فوليدة الماركسية الغربية التي نمت بين متحضري المدن الروسية وبخاصة ليننجراد ذات الصبغة الغربية والتي لا صلة لها بالروح الروسية الأصلية في القرى . وأما الروسية الصميمة فوطنها القديم السهل الروسي غير المحدود المتناهي في اتساعه حيث تهيم الروح الروسية البدائية في غير استقرار وتنظر إلى المدن نظرة

المؤمن المسيحي في عصر المسيح إلى المدن الكلاسيكية أمامه في تقزز ونفور .
فالبولشفكية بدأت في المدن كشيوعية ، وفي القرية كحركة روسية صميمة
وأخيرا انتصرت الحركة الروسية ولكنها أبقت على الصورة الشيوعية
لتجعلها سلاحا خارجيا يَنْخِرُ به جسمُ ما بقي من الحضارة الغربية عن
طريق الدعاية .

هذا هو رأى شبنجلر في الحضارة الروسية باختصار . كما أنه يرى فيها
روحا دينية عميقة بعيدة عن الفكر كل البعد شأن الحضارة في طفولتها وبين
في إعجاز أخاذ كيف أن إلحادها هو نفسه إعلان عن هذه الروح الدينية القوية .
والخلاصة أن شبنجلر خرج في كتابه هذا من ميدان الأبحاث النظرية وبمجرد
العقل الفلسفي والعلى إلى السياسة العملية الواقعية وتناولها تناول المفكر
العميق ، وقد جمع إلى سعة العلم والإلهام أصالة الرأي وخشونة الصراحة
والنزاهة في الحكم ، فشق في ذلك سبيلا جديدا كل الجدة . وهو إن كان قد
كتب ما كتب في عام ١٩٢٣ أى قبل الحرب الأخيرة إلا أن الصور والأحكام
التي يقدمها لا تزال حية ومطابقة إلى أكبر حد للصور والأحكام الراهنة
فضلا عن أن نظريته وتقديراته بلغت من الدقة والروعة ما لا يسمح بالمزيد .
ولقد تأثر به رهط كبير من محدثي المتفلسفين وتلاعبوا بكشوفه وأحكامه .
ولكن واحدا منهم لم يوفق إلى المساس بأسس مذهبه فظل كالطود الراسخ .
لقد تحذلق الكثير منهم ولكنهم لم ينتجوا جديدا . ولقد اطلعت أخيرا على
كتاب لأحدهم وهو شوبارت (Walter Schubart) واسمه « أوروبا وروح
الشرق » (Europa und die Seele des Ostens) ولم أجده برغم حلاوة
بيانه إلا سخفا في الجوهر إذ يحاول أن يلجم الروح الشرقية بالغربية

ويرى في ذلك الأمل الأوحـد لإنقاذ الحضارة الغربية الآفة .

والآن وقد فرغت من هذه التقدمة ومن عرض هذا التلخيص لمذهب الرجل من جهة نظرة الألمانية البروسية ، لا أقف عند ذلك بل يناديني واجب الأمانة أن أعرض الموقف بالنسبة لمصر من وجهة نظر قومية محضة مستضيئا بالأسس العامة لمذهب شبنجر مع بعض الخلافات التي لامناص منها :-

النظرة المصرية :-

يفيض تيسه مشكلاتنا في سلسلة طويلة من الارتجالات والترقيعات في البحوث والحلول التي كان من شأنها ازدياد تعقدها لا تكاثرها فحسب وما ذلك إلا لأن النظرة الشاملة وبخاصة فيما يتصل بالروح لم تتأت لنا بعد . فالتوجه يسير سيرا مضطربا يدفع التافه الغث إلى التمتع بأهمية فوق ما ينبغي له بكثير ، فاحتكر لوحة المشكلات والنشاط الإصلاحى أموراً ثانوية على حساب النواحي الهامة التي لم تظفر بما يجب لها من عناية كما أن نواحي الأدب والفن تتملق الجماهير بدل أن تقودها ، وترفع مستواها .

على حين أن الايمان وهو أهم عنصر في كل إنتاج فكري قل أن يعمر بحثاً أو عملاً . وقد زخرت السوق بأحمال من الإنتاجات الفكرية والفنية والتنظيمات الادارية تاه بين أكدها كل قيم ولم توجد بعد القيادة الفكرية التي تحسن التوجيه والارشاد .

لذلك وجب أمام ما أحدثته هذه الارتجالات وأمام التنظيمات التي انحصرت في ترقيعات سارت في غير هدى روحى قرنا ونصف قرن من الزمان بل أمام ضرورة فهم الموقف على حقيقته ورد كل مشكلة إلى أصولها - وجب

أن تتخطى في البحث هذه الحقبة المشحونة بما تسميه تجديدا وأن نعود
أدراجنا إلى يوم حلت الحملة الفرنسية في مصر وهي ما تعارفنا على اعتباره
طلیعة التجديد .

ولا أقر ما وصل إليه شبنجلر من أنه بعد الدورة الحضارية يخلو المجتمع
من كل روح فإن السليقة والواقع لا يستطيعان أن يزدردا هذه الدعوى .
فالصين والهند ومصر وسائر بلاد الشرق الأدنى وبلاد المغرب والرقعة العربية
مهما يحل بها من النوازل ومهما تكن الحياة فيها خامدة في كثير من أركانها -
لا تزال تضم روحها القديمة التي تتوهج كوميض النار تحت الرماد ، مافی
ذلك من شك .

فما حدث في مصر منذ الحملة الفرنسية وفي ضوء مذهب شبنجلر - أن
المدينة الغربية وهي آخذة في الجذب الروحي برغم جبروتها المادی قد غزت
رقعتنا التي كنت فيها بقايا مدينة هرمة ، لقد كانت الحياة المصرية تسير هادئة
خاملة فصدمتها هذه الحضارة الغربية وهي في مرحلتها المادية القاسية .

لذلك لم تكن نزعة المحافظة والرجعية التي شوهدت في بعض البلدان
الشرقية أمام هذا الغزو - على ما فيها من ضعف مادی - إلا مقاومة بريئة
من روح كامنة أمام غزوة جديدة ذات روح غريبة . ولقد ضللت البحث
التاريخي قوة المادية الغربية وطغيانها وأعمتها عن غرابة الروح الغازية التي ظلت
بعيدة عن روحنا . وتفسر هذه الظاهرة تلك الحركات التي بدأت بحركة إمبابه
بين المماليك والفرنسيين ثم بالثورة القاهرية في أثناء الحملة الفرنسية واستمرت
تهب بين حين وآخر ، ومنها حركة عباس الأول في مواقف يسجلها التاريخ
كحركات رجعية ولم تظفر بدراسة حققة وإنها لجديرة بكل عناية فقد

كانت في صميمها حركة روحية .

فصر بنقلها نظام الدولة الفرنسية تقلا آليا وانتهالها الثقافة الفرنسية في غير توجيه قد صدمت في روحها الشرقية ، ولذلك لم يتغلغل إلى الآن في قرارة النفس المصرية هذا التجديد الدخيل . فالعرف لا يزال متحكما في القرية ، العرف بعادانه القديمة وتقاليده القديمة التي تتجاهل القانون الدخيل والنظام الدخيل والروح الدخيلة . فوقف شيخ البلد أمام الموظف الذي يحمل في جعبته شتى الأوامر والتعليمات إنما تمليه روح وليدة لمئات وآلاف من السنين فلا يس هينا عليه أن يزدرد هذه التنظيمات المتنافرة مع روحه . فهو ومن معه من عامة القرية في حيلهم السليقية التي يوقفون فيها بين الاتباع الشكلي لما تصدره الحكومة من تعليمات وبين الواقع المتفق مع العرف إنما يقومون بحركة مقاومة ماهرة اسكل جديد .

وليس من المبالغة ولا من التشويه للحقيقة إن قلت إن سر عدم التوفيق في تطبيق القوانين واللوائح هو في هذه الحقيقة بالذات ، حقيقة اصطدامها بمجتمع غريب عنها في أصله . نعم إن الواقع أن الدستور والقوانين وسائر الأنظمة الوضعية في مصر لا تطبق إلا شكلا وأن جل الجهود التي يبذلها الأفراد من جهة والحكومة من جهة أخرى ما هي إلا حرب طاحنة بين السعي في التنفيذ من جهة وفي تحايل التنفيذ لهذه القوانين والتنظيمات من جهة أخرى . لقد أقحمت الأنظمة الجديدة دون أن تبني على أساس القديم والتاريخ ويجب أن تولد الأنظمة لا أن تفرض فرضا فان شر ألوان التجديد النقل الأسمى في الأنظمة التي ولدها تاريخ بلاد أخرى أي حوادثها وظروفها الخاصة بها لا في أجيال بل في قرون وكل ذلك بروح متباينة في الصميم عن روحنا . يضاف إلى هذا أن هذه الحضارة الدخيلة في مرحلتها المدنية الأخيرة - قد أصابها وهن الهرم الروحي وأفرغت كل سام فيها وأصبحت مشحونة بمشكلاتها

الحادة في ذاتها ، فكان إعانات الصدمة لروحنا مزدوجا ، مكثفا معقدا إذ لم يقتصر الأمر على صدام روحين مختلفتين ، بل إن الغزوة في ذاتها مفعمة بجراثيم فتاكة لأعهد للمصدوم بها .

نعم إن الثقافة الغربية قد أصبحت مريضة حقاً لأنها تتكلف وتتصنع ولا تصدق التعبير . فأنشئ السخيفة التي تزخر بها لم تجد فيها مرتعا خصبا إلا لأن المجتمع الغربي قد أقفر من العطف الذي يكمن في الروح الشرقية السليمة . إن الزكاة الإسلامية ستظل صخرة تتحطم عليها كل هذه المثاليات مها تحاول الإفلات إلى مجتمعا .

إن المذاهب المتطرفة التي طغت على المجتمع الغربي ، وسوف تقوض بنيانه تنذرنا بسوء المصير إن لم نستمسك بروحنا وعاداتنا وتقاليدنا الصميمة . إن خاصتنا الذين جرفتهم المادة فأخذوا يبيعون أنفسهم لمقاعد حقيرة على منضدة المال المتجسم في مختلف المؤسسات المالية إنما يجرمون في يبيع أنفسهم للشيطان الغربي . إنهم يعبون من الثروة ، والأمة تشهد نهمهم غير غافلة فتملكها الحسرة على انزلاق صفوتها إلى هذه الهوة وكان الأجمل بهم أن يضربوا المثل في نكران الذات وخدمة المجتمع بوحى الضمير لا صرامة القانون الذي يتحيل أكثرهم للهرب من أوامره بحيل شتى .

إن مظهر القومية الحقة هو التضحية ، والإنسان حيوان قبل كل شيء . وإن التاريخ كما يقول شبنجلر لا يعرف العاطفة ولا يقوم إلا حول الحرب وحدها .

نعم قد غزت هذه الحضارة وهي في كهولتها بعد أن أجذبت من فلسفتها وفنونها وعقيدتها واستعاضت من ذلك الفقر الروحي قوة في ماديتها ، في سلطانها

واستعمارها ، فى جحافلها وأساطيلها وسائر أسلحتها الفتاكة ، وفى قوتها الاقتصادية التى عبأت فى سبيلها كل مالىها من علم . وأصبحت فلسفتها طبقا لذلك اقتصادية نفعية يبرأ منها السمو وينبو عنها الجلال . ولفقرها الروحى زخرت بالمشكلات السياسية والاجتماعية بعد أن سيطرت عليها الصناعة والمال ، فتمخض ذلك عن مذاهب ثورية عاصفة تنزع إلى التطرف وتجعل الحياة فى الغرب معركة مستمرة لا يفترق سبلها عن حربها إلا فى لون الحرب لافى جوهرها .

صدمت هذه الحضارة العارية من كل عطف ووجدان بقوانينها المادية ونظامها المادى وسلطانها المادى - روحنا المبينة لها كل التباين فكان ذلك أساس كل مشكلاتنا .

وأخيرا - وهنا الطامة - أخذت هذه الغزوة تتصل بالروح الشرقية المصرية وذلك عن طريق التعليم الأجنبى والدعاية الأجنبية ، وافترست قبل كل شىء شطرا كبيرا من الخاصة المصرية وعلى رأسها المرأة أو الأم ، وهذه الخاصة هى الشطر الموجه لمصاير الدولة والأمة . فكان لهذه الغزوة الخطر كل الخطر ، إذ كانت وطأتها أشد من الاستعمار والاستغلال المادى ، فلقـد صرعت الروح لا المادة .

هى غزوة فى اللهو والجد ، غزوة قانون لا صلة له بعرفنا وعاداتنا ، غزوة أدب وفن وفلسفة تمر على قلوبنا باردة ، كل آثارها تشويه سليقتنا وتفكيرنا . وهكذا لم يقم على حراسة التجديد حارس أمين مؤمن بشركته ومصريته . فالترية فى المدرسة وغير المدرسة تشقى من هذا الاضطراب ، والمجتمع

مصاب بوباء المُثُل والمذاهب الاجتماعية الجديدة التي تمخض عنها المجتمع الغربي المريض ، واقتحمت طائفة من الأمراض الاجتماعية بلادنا ، جاعلة من العامل سلعة من السلع ترتفع قيمتها وتنخفض كسائر العروض ، ومن الأب والابن شخصين لا يربطهما أمام القانون إلا ما يربط فردين عاديين كما زال عطف الرئيس على المرموس ، والغنى على الفقير وانفصمت عرا الأسرة فاحل المجتمع المصرى .

وتعطينا القرية والمدينة أمثلة من ذلك إذ أخذت المعالم الأصلية الشرقية المصرية فى الزوال لافى الطُّرُز والماديات بل تجاوزتهما إلى المعنويات فاختنى من الصورة سيد القرية العريق الذى لم يكن يربطه بقريته وأجرائه عقد ولا مال ، وإنما دم وأرض ، فكان من أهله وذويه الإمام العطوف والأب الشفيق يقاسمهم أفراحهم وأتراحهم ، وظهر فى اللوحة المالك العصرى الذى لا يربطه بما يملك إلا محض الاستغلال الذى يدعمه القانون الدخيل ، هذا القانون الذى يتجاهل أن فى الأرض حياة بشرية واجتماعية - لا مجرد حقوق تقدر بالمال ، لقد أصبح هم المالك أن تنزف القرية وأن تجوع وتعزى ليرتع بعيدا عنها فيما اغتصبته منها قسوته وجورده ، كما اختفى سيد المدينة الذى كان يؤدى الزكاة بقلبه ويده ويتعامل فى تجارته باللسان لا بالصكوك ، والذى كان منزله عامرا بألوان الكرم الشرقى السليم والفن العربى والمصرى الصميم ، كما اختفى الصانع من حانوته الصغير الذى كان يُخرج التحفة فكأنما هو فى صنعها وصقلها يذيب نفسه ووجدانه ، فتذوب لها من الناحية التقديرية نفوس الخاصة لا مالههم فحسب .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن كثيرا من التقاليد - والتقاليد مُسككة

المجتمع - قد اختفت وذهبت روعة الأعياد وحلاوتها كما فقدت الحشمة الطاهرة التي كانت تصون السيدة الشرقية في جمالها وفتنتها وأنوثتها الكاملة وتبدل الفن إلى تبذل وتلفيق فانحطت الأغاني إلى تخنث والصور إلى خلاعة وعري دنس ، والأفلام ، إلى مشيرات للشهوات

وهكذا كان من شأن هذه الصدمة أن جمعت حياً تناً ضعف الشرق والغرب وتعرت من عظمة الشرق والغرب ، فزال من حياتنا عنصر الجمال الروحي وحل محله الكم وعبادة المال الذي استحال من وسيلة في الحياة إلى غاية . نعم لقد طغت عبادة المادة على كل ذى قيمة حتى أصبح المال والمتاع والرفاهية غاية الغايات . وبانهيار الفوارق والحدود الطبيعية تملك النفوس الجاحدة نحو المادة نهم بالغ إلى الاستزادة منها فضربت صفحاً عن كل اعتبار في سبيل الاستزادة من هذه المادة . وتجد هذه الظاهرة مستحوذة على المالى والعامل وهى ظاهرة شقى بها ذوو النفوس العظيمة وجعلت حياتهم جحيماً فحُرم المجتمع أصالتهم وعبقريتهم لينعم بخيره أولئك الذين طفوا على سطحه لحفة وزنهم .

ضاعت قيم المعنويات فأصبح الواجب هزءاً وسخرية ، على حين أضحى الاستغلال والخسة والدناءة مُسْلا علياً يتفاهم عليها الناس دون أن يصرحوا بها ولكن المادة الغازية لاتستطيع أن تنال من الروح فكل منهما فى واد ويجب ألا نخترم فى هذه المدنية سوى قوتها المادية بعد أن تتحصن فى داخل روحنا بمناعة مصرية مستندة إلى تاريخنا وقوميتنا ولاشك أن روح مصر والشرق ستظهر حتماً ذات روعة على مسرح التاريخ ولكن فى ثوب جديد إذ قد أخذ الغرب يحس فقره الروحي فمضى يتجه اتجاهات جديدة ليس مذهب

شبنجلر وتلاميذه إلا أحدها بل إن كل خير إنساني في المرحلة الحالية للحضارة الغربية إنما مصدره تعاليم الدين المسيحي الذي اعتنقته بعد أن نبت في الشرق . فكما تولد ضعفنا من جميع نواحي الضعف في الحضارتين يتعين لنهضتنا أن نجعل غايتنا جمع عناصر القوة في كمتين : الروح المصرية الشرقية من جهة والعلم والصناعة الغربية من جهة أخرى .

فالمدينة الغربية الآن قوية في مادتها ، في آلياتها ومالياتها ، في نظامها وأسلحتها وإذا تركنا جانباً ميدان المادة فإنها تستمتع بحصال نفسية متصلة بروحها الحضارية القديمة ومرحلتها المادية الحالية ذلك أنها تستمتع بقوة الإرادة والمناورة في بلوغ الهدف والامعان في التنظيم التعاوني الذي يدفع بالانتاج إلى الكفاءة كما أن الروح المصرية لها طابعها الخاص وعاداتها وتقاليدها ، في جمالها ولغتها وأدبها فلنأخذ عن الأولى كل ما استطعنا من وسائل القوة المادية ولنقتبس منها تلك التفاعلية الجبارة والنفعية الاجتماعية ، لنأخذ عنها كيف يزيد التضامن في قوة الفرد وكيف نسيطر على الزمان والمكان وكيف نستفيد من هذه المرحلة التي تعبرها المدينة الغربية الغازية فننتزع منها سر نجاحها ولن يتأتى ذلك إلا عن طريق تربية خلقية للروح لا للفكر أي عن طريق التهذيب الصحيح الذي ميدانه الحياة بأجمعها لا المدرسة فحسب

إن شرألوان التجديد كما سبق أن بينت - النقل الأعمى عن البلاد الأخرى فلدستورنا البلجيكي وقانوننا الفرنسي ونظامنا التعليمي وما تولد عن ذلك كله في نهضتنا ، في حاجة ملحة إلى النظر فيه في ضوء هذا المذهب الجديد ، علينا أن نحترم الزمن والتقاليد والروح وليس معنى ذلك الاتئاد والتمهل في عصر السرعة وإنما البناء الرصين على أساس سليم وما أسهل ذلك إذا خلصت النية وكان رائدنا وطنية حقة فعالة ، فلا بد من أن يؤمن الصفوة والقادة بأن الروح فوق

المادة وأن المادة والثروة والرخاء بل الهناء في ذاته لا يجب أن تكون أهدافاً
فذلك ما يلوث نقاء الروح الإنسانية، ويجب أن يعطى هؤلاء الصفوة خير
المثل لمن حولهم، وعلى رأس الفضائل التي تعوزنا وتعوز خاصتنا قبل كل
شيء - الفناء في الواجب، وفي الواجب فحسب . فمن أعراض الفساد الشائعة أن
يقصر الفرد جهوده على حقوقه ناسياً أن هناك واجبات، وأن هناك مبادلة
اجتماعية بين الحقوق والواجبات .

اللهم إن كان في هذا المذهب الأخلاقي الألماني سوء فإن مما يكفيه خيراً
أنه يبحث على جعل الواجب غاية من الحياة، وألا يرهب الإنسان التضحية
بل يرحب بها كل الترحيب مادامت في سبيل الواجب لذاته، ويقول شبنجلر:
إن الحياة هي المأساة وهي الحرب في صورة الموت ينتظر المحارب كل ثانية .
أما السعادة فهي شر ما يهدف إليه الإنسان، إنها الانحطاط ولكن كم من
الناس يدركون ذلك ؟ .

يجب أن تسود الجندية المثالية وروح الجهاد الصادق كل نواحي المجتمع
وبخاصة الحكم . فعلى كل موظف وعلى الكبير منهم قبل الصغير أن يضرب
الأمثلة في فعله لا في قوله، في تصرفه لا في تعليماته - على تضحية بارزة بكل
عزيز في سبيل ما وكل إليه من مهمة .

إن الاشتعال الذي سرت ناره أخيراً في حاجة إلى حراسة حقة وإن
الحماسة والغيرة اللتين غمرتا الشرق بعامة ومصر بخاصة لتتطلبان توجيهاً عامراً
بالإيمان في هدى نظرة شاملة عميقة .

إننا نسمع كل يوم بإنشاء محاكم جديدة ومستشفيات جديدة وازدياد
في عدد رجال الشرطة كي . نسجل كل حين إدارات جديدة ووظائف جديدة

هذا حسن . ولكنه دليل على ظاهرة غير سارة ، إن دور القضاء لا تكثر إلا حيث يزداد الإجرام والمشاحنات . والمستشفيات مع ما فيها من خير مقطوع به عنوان الأمراض . وكثرة رجال الأمن وهيئاته دليل على ضعف النظام العام ، فهذه المرافق على أهميتها يجب أن تقبض وتنكمش في المجتمعات السليمة في أضيق حدودها كما في بلاد سكانديناوة حيث لا تظهر بعض المحاكم بقضية واحدة في العام !

نعم هناك مرافق أصيلة إيجابية ، ومرافق أدعوها بالترقيعية . وما المرافق التي ذكرت إلا من النوع الترقيعي . أما المرافق الأصيلة الإنشائية فعلى رأسها التعليم والتربية الحققة وأخص منها التربية الخلقية بالمعنى الحديث التي تهدف إلى تخرج مصرى متين في شخصيته ووطنيته ، يؤمن بالواجب القومى قبل النفع الذاتى ، ويرحب بالتضحية قبل الكسب . فالتربية إذا حظيت بتقديرها الحق وجب أن تسيطر على كل مهام الدولة وأن يجعل لها أوفر نصيب في مواردها ولكن في توجيه قومى سليم مدروس في عناية . ولو كانت التربية الخلقية متوفرة منذ بعيد ما لعبت الشهوات برءوس الخاصة وهم صفوة الأمة .

نعم إن التربية الحققة إذا عمت وسادت خفت بها حدة الأمراض الجسمانية وارتفع المستوى الصحى والخلقى وقبعت مرافق القضاء والعلاج والمحافظة على الأمن والبروقراطية الحكومية في أضيق حيز .

يجب أن يكون قوام الحكومة عنصريين لا يعلوهما في الأهمية شئ آخر : المربي الصحیح والجندى السليم ، المربي الذى ينشئ المصرى المضحى . المصرى المجاهد ، الجندى ، فالتربية يجب أن تنزع ، ويجب أن يقوم بها رجال مؤمنون

بأن في أعناقهم مصير البلاد لا إعداد الملايين للشهادة والوظيفة ولا الغنى والرفاهية فحسب . يجب أن يكون هدف التربية الأوحد عشق الواجب ، الواجب لذاته ، الواجب بمرارته قبل حلاوته ، الواجب في سبيل الله والوطن والملك .

لقد أهاب شبنجلر بقومه قائلا : إن عصر الكلام قد دالت دولته . وإن عصر الفعال قد حل واستيقظ من غفوته . إن البهيمية الإنسانية تسترد مكانتها في قوة فلا تزال الحروب لغة التاريخ الوحيدة ، وعلينا ألا نخذعنا لحلاوة التصريحات فنشقى بيهرج النصوص في المعاهدات والاتفاقات . إن هذه القوة لا تغلها إلا القوة . فعلينا أن نفيد من آراء شبنجلر وصراحتة ، وأن نأخذ بسبيل الفعال لا الأقوال . أن نأخذ في تنشئة الفعالين قبل القوالين . إن هذا العصر لا يتسع للمتفلسف والمتحذلق . إنه عصر الأفعال الجبارة ، عصر الانتاج والقوة ، فعلينا أن ندرك ذلك وأن نقيم مصيرنا على هذا الأساس . إن الغرب ليهوى وإن الشرق ليرتفع من جديد . لقد آن أوان الزعامة الحقة ، الزعامة الروحية التي تضرب المثل في التضحية بالنفعية . لقد أخذت المدينة الغربية تحفر قبرها بيدها ، وبدأت المدينة الشرقية تتحرر من كابوس نيرها لا على أصوات المدافع وصليل السيوف بل على قيثارة هادئة تناجيها من أعماق الماضي الشرقى البعيد بأنغام قديمة كلها حنان ورفق . فراينا منذ عقدين من السنين العظيمة الغربية في عواصم أوربة وأمريكا تكمل بالغار جبين تاغور شاعر الهند وفيلسوفها في جلبابه الفياض ووقاره ، وتكرم فيه عظمتها الروحية ، أى تمجده في عقر دارها ، وسمعنا بالموائى وهى ترخر ، والطرق وهى تفيض بحموش حافلة أوربية لتحظى بنظرة من غاندى العارى الذى غزا أوربة بعظمة

نفسه المطمئنة الوادعة وإيمانه الراسخ المتين .

وإني لأتساءل - ونحن نستشرف لنهضة الشرق المرموقة - أمن الممكن أن يكتسب المعدل الزمني للتطور في المراحل الحضارية السالفة في هذه المرحلة الحالية من الحضارة الغربية التي تجلت فيها ظاهرة السرعة الآلية - حظا من هذه السرعة يؤثر في المدى الذي حدده شبنجلر ، فتتخذ التغيرات التي تصيب الحضارة في هذا العهد وما يليه من عهود مدى أقصر مما اتخذته الحضارات السالفة ، إني لأتساءل : أمن الممكن أن يكون ذلك ، أم أن معدل السرعة في ذاته أمر مادي لا شأن له بالتطور الروحي ، وأن هذه السرعة الذرية لن تنال من الظواهر الروحية أى منال ؟

هذه مسألة ليس من السهل أن نصل فيها إلى إجابة شافية . فندعها إلى ما كنا فيه من الحديث عن تبشير نهضة الشرق ليستعيد أجماده في مستقبل زاهر . ويحضرني الآن ما ذكره لى صديقي العزيز الدكتور على بك رشدى بنى سويف من أن مجلسا فى مونيخ ضمّه وجمعا من الشرقيين أكثرهم مصريون وهم يومئذ مابين طالب ، ومضطهد سياسى ، وحدث أن دخل مجلسهم شبنجلر فنظر إلى زميله وأشار إلى ذلك الجمع الشرقى قائلا : هنا المستقبل .

وأخيرا أقول حذار أن نخدعنا المظاهر ويجرفنا التقليد ، يجب أن نديم الحراسة على شعلتنا الروحية القومية ، وألا نسلم فى قبس منها . إن ثروتنا الآن تكمن فى هذه الذخيرة الروحية ، وعلينا أن نبني لها الهيكل الملائم من قوة ومادة .

فإذا ما أدرك كل زعيم وكل كبير ان الغاية هى الجهاد والتضحية فى سبيل الواجب لغيره وبلاده ومليكّه فإن عصرا سعيدا سيزرع حتما وستنال البلاد

كل خير بإذن الله .

إن الحوادث ينطلق شررها في اتصال لا يكاد ينقطع ، وفي كثرة وقوة
وتوهج ومفاجأة ، وقد آن أن نتخذ من الأهبة ما توجه به هذه المباحثات
السحرية القوية .

وإني لأتفائل بهذه الهبة التي غشيت مصر والشرق العربي والإسلامي
وتغلغلت فيهما أخيرا ، إذ أرى فيها انقلابا أساسيا يمليه القدر ، أرجو أن
يثمر وأن يبينع ، ففي مصر والشرق ذخيرة روحية حرام أن نهدرها في التافه
من الأمور ، ولزام علينا أن نحسن توجيهها واستثمارها ، وعلى الله قصد السبيل .

على حسن الراكم

المنصورة في نوفمبر سنة ١٩٤٨

لقد كنت أذكر الناس تلهفا على الانقلاب الذى تم هذا العام (١٩٣٣) بتولى النازية الحكم فى ألمانيا ، فإنى مَقَتُ الثورة القذرة فى سنة ١٩١٨ لأول يوم من أيامها ، إذ لم تكن إلا خيانة أحد شطرى الشعب للشطر الآخر ، خيانة الشطر الضعيف للشطر القوى السليم ، الذى نهض عام ١٩١٤ لبناء المستقبل الذى يريده ، وكل ما كتبتة فى السياسة منذ ذلك الوقت كان موجها ضد القوى التى كانت قد تعاونت مع أعدائنا على إقامة صرح شقائنا وبؤسنا بغية القضاء على كل أمل لنا فى المستقبل ، ولذلك كان كل سطر مما خطته يرمى إلى إسقاط تلك القوى ، وأرجو أن يكون ذلك قد تم ، فلا بد من حصول أمر ما - وعلى صورة من الصور لتحرير الغرائز الكامنة فى دماغنا من وطأة ما ترزح تحته ، حتى نستطيع أن نساهم فى حوادث الأحداث المقبلة فى العالم . وحتى لانكون محض فريسة ، فالمسرحية الكبرى للسياسة العالمية لم تتم فصولها بعد ، بل إن وقائعها الكبرى على وشك أن يرفع عنها الستار ، وليس أمام أى شعب من الشعوب القائمة إلا أحد أمرين لا ثالث لهما : العظامة أو الفناء ، وحوادث هذا العام تبعث فىنا الأمل بأن هذه القضية لم ينصل فيها بعد بالنسبة لنا . ويوحى بأننا سنعود يوما إلى مركز الفاعلية .

في التاريخ كما كانت الحال في عهد بسمارك - ولن نبقى موضوعا فيه فقط .
إن هذه الفترة التي نعيش فيها فترة من الزمن جبهة رهبة لا رغبة
فيها ولا هناء ، فالعظمة والسعادة شيان متباينان ، وليس لنا أن نختار بينهما ،
فليس الهناء من نصيب أى إنسان يعيش في عصرنا الراهن ، ولكن كثيرا
من الناس يستطيعون أن يتجهوا بمحض إرادتهم لإحدى وجهتين : إما إلى
القمة ، وإما إلى الحضيض . أما من ينشد الرغبة لحسب فإنه لا يستحق أن
يكون من أبناء هذا العصر .

والغالب على كل من مارس عملا ألا تمتد نظره بعيدا لأنه يساق مدفوعا
إليه من دون معرفة الهدف الحقيقي ، وربما يكون من المحتمل أن يقاوم
لو اطلع عليه ، فنطق القدر لا يأبه لرغبات البشر ، والذي يحدث غالبا هو
أنه يضل السبيل لأنه بنى حول نفسه وفي داخلها صورة زائفة للأمور . ولذلك
كانت المهمة العظمى للمؤرخ المحقق ، أن يتفهم الوقائع والأحداث في عصره
ثم يستلهمها ويفسر ويصور المستقبل الذي لا بد أن يقع اردناه أو لم نرده ،
وإن عصرا كهذا العصر لا يمكن أن يتهيأ له الوعي الكامل من دون النقد
المستشف المُستنير الموجه .

إن انحنى باللائمة على أحد ، وإن اذاهن ، بل إنى لأمتنع عن الحكم على
ماهية حقيقة الأمور الوشيكة الوقوع ، فالحق أنه لا يستطيع تقدير أى حادث
إلا بعد أن ينحدر إلى الماضي البعيد ، وبعد أن تتحول الوان النجاح وضروب
الفشل إلى وقائع . فلم يكن من المستطاع أن يفهم « نابليون » خمير الفهم قبل
أواخر القرن الماضي ، وإلى الآن لا نستطيع أن ندلى بحكم قاطع على « بسمارك »
فالوقائع الفعلية هي التي تثبت ، أما الأحكام فهي قابلة للتبدل والتغير .

وأخيرا أقول : إن المعاصرين للحوادث الهامة لا يجوز لهم أن يتعرضوا لتقدير الحكم عليها ، إذ أن ذلك سيكون من شأن التاريخ ، بعد أن يكون كل من ساهم فيها قد قضى نحبه .

ومع ذلك فيجب أن أصرح اليوم أن الانقلاب القومى فى عام ١٩٣٣ كان أمرا جبارا ، وسيظل كذلك فى نظر المستقبل ، وذلك بفضل الطريقة التى تم بها من حيث القوة التى جمعت بين البساطة والإعجاز ، ومن حيث النظام الروحى الذى تم به ، فقد كان ذلك الانقلاب بروسيا صمما كثورة عام ١٩١٤ التى بدلت النفوس فى لحظة ، فلقد نهض الحالمون من الألمان فى هدوء وبداهة أخاذة ، وشقوا طريقهم إلى المستقبل ، وهذا الاعتبار نفسه يقتضى أن يدرك المساهمون فى هذا الانقلاب بوضوح أنه لم يكن انتصارا إذ لم تكن ثمة خصومة ، فقد اختفى فى الحال أمام قوة الثورة كل ما كان قائما إذ ذاك أو لا يزال يلعب دوره ، وكل ما كان فى هذا الانقلاب إنما هو الأمل فى انتصارات مقبلة يجب انتزاعها فى معارك حامية الوطيس ، وإعداد الساحة لخوض غمارها . وقد حمل الزعماء التبعة كاملة على كواهلهم . وعليهم أن يعلموا أو يتعلموا معنى هذه التبعة ، فهى مهمة مليئة بأخطار جسيمة لا تقوم فى داخل المانيا ، وإنما تقوم فى خارجها ، فى عالم الحروب والكوارث ، حيث تكون السياسة العليا صاحبة القول الفصل ، فإن ألمانيا من حيث مصايرها أكثر تشابكا مع سائر البلدان من أى بلد آخر ، فهى أقل البلدان قبولا للحياة فى عزلة ، وفضلا عن ذلك فإن ألمانيا لم تكن موطننا لأول ثورة قومية - فقد سبق بمثلها « كرومويل » ، « وميرابو » - ولكنها الثورة الأولى التى تقع فى بلد خائر القوى وفى وضع فى منتهى الخطورة مما يزيد

وطأة الأعباء إلا حد لانهاية له ، هذه الأعباء التي ظهرت وأدركت وقاربت أن تفهم ، ولكنها لم تحل بعد . وإذا فليس الوقت وقت النشوة وزهوة النصر ، والويل لأولئك الذين يخلطون بين التعبشة والنصر .

نعم ، إن هناك حركة قد بدأت ، ولكنها لم تبلغ هدفها ، فهي لم تؤثر في المسائل والأحوال القائمة ، وهي المسائل التي لاتخص ألمانيا وحدها وإنما تعم العالم أجمع ، كما أنها لاتخص هذه السنين فحسب ، وإنما تشمل قرناً من الزمان . إن خطر المتحمسين قائم في نظرهم إلى الموقف في كثير من البساطة وإن الحماس لا يستقيم مع الأغراض التي تمتد إلى أجيال مقبلة ، والتي من دونها لاتبدأ المواقف الحاسمة في التاريخ .

لقد تم هذا الانقلاب في عاصفة جمعت بين القوة والضعف ، وإنى لألاحظ في قلق دوام التصفيق لهذا الانقلاب ، وكان الأجدر أن يدخر هذا التصفيق لأيام نجاح حاسم حق ، أي في السياسة الخارجية دون سواها ، فإذا ما فرنا يوماً بهذه الانتصارات يكون الزمان قد عتق على رجال اليوم الذين خطوا الخطوة الأولى وجر عليهم ذيول النسيان ، حتى يأتي جيل جديد يذكركم ويعرف قدرهم ، فإن التاريخ لا يعرف العاطفة ، وويل لمن يتأثر بها ، وإنه ليكن في كل تطور له مثل هذه البداية كثير من الممكنات التي قبل أن يشعر بها مقارفوها تمام الشعور ، فلقد تتججر هذه التطورات في مبادئ ونظريات ، أو تنحدر إلى فوضى سياسية اجتماعية اقتصادية ، أو ترتد عقيمة إلى بدايتها ، كما أحس الناس بوضوح في باريس عام ١٧٩٣ عند ما كان القوم يتمنون أي تغيير ، فنشرة الأيام الأولى التي كثيرا ما تقضى على الاحتمالات التالية يتلوها عادة اليقظة وعدم الاطمئنان إلى الخطوة التالية ، إذ تبلغ السلطة عناصر ترى

فى الاستمتاع بها غاية ونتيجة ، متمنية ومحاولة أن يدوم هذا الوضع إلى الأبد مع أنه لا يمتثل غير لحظات . ثم إن الأفكار الحققة قد تؤدى بالمتعصبين لها إلى الغلو حتى تصل إلى نكران الذات ، فسا يبدأ منبثا بالعظمة قد ينتهى إلى المأساة أو المهزلة ، ولذلك ينبغى مجابهة الأخطار قبل فسوات الألوان فى رضا وقناعة حتى نكون أحصف من كثير من الأجيال السابقة .

فإذا كان لابد من بناء أساس ثابت لمستقبل عظيم تبنى عليه الأجيال المقبلة فلن يتأتى ذلك من دون مشاورة على فعل ماتقضى به التقاليد القديمة ، وما من شىء يطمئن على استقرار المستقبل غير ما يجرى فى عروقنا من دماء آبائنا ، وهى أفكار من غير ألفاظ ، وما يهم هو ما نعتشهُ من سنين « بالبروسية » وقد أمكنه الثبات فعلا ، على النقيض من أى لون من ألوان الاشتراكية .

نحن فى حاجة إلى تهذيب لبلوغ تلك الروح البروسية التى كانت فى عامى ١٨٧٠-١٩١٤ وهى الروح الزاقدة فى أعماق نفوسنا حقيقة ثابتة . وإن يتأتى ذلك إلا بالقدوة الحية ، وبطبقة مسيطرة ضابطة لنفسها بحكم العادة لا بكثرة الألفاظ ولا بقوة الإرغام . فعلى المرء أن يحكم نفسه ليتمكن من تلبية الفكرة وإن يكون متأهبا للتضحية العميقة عن اقتناع ، أما من يخالط بين هذا والضغط الفكرى للبرناج فهو لا يدرك من الأمر شيئا .

لذا أعود إلى كتابى الذى كتبته عام ١٩١٩ « البروسية والاشتراكية » والذى بدأت فيه بالإشارة إلى هذه الضرورة الأدبية التى من دونها لا يستطيع الوصول إلى أى لون من ألوان الثبات ، وإذا كانت الشعوب الأخرى قد احتفظت بطابع يميز بفضل ماضىها وخلونا نحن من الماضى المذهب ، فحق علينا أن نوقظ ونهذب الطابع الذى يكمن فى دماننا كمون البذرة .

وعلى هذه الغاية أقصر كتابي هذا ، الذي أقدم جزأه الأول ، وإني أفعل ما لم أتفك عن فعله : ذلك أني لا أصور مثالية للم مستقبل ولا أرسم برنامجا لتحقيقه كالبدعة السارية بين الألمان ، وإنما أتطو صورة واضحة للوقائع كما هي وكما ستكون ، فاني أرى أبعد مما يراه غيري ، وما أراه لا يقف عند حد إمكانات عظيمة ، وإنما يمتد إلي أخطار جسيمة ، وهي أخطار أرى منشأها والطريق المحتمل لتحامها ، فإذا لم يكن هناك من تبلغ به الجرأة أن يري وأن يحبر بما يري فسا كون ذلك الرجل الجريء ، إن لي حق النقد لأنني ما انقطعت يوما عن تبيان ما لا بد من حصوله ، لأنه سيقع . لقد بدأت حوادث فاصلة وليس في الامكان استعادة أية واقعة بعد حصولها . فنحن جميعا مجبرون على السير في هذا الاتجاه أردناه أو لم نردده . وإن كلمة « لا » لن تكون إلا قصر نظر وجبنًا - فان ما لا يريد الفرد سيقوم بتنفيذه التاريخ حتما .

ولكن كلمة « نعم » تفترض الفهم ، ولهذا الغرض أعددت كتابي هذا . فهو تحذير من أخطار . والأخطار قائمة على الدوام . فكل مشترك في الحوادث القائمة في خطر ، والخطر هو الحياة نفسها . وعلى كل من يربط مصير الدول والأمم بمصيره الشخصي أن يجابه الأخطار وهو محقق فيها . فربما كان في هذا التحديق نفسه ما يتطلب قسطا عظيما من الشجاعة .

لقد نشأ هذا الكتاب عن محاضرة ألقيتها في هامبورج عام ١٩٢٩ عنوانها « ألمانيا في خطر » ولم تحظ بفهم الكثيرين . وفي نوفمبر سنة ١٩٣٢ أقدمت على تناول الحالة في ألمانيا ، وفي ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ كان الطبع قد بلغ الصفحة السادسة بعد المائة . فلم أغير فيه كلمة لأنني لا أكتب لأشهر ولا لسنين قليلة مقبلة . وإنما أكتب للمستقبل . ولن تذهب الحوادث بما هو حق . ولم أغير في الكتاب سوى اسمه درءا لسوء الفهم . وليس الخطر في هذا الاستيلاء القومي على الحكم وإنما الأخطار كانت قائمة بعضها منذ عام ١٩١٨ وبعضها قبل

ذلك بكثير وهي لا تزال قائمة إذ لن تقضى عليها حادثة واحدة تتطلب عدة سنين من التطور السليم الماثب كي تحدث في هذه الأخطار الأثر المطلوب .
إن ألمانيا في خطر ، وإن قلقى عليها لم يهن ، وإن نصر مارس كان من السهولة بحيث لا يسمح بفتح الأعين لاتساع الخطر ومنشئه ومدته .

ليس ثمة من يستطيع أن يعرف أى صور وأوضاع وشخصيات سينتهى بها هذا الانقلاب ، ولا أى رد فعل من الخارج سوف يتأق عنه ، فكل ثورة لا بد أن تسير إلى الحال الخارجية للبلاد ، ولذلك يحتاج الأمر في مواجهة هذه الحال إلى ساسة من لون « بسمارك » ، ولا يبعد أن نكون على أبواب الحرب العالمية الثانية التى ستتخذ فيها وسائل وأغراض حربية واقتصادية وثرية غير مقدورة ، فليس لدينا من الوقت ما يتسع للاقتصار على الأمور الداخلية وعلينا أن نكون متهيئين لأية حادثة يمكن حصولها ، فألمانيا ليست بجزيرة منعزلة ، وإن لم ندرك أن علاقاتنا بالعالم هى أهم مشكلة لنا بالذات فسيمر بنا المصير غير آبه ولا رحيم .

إن ألمانيا أكثر بلاد العالم حسا في أموره ، لا بسبب موقعها على حدود آسيا التى هى اليوم أهم قارة من الوجهة السياسية العالمية فقط ، بل لأن الألمان لا يزال في روحهم ذخيرة من الشباب الحضارى ، يستطيعون بها أن يحيوا في أنفسهم حوادث العالم التاريخية ، وأن يهيئوها ويفصلوا فيها على حين أن شعوبا أخرى بلغت بها الشيخوخة والتحجر حدا لا يتيح لها أكثر من القيام بالدفاع ، ولكن الهجوم في ذاته يشتمل على أكبر أمل في النصر أمام المشكلات العظمى - هذا ما سطر . فهل يأتى بالأثر المرجو ؟؟

أوزفالد سنجوهر

مونيخ في يولييه سنة ١٩٣٣



الافق السياسى

- ١ -

هل رعى رجل من الأجناس البيضاء اليوم ببصره إلى ما يدور حوله فى أنحاء الأرض ؟ وهل عرف مبلغ الخطر الجاثم فوق هذه الكتلة من الأقسام التى تحلق فوقها النذر ؟ ولا أعنى بقولى هذا طائفة سكان المدن المتعلمين منهم والجهلاء ، قارئى الصحف وبهائم المصوتين فى أيام الانتخابات ، التى تسوى بين الناخب ومن ينتخبه على اختلاف مراتبهم ، ولكنى أعنى أولئك القادة فى الأمم البيضاء الذين لم تمتد إليهم بعد يد الفناء ، أولئك الزعماء الحقيقين فى ميدان السياسة والاقتصاد والجيش والفكر ، هل تطلع أحدهم ببصره إلى ما وراء هذه السنين ، أو وراء قارته وبلاده ، أو على الأقل وراء محيط عمله ودائرة نشاطه ؟

نحن نعيش فى عصر زاخر بالأحداث التى تقرر فيها المصائر ، فلقد بدأ أعظم عصور التاريخ لا فى الحضارة « الفاروسية » لغرب أوربا بحركتها فحسب ، بل من أجل ذلك فى سائر عصور التاريخ . إنه لأشد هولا ، وأكثر رهبة من أزمنة قيصر و نابليون ، ولكن ما أشد عى الناس الذين يمر بهم المصير وهو يرغى ويزبد ، ويقصف ويعصف ، ويرفع ويبيد ! فمن من الناس يرى ويدرك ما يجرى حوله ؟ ربما فعل ذلك عجوز صينى أو هندى قلَّس ببصره

من حوله في صمت ، وبتأثير ألف سنة كامنة في فكره . وما أسخف وأضال ما يبيده غرب أوروبا وأمريكا من أحكام ووسائل !! فن من سكان الغرب الأوسط في الولايات المتحدة يفهم حق الفهم ما يجري وراء « نيويورك وسان فرانسيسكو » من حوادث ؟ وماذا يستشفه رجل انجليزى من الطبقة الوسطى من الأحداث التي تنهأ في القارة الأوربية ، بغض النظر عن الريف الفرنسى ؟ ماذا يعلم كل هؤلاء عن اتجاه مصيرهم ؟ هناك تنشأ عبارات براقة أخاذة من أمثال « التغلب على الأزمة الاقتصادية » و « التفاهم بين الشعوب » و « السلامة القومية » و « الأوتاركية » (١) للتغلب على كوارث أجيال بما يسمونه « الرخاء » و « نزع السلاح »

ولكنى أتحدث هنا عن ألمانيا التي تقف في مهب العواصف ، عواصف الأمور الواقعة ، التي تهددها بأشد مما تهدد به أية دولة أخرى ، والتي أصبح وجودها في كف القدر ، وأنا أعنى أشد معانى هذه الكلمة إثارة للرعب والفرع ، إلا ما أشد قصر النظر والسطحية الصاخبة الشائعتين هنا !! إنهم إذا ما دار الحديث حول اضخم المشكلات فلن ترى أو تسمع إلا تفكيراً ريفياً محدوداً . فليؤسسوا داخل أسوارنا « الرايخ » الثالث أو دولة سوفيتية ، أو فليغزوا الجيش أو الملكية ، وليقضوا على زعماء الاقتصاد والزراعة ، ليمسحوا الدويلات الصغيرة أو سع قسط ممكن من الحكم الذاتي أو ليقضوا عليها ، وليسمحوا لِسادة الصناعة والإدارة أن يعملوا على نمط عام ١٩٠٠ ليقوموا في النهاية بثورة ، وليعلنوا الدكتاتورية ، وما أسهل العشور على دكتاتورها فهناك خمسون من الرجال يرون أنفسهم أهلاً لها منذ زمن !!

(١) مبدأ الاستكفاء الاقتصادي الذي أخذ يتغلغل أخيراً في السياسة الاقتصادية للدول والامبراطوريات ومجموعات الدول .

كل ذلك جميل وحسن ، ولكن ألمانيا ليست جزيرة ، فليس بلد أكثر اتصالا وارتباطا منها بمصير العالم سواء في فاعليته أو مفعوليته ، بذلك قضى موقعها الجغرافي وفقرها في الحدود الطبيعية ، ولقد كانت ألمانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بمثابة أوروبا الوسطى ، ثم ارتدت في القرن العشرين إلى ما كانت عليه في القرن الثالث عشر ، أى دولة التخوم أمام القارة الآسيوية ، وأصبح الألمان بذلك الوضع في حال تدعوهم إلى الانطلاق بأفكارهم السياسية والاقتصادية إلى ما وراء حدودهم بكثير ، فكل ما يقع في جميع أنحاء الأرض تصل ذبذباته إلى داخل ألمانيا .

إن ماضينا يشار لنفسه ، هذا الماضى الممثل فى سبعائة عام من الدوايمة الإقليمية الصغيرة العارية من أية ذرة من العظمة ، العاطلة من حبل المجد ، حيث لافكرة ولا مذهب ولا هدف ، وهى خسارة لاتعوض فى جيلين .

ولقد ارتبكت ألمانيا بعد أن خلفها بسمارك خطأ جسيما ، إذ لم تعن بتنشئة الجيل الجديد ، وتهيته لوقائع الصورة الجديدة التى ستكون عليها حياتنا السياسية ولقد رآها الناس دون أن يفقهوها فلم يطابقوا دخیلة أنفسهم على آفاقها ومشكلاتها وأعياها الجديدة ، ولم تتغلغل فى صميم حياة الشعب ، حتى أصبح جمهور الأمة ينظر إلى مصير بلاده العظيمة نظرة سطحية ضيقة محدودة المدى ، وقد أخذ هذا التفكير الضيق فى الظهور منذ أن سقطت القياصرة « الستاوفيونيون » الذين كانوا يتطلعون إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، و « الهانزا » التى سيطرت على ما بين « الشلت ونوفجروود » - فريستين لدول أمتن بناء وأقوى أسسا ، لأنهما كانتا تفتقران إلى سياسة واقعية مدعومة فيما وراء الحدود . ومنذ ذلك الحين حصر الألمان أنفسهم فى اوطان صغيرة

لا أعداد لها ومصالح ضئيلة ، جاعلين من هذا الأفق المحدود مقياسا لتاريخ العالم ، وحالمين على ما بهم من جوع وفقر بامبراطورية في السحب ، ابتدعوا لها عبارة « المثالية الألمانية » ، وإلى هذا التفكير الألماني المحدود يرد معظم ما أنبته تربة المستنقع « الفايمارى » ، (١) من مثل علمية وشيوعية وسلمية و « التراموتانية » ، واتحادية وآرية للامبراطورية المقدسة او الدولة السوفيزية او الرايخ الثالث . فكل الأحزاب تفكر وتعمل كأنما ليس على وجه الأرض إلا المانيا وحدها ، فنقابات العمال لا ترى ما وراء اقاليمها الصناعية ، وهى تمقت منذ قامت كل سياسة استعمارية لخلو برناج كفاحها الطائفي منها « ثم هى لضيق تعاليمها لا تدرك ولا تريد أن تدرك أن النزعة الاقتصادية فى نهاية القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أساسها توفير المواد الأولية ومواردها ، وتوفير الأسواق للمنتجات الصناعية ، وهذا ما أدركه العامل الانجليزى قبل ذلك بزمن بعيد .

إن الديموقراطية الألمانية تحلم بالسلم ونزع السلاح ، وهى غافلة عن القوة الفرنسية ، كما يحلم الاتحاديون بأن تعود بلادهم إلى ما كانت عليه بمجرعة دويلات من الطابع القديم ، وهم لا يشعرون أنهم بذلك يهيئون للدول الأجنبية كل فرصة للعبث بهذه الدويلات وتأليب بعضها على بعض ، فى حين أن النازيين يعتقدون أنهم يستطيعون تجاهل العالم ومقاومته ، وبناء قصورهم الهوائية من غير أن يشيروا من الخارج رد فعل قد يكون صامتا ولكنه محسوس جدا .

(١) نفسه إلى Weimar حيث أسست الجمهورية الألمانية عقب الحرب العظمى

وهناك بالإضافة إلى ماسبق الجزع من مجابهة الحقيقة ، فنحن - البيض الوجوه - مصابرون بهذا الجزع وإن كنا لا نشعر به إلا نادرا ، بل إن معظمنا لا يشعر به قط .

إنه الضعف الروحي لانسان الحضارات العليا الذي فصمته المدنية عن الفلاحة وعن أمه الأرض ومنعته بذلك أن يحى في نفسه القدر والزمن والموت ، فأصبح لحدة يقظته دائم التأمل في الأمس والغد ، لا يطبق ما يراه وما يجب أن يراه ، وهو سير الأمور القاسى ، والمصادفة التى لا معنى لها ، والتاريخ الحق بخطاه الجادة القاسية يعبر القرون التى ولد وعاش فيها بصفة لازمة حياته الضئيلة فى المكان المحدد له . ذلك ما يجب أن ينساه وأن ينقضه وأن يمارى فيه ، فيفر من التاريخ إلى العزلة ، إلى أنظمة متخيلة غريبة عن الواقع ، إلى أية عقيدة ، وربما فر إلى الانتحار . إنه يوارى رأسه كنعامة حمقاء ، ويختفى وراء آمال ومثل عليا ، فى تفاؤل جبان ولسان حاله يقول « إن ما أراه لا يجب أن يكون ، إذا فهو شيء آخر » إن من يغنى ليلا فى الغابة يغنى من الخوف ، ولنفس ذلك الخوف ينادى جبن المدن بمذهب التفائلى الخيالى فى أنحاء العالم فان سكان المدن قد فقدوا القدرة على مواجهة الحقيقة ، فترام يحلون محل الأمر الواقع أحلام المستقبل ، مع أن التاريخ لا يعبأ مطلقا بآمال البشر بادئة بأحلام الاطفال ومتدرجة فى النهاية إلى السلام العالمى وفردوس العمال للكبار .

ومهما تبلغ قلة معرفة الانسان لحوادث المستقبل فان الصورة العامة للوقائع

المقبلة وسيرها خلال الزمن تنكشف له إذا وازنها بالحضارات الأخرى ، فمن المقطوع به أن القوى التي تسيطر على المستقبل هي نفس القوى التي سيطرت على الماضي من إرادة الأقوى والغرائز السليمة والجنس وإرادة الملكية والقوة ، تترجح بجانبها الأحلام العقيمة التي تظل دائما أحلاما وهي الهناء والسلام والعدالة . يضاف إلى ذلك بالنسبة لحضارتنا الخاصة ومنذ القرن السادس عشر العجز الآخذ في الازدياد عند الكثيرين منا عن إدراك مغزى الحوادث والمواقف في ميدان السياسة العليا والاقتصاد العالمى الدائم التعقد والغموض ، وفهم النزعات والقوى الفعالة فيها ببله السيطرة عليها . ففي كل يوم تشتد ندرة الساسة الحقيقيين ، إذ أن معظم ما يصنع في تاريخ هذه الأيام من صنع أنصاف العارفين والهواة الذين رافقهم السعد ، ومع ذلك فإنهم اعتمدوا على الشعوب دائما ، وتركوها لسليقتها من غير تدخل ، ولكن هذه السليقة وقوة النقد المتدفق الناشء عن الجهل المرح قد بلغت من شدة الضعف اليوم حدا جعل الخطر يزداد من عدم ظفر السياسى الحاذق العارف بالأمور بالرضا الغريزى عن أعماله إلى حد ما أو على الأقل باحتماله في تدمير بل قد تمنعه مناهضة من يفضله في المعرفة من صنع مايجب صنعه .

فذلك الرضا الغريزى المشار إليه أولا كان موقف بروسيا من فردريك الأكبر ، كما أن بسمارك كاد يصاب بالفشل بسبب المقاومة ، وهؤلاء الزعماء لن يستطيع تقدير عظمتهم وإبداعهم إلا الأجيال المتأخرة ، والذي يعيننا الآن أن يقتصر الحاضر على الجحود والغفلة ، وألا يمتد إلى رد الفعل ، فقد نبغ الألمان في تناول الأعمال المبدعة بالشك والنقد والإحباط وحرموا الخبرة التاريخية وقوة التقاليد اللتين هما من خصائص الحياة

الإنجليزية ، إنهم شعب الشعراء والمفكرين الذى أصبح على وشك التحول إلى شعب من الثرثارين والمضطهدين ، فكل زعيم سياسى حق يقوم فينا لا يكون محبوبا من جمهرة الشعب بسبب جزعهم وخورهم وجهلهم ، ولكي ندرك ذلك يجب أن نكون أكثر من مثاليين .

نحن نعيش اليوم في عصر « الراسيوناالية » الذى بدأ في القرن الثامن عشر والذى يسرع إلى التمام في القرن العشرين ، فنحن جميعا من صنعه سواء أعرفنا ذلك وأردناه أم لم نعرفه ونرده ، إن كلمة « الراسيوناالية » أصبحت مألوقة عند كل إنسان ، ولكن من ذا الذى يعرف كل ماتحتويه ؟ إنه غرور النفس الحضرية الممجذرة التى لم تعد توجهها الغريزة والتى تنظر بازدراء إلى التفكير الدموى للماضى ، وحكمة الأجيال الزراعية السابقة ، إنه لعصر يستطيع فيه كل فرد أن يقرأ ويكتب ، وهو لذلك يرغب في المشاركة في كل حديث ويعتقد أنه أدري من غيره بكل شيء ، ولقد أصبحت هذه الروح وقد تحكمت فيها هذه الآراء توجه سهامها النافذة إلى العالم وهي تقول لنفسها : « هذا الأمر ليس بنافع ، فلنحسنه ، ولنضع برناجنا للعالم الأفضل » !!

حقا ليس أسهل من هذا على ذوى الذكاء الذين يتصورون إذ ذاك أن البرناج سوف يتحقق من تلقاء نفسه ، ونحن نسمى ذلك « تقدم الإنسانية » ويخيل إلينا أنه مادام قد اكتسب اسما فقد أصبح كائنا بالفعل ، وأن الذى يشك فيه يكون متهما بالضيق في الأفكار ، وبالرجعية ، وبالإلحاد ، وفوق كل شيء بالتجرد من الفضيلة الديموقراطية ، وإذا فعليه أن ينتحى جانبا !! وهكذا يتغلب غرور الفكر على الجزع من الحقيقة ، وهو غرور ناشئ عن الجهل بكل ما يتصل بالحياة ، وعن الجذب الروحي والافتقار إلى الاحترام ،

وأخيرا عن الغباء الغريب عن الحياة ، فليس هناك ما هو أغبي من ذكاء المبدن
المجذر الذى يدعونه فى المكاتب التجارية والأندية الإنجليزية ، حسن إدراك
الواقع ، وفى المجتمعات الفرنسية ، اللبابة ، وفى حجر العلماء الألمان ، العقل
الخالص ، هكذا تبدأ التفاؤلية السطحية عند أدعياء الثقافة بالكف عن
خشية وقائع التاريخ والانقلاب إلى ازدرائها وتحقيرها ، فكل دعى فى المعرفة
يرغب فى تنظيمها داخل إطار نظامه الخلو من الخبرة وجعلها فى الفكر أكمل
منها فى الواقع ، جعلها خالصة فى الفكر لأنها لم تعد حية فى نفسه بل محض
معروفة ومفهومة ، هذه النزعة إلى الأخذ بالنظريات التى ترجع إلى العوز
فى الخبرة ، بل إلى فقد القدرة على خلق الخبرة تتجلى نظريا فى تلك التصميمات
التي لاتنقطع للأنظمة والمجتمعات المثالية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،
وعملها فى هوس التنظيم الذى يرمى إلى غاية مجردة فى ذاتها ، ولكنها تؤدى فى
الواقع إلى ألوان من « البيروقراطيات » تنتهى فى سيرها العقيم إلى الفناء
أو تقضى على أنظمة حية قائمة ، فالراسيونالية ليست فى جوهرها إلا النقد
وما الناقد إلا نقيض المبدع ، إنه يحلل ويركب ، ولا يعرف شيئا عن الحمل
والولادة ، لذلك كان عمله مصطنعا لاهياة فيه ، وقائلا اذا ما اصطدم بالحياة
الحقة ، فكل هذه الأنظمة نشأت على الورق منسقة ولكنها سخيقة . ولا حياة
لها إلا على القرطاس . وكان مبدأ نشأتها فى عصر « روسو » و « كانت » على
هيئة المثاليات الفلسفية الضالة ، ثم تحولات فى القرن التاسع عشر إلى مؤسسات
عالية بأسلوب طبيعى فيزيق داروينى ، من أمثال علوم الاجتماع والاقتصاد
القومى وتدوين التاريخ على أساس مادى ، لتفنى فى القرن العشرين فى آداب
القصص ذات الغاية ، وبرامج الأحزاب .

ولكن على الإنسان ألا يخدع نفسه ، فكل من المثالية والمادية راسيونالى فى الصميم ، لا فرق فى ذلك بين كانت وفولتير أو هولباخ ، وبين نوفالس وبرودون ، وبين مثالى حروب التحرير وكارل ماركس ، وسبان فى ذلك الإدراك المادى للتاريخ والادراك المثالى ، وسواء أراى الإنسان معنى التاريخ وهدفه فى التقدم فى الأسلوب الصناعى وفى الحرية وفى سعادة الغالبية العظمى أم رآه فى ازدهار الفن والشعر والفكر ، فليس ثمة اختلاف ، فى كلتا الحالين لم يلاحظ الإنسان أن المصير فى التاريخ يتوقف على قوة أخرى أكثر فتوة إن تاريخ الإنسان هو تاريخ الحرب ، وليس هناك من بين المؤرخين الحقيقيين من ظفر بالخطوة لدى الجماهير . بل إن بسمارك من بين رجال السياسة لم ينل هذه الخطوة إلا بعد أن أصبح فى غنى عنها .

و ، الرومانتيكية ، كالمثالية والمادية تعبير عن الغرور الراسيونالى الناشئ عن الافتقار لإدراك معنى الحقيقة ، فكلها متصلة بعضها ببعض بأوثق رباط حتى إنه لمن الصعوبة أن نعرف الحد الفاصل بين هذه الاتجاهات لدى أى رومانتيكى سياسى أو اجتماعى ، وهكذا يتشكر رومانتيكى سرى فى دنثار كل مادى شهير .

قد يزدرى أحدهم عقل الآخر البارد السطحى المنظم ، على حين أن لديه هو نفسه النزعة لأن يقوم بما قام به غيره ومدىها بالوسائل عينها ، وبالغرور ذاته . فالرومانتيكية ليست دليلاً على الغرائز القوية ، ولكنها دليلاً العقل الضعيف الذى يمقت نفسه ، الطفلى النزعة ، فهذا الرجل الرومانتيكى يظل طفلاً طيلة حياته ، دون أن تكون لديه قوة النقد الذاتى ، وتقعد به الوان من الكبت الأبدى الناشئ عن شعوره الغامض بالضعف الذاتى ، فتسوقه الفكرة السقيمة ، فكرة تبديل المجتمع الذى يرى فيه إمعاناً فى الرجولة والسلامة

والتواضع إلى تبديله لا بالسيف والمسدس كما في روسيا بل بالكلام المعسول
والنظريات الشعرية . والويل لكل منهم إن لم يكن لديهم من الموهبة الفنية
ما يكفي على الأقل مقاومة العوز في قوة التشكيل ، وإنك لتجدهم في ضعفهم
وأنوثتهم لا يستطيعون أن يضعوا قصة عظيمة أو مأساة صارمة ، أو فلسفة
قوية ، وكل ما ينتجونه إنما هو غنائية غثة في إخراج لا روح فيه ، وأفكار
غريبة عن الحياة ، مجافيه لها إلى حد السخف .

كذلك كان الشبان الأزليون بعد عام ١٨١٥ في أرونتهم وقصبات تدخينهم
الألمانية العتيقة ، وكذلك كان « ياهن » و « أرنندت » بل كذلك كان « شتاين » الذي
لم يستطع كبح ميله الرومانتيكي للأنظمة العتيقة إلى مدى يسمح له بحسن خبرته
العملية في ميدان السياسة . وفي الحق ليس ثمة شك في بطولتهم ونبلمهم
وترحيبهم بالموت في ميدان الجهاد في أية لحظة . ولكنهم أسرفوا كل الأسراف
في التحدث عن الروح الألمانية .

ولذلك كانوا عقبة في سبيل المستقبل الحق لألمانيا . فهل بلغهم كيف انتحر
« فردريك ليست » العظيم عام ١٨٤٦ حينما لم يوفق إلى العثور على من يفهم
ويؤيد أهدافه الواقعية المتطلعة إلى الأمام . وهي بناء اقتصاد قومي ألماني ؟
وقد عاد اليوم هؤلاء الشبان الأبديون بالذات من جديد . في غير نضج
ولا خبرة ولا إرادة ، متكلمين كاتبين في نشاط ، متحمسين للحل والشارات
معتقدين اعتقاداً أعمى في أية نظرية . فهناك رومانتيكية اشتراكية للشيوعية
المتحمسة . ورومانتيكية سياسية تعتبر أرقام نتائج الانتخابات ونشوة الخطب
في الجماهير أفعالا . ورومانتيكية اقتصادية تجري وراء نظريات المال التي نشأت
في أدمغة مريضة من غير خبرة بالوضع الحقيقي للاقتصاد . فهؤلاء لا يشعرون
إلا كجماعة . لأنهم بجمعهم المتكاثرة يستطيعون إخراس شعورهم الغامض
بالضعف . وهذا ما يدعون به التغلب على الانفرادية . وهم كسائر الراسيوناليين

والرماثيين عاطفيون كأغاني الأزقة .

إن « العقد الاجتماعي » و « حقوق الإنسان » قد ظهرا في عصر السياسة ، أما « يريك » السياسي الحق ، فقد كان على النقيض من ذلك ، إذ أثبت أن قومه كانوا يطالبون بحقوقهم لا بصفقتهم أناسي^١ فحسب ، بل بصفقتهم شعبا إنجليزيا له مقوماته وخصائصه ، فكان ذلك منه تفكيرا عمليا وسياسيا لاراسيوناليا ناشئا عن انطلاق المشاعر من دون ضابط ، فهذه العاطفية الضارة التي تشيع في التيارات المذهبية لهذين القرنين مثل الليبرالية والشيوعية والسلبية ، وفي كل الخطب والثورات إنما هي وليدة عدم ضبط النفس التي حرمت تهذيب التقاليد القديمة الصارمة . إنها روح بورجوازية أو ديمقراطية بمعناها الازدرائي ، إنها تنظر إلى الأمور الإنسانية وإلى التاريخ وإلى المصير السياسي والاقتصادي نظرة ليس فيها اتساع الأفق الفكري ولا سمو النفس ، فكل ما يمثل العظمة والسيادة والتفوق بغيبض لديهم ، والبناء في نظرهم إنما هو الهبوط والتصاغر بكل إنتاج الحضارة والدولة والمجتمع إلى مستوى الطبقة الدنيا ، ذلك المستوى الذي لا يتفوق عليه شعور الحقير وإدراكه ، وهذا ما يسمونه اليوم شعبيا ، لأن الشعب لديهم لا يعني الأمة العضوية المشكلة على هيئة طبقات طبيعية ، وإنما يعني ذلك الشطر السطحي من المجتمع الفاقـد الصورة الذي ينشد فيه كل فرد أن يكون مساويا لغيره .

هذه السيادة للفكر الحضري تدنو اليوم من نهايتها ، كما يأخذ التشكك في الظهور كآخر لون لإدراك الأمور على حقيقتها ، وهو الشك الأساسي في معنى التأمل النظري وقيمه ، وفي مقدرته على فتح أى مغلق عن طريق النقد والتصور أو على تنفيذ أى شيء وإخراجه إلى حيز الوجود ، الشك الذي

يتمثل في الخبرة التاريخية والفيزيولوجية والنظرة النزيهة للحقائق الواقعة ،
والفراسة الخفية التي نعرف منها كيف كان الانسان وكيف أصبح لا كيف
ينبغي أن يكون ، والتفكير التاريخي الحق الذي يعلم فيما يعلم أن عصور النقد
المتوالية قد انتهت كلها إلى الفشل والخيبة ، وتبجيل الأمر الواقع في أحداث
العالم ، التي ستظل كما هي أسرار عميقة لا يمكن تفسيرها وإنما يمكن وصفها
فقط ، والتي لا يستطيع أن يخضعها له إلا رجال من جنس قوى يعتبرون
هم أنفسهم من الحقائق الواقعة في التاريخ لا البراجم والأنظمة .

هذه المعرفة التاريخية المتينة للأمور الواقعة كما طفقت تحصل في هذا
القرن لا تحتملها الطبائع الغضة التي لا ضابط لها ، فهي تمتعت من يحددها
وتدعوه متشائما ، ثم إن نزعة التشكك القوية التي تتصل بها نزعة ازدراء
الناس وهي من صفات كبار الفعاليين الذين لديهم حظ وافر من الفراسة -
إنها شيء يختلف تمام الاختلاف عن الشكاكية الخائفة الجزعة التي هي من
خصائص النفوس الصغيرة المجردة التي تخاف الحياة ، وتجن عن مواجهة الحقيقة .
إن السلم المنشود البعيد عن الخطر ، والرفاهية العريضة ، وجودهما
في الفكر لا في الواقع ، وعلى صخرة هذا الواقع الذي هو حقيقة التاريخ
تتحطم كل مثالية .

- ٣ -

أما فيما يختص بحالة العالم الراهنة ، فنحن جميعا نكاد نقع في خطر النظر
إليها نظرة خاطئة . فنذ الحرب الأمريكية الأهلية عام ١٨٦٥ والحرب الفرنسية
الألمانية عام ١٨٧٠ والعصر الفيكتوري دامت بين الشعوب البيضاء إلى

عام ١٩١٤ حالة غير عادية من الهدوء والأمن والكيان السلى المطرد التقدم الذى لا يكدر صفوه شيء من الهم ، وهى حالة من العبث الحصول على ما يماثلها فى قرن من قرون الزمان ، فمن أحس ذلك بنفسه أو سمع به عن طريق غيره فلا بد أن يعتبره أمرا عاديا ، ويرى فى الحوادث العاصفة الحاضرة أمرا مزعجا لهذه الحالة الطبيعية ، راجيا أن يستأنف الزمن فى نهاية الأمر تقدمه إلى الأمام . ولكن ذلك لن يكون ، ولن تتكرر هذه الفترة الزمنية على الإطلاق ، فالعوامل التى سببت هذا الهدوء الذى امتد فترة من الزمان لا يمكن أن تدوم على مدى الزمن - هى أولا : الحقيقة الفعلية بأن الجيوش العاملة المتواصلة النمو جعلت الحروب أمرا يستحيل تقدير نتائجه التى لا يجرؤ معها سياسى على إشعال نارها ، وثانيا : الحقيقة الفعلية بأن الاقتصاد الصناعى وجد نفسه فى حركة حمّية يتحتم انتهاءها سريعا لأنها قامت على أسس سريعة الفناء ، وأخيرا نشأت الحقيقة الثالثة ، وهى أنه بسبب هاتين الحقيقتين الفعليتين أصبحت مشكلات الزمن المستعصية الحل دائمة التأجيل والإحالة على الأبناء والأحفاد كيراث كله شر للأجيال المقبلة ، وذلك إلى أن يكف الإنسان عن الاعتقاد فى وجودها برغم دوام تهديدها بالتوتر المتواصل من عالم المستقبل .

وقليل هؤلاء الذين يطيقون حربا طويلة دون أن تنحل نفوسهم ، كما أن السلم الطويل لا يحتمله أحد ، فلقد جعل السلم الطويل الذى امتد من عام ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ البيض كلهم متخمين شرهين نزقين عاجزين عن تحمل صدمات الشقاء . ونرى احدى نتائج ذلك فى الآراء والمطالب المشالية التى ينادى بها زعماء الجماهير ، وهى مطالب موجهة الى العصر والدول والأحزاب وإلى « غيرهم » قبل كل شيء ، دون أن يتنزلوا على الأقل إلى تذكر حدود الممكن ،

حدود الواجبات والخدمات والرضا والقناعة .

إن ذلك السلم المسرف في أمدّه ، القائم على أرض دائمة الاختلاج بسبب الهياج المتواصل ميراث مرعب ، ولا يكاد يوجد سياسى أو حزب أو مفكر يرى في نفسه ما يأمّن معه إن قال الحقيقة ، فكلهم يكذبون ، ويغنون على نعمة الغموز المدلل الجاهل الذى يريد الغد معادلا للأمس إن لم يكن خيرا منه ، وكان الواجب على الساسة وزعماء الاقتصاد أن يكونوا أوفر معرفة بالحقيقة المرعبة ولكن ألدينا أحد من هؤلاء الزعماء اليوم ؟ إن هذه التفاؤلية الجبانة الغادرة تعلن كل يوم عودة الانتعاش والسعادة إذا دفع نفر من المضاربين الصعوردين بأسعار « البورصة » إلى الارتفاع ، وتتحدث عن زوال البطالة إذا توفر العمل لمائة من الرجال ، وأدهى من ذلك أن يعانون الوصول إلى التفاهم بين الشعوب إذا اتخذت جمعية الأمم - وهى تلك الجماعة من المصطفين الذين ينعمون على ضفاف بحيرة « جنيفا » - أى قرار من تلك القرارات الجسوفاء . وفى كل المجتمعات والصحف تدوى كلمة « أزمة » كتعبير عن إزعاج عابر للطمانينة ، وهم بذلك يضللون أنفسهم ويخدعونها عن الحقيقة المرة ، وهى أن الأمر أمر كارثة لا يحسد مداها ، كارثة الصورة الطبيعية التى تكتمل فيها التطورات التاريخية الجسيمة .

ألا إننا نعيش فى عصر جبار ، هو أقوى وأشد ما حييته الحضارة الغربية وما ستحياء ، إنه نفس المرحلة الزمنية التى حييتها الحضارة القديمة من كانا (١) إلى أكتيوم (٢) والتى توهجت فيها أسماء هانيبال وسيبيو وجراكس

(1) Canna المعركة التى انتصر فيها هانيبال على الرومان عام ٢١٦ ق م .

(2) Aktium المعركة البحرية التى انتصر فيها أغسطس على انطونيوس وكليوباترة ٣١

وماريوس وسلا وقيصر .

لم تكن الحرب العالمية الأولى إلا البرق الأول والرعد الأول للسحابة المشحونة التي تمر في سماء هذا القرن. زاخرة بالمصير ، وستنقلب اليوم صورة العالم من أساسها كما انقلبت في بدء الإمبراطورية الرومانية من دون أن تعباً بإرادة الأغلبية ، ورغباتها ، ومن غير اكتراث لعدد الضحايا التي يتطلبها مثل هذا الانقلاب الحاسم ، ولكن - من يفقه ذلك ؟ ومن يطيقه ؟ ومن يشعر بسعادة الانفجار في قلبه ؟ هذا العصر جبار وعلى قدر عظمتة وجبروته تكون ضآلة من يعيشون فيه ، فلقد أضع الناس من نفوسهم القدرة على تحمل أية مأساة سواء أكانت على خشبة المسرح أم في الحياة الواقعة ، إنهم ينشدون « النهاية السعيدة » الشائعة في القصص الجوفاء المسلية على ما هي عليه من حقارة وتفاهة ، ولكن المصير الذي رمى بهم إلى هذا القرن يمسك بتلابيبهم ويقسرم على ما لا بد من وقوعه أحبوا ذلك أو كرهوه .

لقد انتهى عهد الأمن الجبان الذي ساد الناس في نهاية القرن الماضي وارتدت إلى مكانها الحياة المليئة بالأخطار ، الحياة التي تمثل التاريخ خير تمثيل . لقد أصبح كل شيء في تدهور ، فلا يعتد الآن إلا بالرجل الذي يدرك حقائق الأشياء بشجاعة ، ويقدم على عمل شيء ما . إن الوقت آت لا ريب فيه بل إنه قد حل فعلاً ، هذا الوقت الذي لا يعبأ بذوى النفوس الغضة والمثاليات الواهنة ، وهامى ذى البربرية العريقة في القدم تستيقظ ثانية بعد أن اختفت قرونا طويلة وراء ستار الصورة الصارمة لحضارة عالية غربت شمسها ثم أعقبتها المدنية ، تلك البربرية التي تفرح بالقوة الذاتية وتزدرى عصر التفكير المشبع بالأدب ، وتمجد الغريزة المتينة للجنس ، وترغب في حياة

غير تلك الحياة الراضية في غمرة الكتب المقروءة التي تتغنى بالمشائيات .
تلك البربرية التي لا يزال قدر كاف منها حيا في قلوب أقوام في أوروبا الغربية ،
وفي برارى أمريكا الشمالية ، وفي فسيح السهول في شرق آسيا الشمالية حيث
ينمو ويتزعرع غزاة العالم .

أهذه موجة من النشأوم ، إن من يحس الموقف كذلك لابد له من
الكذب التقي الورع ، أو أن يستتر بنقاب المثل العليا ، ليقى نفسه مواجهة
الحقيقة ويتحرر منها ، ومن المحتمل أن ذلك هو عين ما تفعله أكثر الشعوب
البيضاء في هذا القرن وربما تفعله في القرن التالى .

لقد كان أسلافهم في عصر هجرة الشعوب والحروب الصليبية صنفا آخر ،
إذ كانوا يزدرون ذلك على أنه جبن ، وهو نفس الجبن أمام الحياة الذى كان
في الحضارة الهندية المعاصرة لهم ، والذى نشأت عنه البوذية والمذاهب
المتفرعة عنها التي أخذت في الانتشار بيننا كبدعة ، ومن يدرى فرما تكون
هناك ديانة متأخرة على وشك التهيؤ في الحضارة الغربية ، قد تتدثر بدثار
المسيحية أو غيرها من الديانات ؟

• فالتجديد الدينى ، الذى يتلو عصر الراسيوناالية كفلسفة دينوية يحوى
في طياته إمكان نشوء أديان جديدة ، فإن النفوس التي شاخت واعتراها
الجهل والكلال تنشده الهرب من وجه هذا العصر إلى رحمتى من يهز لها
أرجوحة النسيان عن طريق معجزات التعاليم والعادات على وجه أحسن مما
تستطيعه الكنائس المسيحية .

إن روح الإيمان الصافى قد استيقظت من جديد ، ولكن عمق الألم
الدينى وهو شعور يبلغ في قدمه قدم التأمل في الدنيا نفسها ، أى الشكوى

من سخر التاريخ ومن قسوة الحياة - لا يأتي عن طريق الأمور في ذاتها ولكن عن طريق التفكير المريض فيها ، إنه الحكم القاتل على قيمة النفس الذاتية وقوتها ، ولا يقتضى الأمر أن ترتوى النظرة الدنيوية العميقة بالدموع . يوجد شعور دنيوى « نورديكى » من إنجلترا إلى اليابان وهو ملء بالفرح بثقل المصير الإنسانى بالذات ، ينازله الإنسان لينتصر ، عليه ويهلك الإنسان مزهوا فى سبيله إذا تبين له أنه أقوى من إرادته الذاتية تلك هى النظرة ، والشعور الذى يشيع فى قصص المهاجرات القديمة التى تتحدث عن العراك بين الكورو والباندو ، ولدى هومير وبنسدار وأشيل ، وفى شعر البطولة الألمانية ، ولدى شكسبير ، وفى كثير من أغاني الشوكنج الصينية ، وفى محيط الساموراي اليابانى ، إنها النظرة المليئة بروح المأساة التى لم تخمد جذونها ، والتى سوف تزدهر من جديد فى المستقبل كما ازدهرت فى الحرب العالمية ، لذلك كان فحول الشعراء فى الثقافات النوردىكية ميالين إلى المأساة كما كانت المأساة بعد مرحلة الشعر القصصى والملحمات أعمق صورة لهذه التشاؤمية الباسلة ، فكل من لا يستطيع أن تحيا فى نفسه المأساة أو يطبقها فإنه لا يفوز بأى نصيب فى عالم الفعال الدنيوية ، وكل من لا يحيا التاريخ فى نفسه كما هو فى الواقع أى مأسويا (١) ومشجعا بالمصير ، وخاليا من المعنى والغاية والأخلاق كما يراها عباد النفعية فإنه لا يقدر على صنع التاريخ ، وهنا يفترق الروح الخلقى المتفوق للوجود الإنسانى عن المنحط منه .

إن حياة الفرد لا تهم أحدا غيره ، فأهم ما فى الموقف إنما هو تخيره بين الهرب بها من وجه التاريخ أو التضحية بها على مذبحة .

إن التاريخ لا يعبأ بمنطق البشر ، وإن عاصفة هوجاء ، أو زلزالا مدمرا

(١) منسوب إلى المأساة

أو سيلا من حمم البراكين ، أو مثال هذه الظواهر الطبيعية مما يقضى على الحياة قضاء غاشما - لعل أقرب صلة بالحوادث البدائية المرتجلة في تاريخ العلم . وعلى الرغم من أن الشعوب تهلك والمدن القديمة في الحضارات الهرمة تحترق أو تتحول إلى ركام فإن ذلك لا يعوق سير التاريخ ، فالأرض لا تفتأ تدور حول الشمس في هدوء ، ولا تزال الكواكب تجري كعادتها في أفلاكها .

إن الإنسان حيوان مفترس ، وهذا رأي الندي لا أكف عن ترديده فكل دعاة الفضيلة وأخلاقي الاشتراكية الذين يحاولون أن يكونوا على غير هذه الوحشية ليسوا إلا وحوشا نزعت أنيابها وقلبت أظفارها ، فهم يمتقون غيرهم لأنهم لا يقدرّون على ما يقدر عليه هؤلاء من هجوم ، لقد سلبوا القوة التي تساعدهم على قراءة كتاب عن الحروب ، ولكنهم يهرعون جماعات إلى الشوارع إذا ما حل الشر كي يثيروا أعصابهم بمنظر السماء والآلام ، حتى إذا ما عجزوا عن ذلك أشبعوا هذه الرغبة على لوحة الخيالة أو فوق صفحات المجلات المصورة .

إني إذا دعوت الإنسان حيوانا مفترسا فنذا الندي أهنت بهذا التشبيه ؟ آ لا إنسان أم الحيوان ؟ إني لأرى في الحيوانات المفترسة العظيمة مخلوقات نبيلة كاملة النوع ، وبريئة من نفاق الإنسان الناشئ عن الضعف .

يصرخ القوم قائلين : « لن تعود حرب بعد اليوم ، ولكنهم يرغبون في حرب الطبقات . إنهم يهتاجون إذا ما قتل مجرم فاسق ، ولكنهم يلتذون خفية وفي أعماق نفوسهم إذا علموا بموت خصم سياسي .

أين اعتراضهم على مذابح البولشفيك ؟ إن الكفاح هو الحقيقة الفعلية

العريقة فى الحياة ، بل هو الحياة نفسها ، ولن ينجح أحد حتى أحقر السياسيين
فى أن يستأصل من نفسه لذة هذا الكفاح ، فهو يتمنى - ولو مذهيبا على
الأقل - محاربة كل خصوم السلمية وإبادتهم .

وكما توغلت خطانا فى قيصرية العالم الفاوستى زاد جلاء الحد الفاصل بين
من قدر له أن يكون ذا تفاعلة ومن كتب له أن يكون موضوعا
فى مجرى الحوادث التاريخية .

لقد انتهى ركب المثاليين الكتيب الذى خب خلال هذه القرون ولم يخلف
وراءه إلا جبالا من المطبوعات ، وسيحل عهد القياصرة ، فلقد استردت
السياسة العليا حقوقها الأزلية : السياسة العليا كفن الممكن بعيدا عن كل
الأنظمة والمذاهب ، وإحكام توجيه الوقائع فى خبرة العارف بالأمور ،
وحكم العالم بأسلوب الفارس القدير الذى يعتلى صهوة الجواد فى ثبات ، ويمسك
الزمام فى قوة ويطبق بساقيه فى شدة .

لذلك كان كل ما أقوم به هنا أن أبين الوضع التاريخى لألمانيا والعالم
والأمر الحتم الذى قضى بظهور هذا الوضع من بطون القرون الغابرة ،
والأمر الحتم الذى يقضى باتجاهه إلى أوضاع وحلول معينة .
هذا هو القضاء ، قد ينكره الإنسان ، ولكنه لا ينكر إلا نفسه .

الحروب والدول العالمية

- ٤ -

إن الأزمة العالمية في هذه السنين تفهم - كما يدل عليها اسمها - في سهولة ويسر طبقا لموقف الباحث فيها ومصالحه والأفق الذي يحيط به ، فهي تفهم على أنها أزمة في الإنتاج والعطلة والنقد وديون الحرب والتعويضات والسياسة الخارجية والداخلية ، بل إنها تفهم على أنها أثر من آثار الحرب العظمى التي يرى الناس أنه كان في الإمكان تجنبها ، لو أن الساسة كانوا أكثر نزاهة وأعظم حذقا .

ويتحدث الناس عن إرادة الحرب وتبعتها ، وأنظارهم متجهة إلى ألمانيا والواقع أنه لو استطاع أرفولسكى وبوانكاريه وغمراى (١) أن يستشفوا ما آلت إليه بلادهم الآن لأقلعوا يومئذ عن بلوغ مآربهم السياسى الذى قضى بالحرب إتماما لحصر ألمانيا ، تلك الحرب التي كان استهلالها تلك العمليات الحربية التي قامت عام ١٩١١ في طرابلس الغرب وعام ١٩١٢ في البلقان . ولكن ربما كان كل أثر لهذا الإدراك أن يـُرجل التفريغ العنيف لهذا التوتر عقدا آخر ، هذا التوتر الذى لم يكن مقتصرًا على الناحية السياسية وأن توزع الدول توزيعا مختلفا بعض الاختلاف وأقل سخفا مما حصل .

(١) وزراء خارجية روسيا وفرنسا وانجلترا على الترتيب عام ١٩١٤ يوم اشتعال نار الحرب العالمية الأولى

إن الوقائع أقوى من الناس دائما ، كما أن دائرة الإمكان حتى للسياسي
التقدير أضيق بكثير مما يتصورها الرجل العادي ، فلو كان هناك أى تغيير
محتمل لما تعدى صورة الكارثة وتوافقها الزمنى ، أما الكارثة نفسها فكانت
واقعة لا محالة ، لأنها كانت النهاية المحتومة لقرن من التطور فى الغرب يسعى
إلى الكارثة من عهد نابليون سعيًا حثيثًا متصلًا .

لقد دخلنا فى عصر الحروب العالمية الذى بدأ فى القرن التاسع عشر ،
وسوف يمتد فى القرن الحالى وربما يتخطاه إلى ما يليه . إنه الانتقال بالوضع
الدولى الخاص بالقرن الثامن عشر إلى الإمبراطورية العالمية ، إنه يوازى
القرنين الرهيبين بين معركتى كانا وأكتيوم ، وهى الفترة التى انتقلت بالعالم
القديم من نظام الدول الهيلينى بما فى ذلك روما وقرطاجنة إلى الامبراطورية
الرومانية ، وكما شملت هذه الفترة ميدان الحضارة القديمة وما تفرع عنها أى
عالم البحر الأبيض المتوسط ، فسيشمل نفس المصير الكرة الأرضية جمعاء
وإلى أمد غير معروف .

إن الامبراطورية فكرة ، سواء أدرك حاملوها والمنفذون لها ذلك أم
لم يدركوه ؟ وقد تظل فى حالتنا هذه بعيدة عن التحقيق ، أو قد تعترضها
وتتشابك معها أفكار أخرى تستمد وجودها من خارج عالم الشعوب البيضاء ،
ولكنها ستبقى كنزعة لصورة تاريخية (عظمى) ممثلة فى كل مايقع الآن .

إننا اليوم نعيش فيما « بين العصرين » ، ولقد كان العالم الدولى الغربى
فى القرن الثامن عشر بناء على «صورة» ذات طراز محكم ، كسائر ما انتجه
فى الموسيقى والرياضة العليا ، كان ساميا فى صورته ، لا فى ذاته فحسب ، بل
فى اعماله وتياراته الفكرية كذلك ، إذ سيطرت عليه فى كل ناحية تقاليد

قديمة راسخة من قواعد متواضع عليها للقيام بالحكم وللمعارضة وللعلاقات السياسية والحربية بين الدول ، وللنسليم بالهزيمة ، وألوان المطالبة والقبول في عقد الصلح . لقد كان النبيل لا يزال يلعب دوره غير منازع ، وكان كل شيء يجري طبقا لأصول الرسميات وفي رقة ولين جانب كما يقع في المبارزة .

ولقد أخذت كلمة « أوروبا » تشيع في اللغة المتداولة بين الشعوب الغربية ومن ثم - وبطريقة غير ملحوظة كما هي العادة - شاعت في التفكير السياسي العملي والنزعة التاريخية ، ولم يكن هذا الاسم قبل ذلك إلا اصطلاحا في علم الجغرافيا نما مع تطور المصنوعات منذ كشف أمريكا .

وما يجدر ذكره أن الإمبراطورية التركية وهي في ذلك الوقت تعتبر دولة كبيرة تمتلك كل البلقان وبعض أجزاء من روسيا الجنوبية لم تكن بحكم السليقة تعد من أوروبا ، كما أن روسيا نفسها كانت تعد بصفة أساسية حكومة بطرسبورج فقط . فكم من بين ساسة الغرب في ذلك الأوان من كان على علم بأستراخان ونجني نوفجورود أوحى بموسكو ؟ ومن منهم كان يعدها ويحسبها من أوروبا ؟ لقد كانت حدود الحضارة الغربية على الدوام تنتهي حيث كان يقف الاستعمار الألماني .

ولقد كانت ألمانيا في أوروبا بمثابة البلد المتوسط لا كدولة بل كساحة حرية لدول حقيقية ، فبالدماء الألمانية غالبا فصل فيمن يمتلك الهند وجنوب إفريقيا وشمال أمريكا . وفي الشرق قامت روسيا والنمسا وتركيا ، وفي الغرب أسبانيا وفرنسا هاتان الإمبراطوريتان الغارتان اللتان اغتصبت منهما إنجلترا الصدارة إذ تم ذلك بالنسبة لأسبانيا بصفة قاطعة عام ١٧١٣ وبالنسبة لفرنسا منذ عام ١٧٦٣ ، وبذلك تزعمت إنجلترا هذا النظام لا على أنها دولة بل كطراز

كما أصبحت على جانب عظيم من الثراء بالنسبة إلى القارة . وقد استخدمت ثروتها هذه في خدمة مصالحها ، إذ سخرت جيوشا مأجورة وبحارة ودولا بأسرها تلقى بأنفسها في ساحة الوغى ذودا عن الجزيرة في مقابل ما تمنح من إعانات .

وفي آخر القرن الثامن عشر كانت أسبانيا قد نزلت عن فكرة أن تكون دولة عظيمة ، وكانت فرنسا تخطو دائرة نحو هذا المصير ، فكلاهما شعبان قد شاخا وهرما واستنفدا كل مجهودهما ، ينزعان إلى الزهو ولكنهما مجهدان ، ينظران إلى الماضي في غير طموح حق إلى القيام بدور إبداعي في المستقبل . فلو نجحت خطط «ميرابو» عام ١٧٨٩ لنشأت في فرنسا ملكية دستورية ثابتة إلى حد مقبول تجعل ههما إشباع النزعة إلى الرغبة في الريع الثابت وهي من خصائص البرجوازية والزارعين . وفي ظل حكومة الإدارة كانت كل الظروف تساعد وتدعو إلى الرضا في سكون عن أى لون من ألوان الحكم يكفل الهدوء في الداخل والخارج بعد أن سئمت كل مثالية وتحلت عنها . وهنا أتى ذلك الإيطالى « نابليون » واختار « باريز » قاعدة يهدف منها إلى غايات سلطانه ، وخلق في جيوشه طراز « الفرنسى الأخير » الذى احتفظ من بعده لمدة قرن من الزمان بفرنسا كدولة عظمى بأسلة ، أنيقة ، متباهية خشنة ، تلتذ القتل والنهب والتدمير تدفعها سورة حية لا هدف لها إلا إشباع السورة نفسها ، وبذلك لم تأت هذه الانتصارات على الرغم من فداحة ثمنها وكثرة ما أريق فيها من الدماء بأى أثر باق خالد ، وكل ما أتت به هو الشهرة ولم تظفر بالشرف ، ففي جوهر الأمر كان ذلك الحكم مستندا إلى القوة لا إلى الأغلبية ، المتمثلة في جماعة أصحاب الريع الثابت والعاديين من الناس

وبذلك ظهر في الميدان السياسي مكان الصور السامية القديمة صور ديمقراطية خالصة ، أى من الأمة ككتلة عضوية ، وظهرت الحرب في صورة تعبئة للجموع ، وأصبحت المعركة الحربية إسرافا في إراقة الدماء البشرية ومعاهدات الصلح الوحشية ، وبرزت « دبلوماسية » كالحيل الخاصة بالمحامين هذا في حين أن إنجلترا اضطرت إلى الاستعانة بأوربا كلها وبما تملك من أسباب الثروة لتقضى على صنع رجل واحد هو نابليون ، وقد ظل هذا الرجل حيا كفكرة على الرغم من ذلك ، وفي مؤتمر « فيينا » انتصر القرن الثامن عشر من جديد على العصر الحديث . وأطلق على ما حصل منذ ذلك الوقت لفظ « المحافظ » .

على أن هذا النصر كان وهميا ، ظل نجاحه موضع تساؤل طيلة القرن كله . ولقد نظر « مترنخ » إلى هذا الأمر نظرة ثاقبة استشف بها تلك الحقيقة ، فقال في وضوح قاس : « ان أعظم ما أحفظ به من رأى سرى هو أن أوربا القديمة في بدء نهايتها ، وسأعرف كيف أودى واجبي مصمما على الغروب معها ، أما أوربا الجديدة فإنها في دور التكرين ، وستحل الفوضى بين النهاية والبداية ، ولقد ظهر نظام التوازن الدولى ليؤخر ظهور هذه الفوضى اطول زمن ممكن ، فبدىء بالحلف المقدس بين النمسا وبروسيا والروسيا ، فأبرمت المعاهدات ، وسُعى وراء الحلف وعقدت المؤتمرات لبذل آخر مجهود لمنع حصول أى ارتجاج في أوربا السياسية ، التى لم تكن تستطيع احتمال هذا الارتجاج ، وإذا ما شبت على الرغم من ذلك حرب بين آحاد الدول اسرع المحايدين في الحال الى التسليح صونا للتوازن عند عقد الصلح على الرغم من التغيرات الضئيلة في الحدود ، وخير مثل لذلك حرب القرم . على انه قد

نجح بناء واحد جديد ، ذلك هو ألمانيا التي خلقها بسمارك ، إذ أصبحت دولة عظمى متمسكة بنظامها القديم ، وفي هذه الحقيقة الواقعة البسيطة توجد نواة المأساة التي لم يكن ثمة ما يحول دونها . فإنه لما كان بسمارك قائما على رأس الحكم لم يتغير شيء في صورة أوروبا السياسية جمعا إذ كانت مشغلة بأمورها دون أن يتدخل أحد في شئونها ، وكانت الدول العالمية دولا أوربية ، تملكها الجزع من توقع انتهاء هذه الحالة التي سماها بسمارك « كابوس التكتلات » ،

وعلى الرغم من ذلك كان الوقت في عام ١٨٧٨ ناضجا للحرب العالمية الأولى ، فلقد كان الروس على أبواب القسطنطينية ، وانكثرتهم بالتدخل وكذلك فرنسا والنمسا ، وكان مقدرًا للحرب أن يمتد هيبها في الحال إلى آسيا وإفريقية وربما إلى أمريكا بعد أن برزت مسائل تهديد الهند من تركستان والسيادة على مصر وقنال السويس ، والمشكلات الصينية ، ومن خلفها التنافس البادى بين لندن ونيويورك التي لم تكن قد نسيت ميول الإنجليز وعطفهم على الولايات الجنوبية في حرب الانفصال ، ولم يؤجل الفصل في المسائل الدولية العظمى إلا نبوغ بسمارك الشخصى ، ولكن الثمن الذى دفع في سبيل ذلك كان أن حلت المنافسة في النسلح لحروب مقبلة محل الحروب الحقيقية ، وهو ضرب جديد من الحرب يقوم على تبادل التفوق في عدد الجنود والسلاح ، وعلى التفوق في الاختراعات ورصد الأموال المقررة للتصرف فيها لحساب الحرب ، وكل هذا قد زاد التوتر إلى درجة لا تطاق منذ ذلك الحين . هذا على حين بدأت اليابان تحت حكم « موتسوهيتو » ، وفي غفلة تامة من أوروبا تتطور إلى دولة عظمى من الطراز الأوربى ذات جيش قوى وفن حربى وصناعة تسليح ، وقد اكتسبت الولايات المتحدة الأمريكية العبرة من الحرب

الأهلية من عام ١٨٦١ إلى عام ١٨٦٥ التي خضع فيها العنصر الزراعى لعنصر
الفحم والصناعة والمصارف المالية والأسواق ، وبذلك بدأ «الدولار»
يلعب دوره العالمى .

وقد أخذ سقوط هذا النظام الدولى يتضح للعيان فى جلاء عظيم إلا لهُؤلاء
لغاده من الساسة الذين لم يبق منهم شخص له خطره وقيمته ، فاستنفدوا
حيويتهم فى القيام بمختلف الألوان المألوفة من التكتل والتحالف والتفاهم
معتمدين جميعا على الهدوء الخارجى المتمثل فى الجيوش العاملة ، وغير نالزين
إلى المستقبل إلا كحاضر ممتد ، وذلك على حين تتجاوب فى جميع مدن أوربا
وشمال أمريكا صيحات النصر بتقدم الإنسانية ، التى يتجلى يوما بعد يوم فى
امتداد الخطوط الحديدية الطويلة وفى المقالات الافتتاحية فى الصحف ، وفى
تلك المداخل السامقة التى تشق الجو يوما بعد يوم معلنة قيام آلاف المصانع
وفى أرقام الانتخابات وفى كثافة المصفحات والمدركات ، وفى الحزم الضخمة
من أوراق النقد التى تكدست فى خزائن الأموال ، هذه الصيحات أضاعت
فى خلالها قصف المدافع الأمريكية التى أرسلت حممها إلى السفن الأسبانية
فى مانىلا وهافانا بل إنها طغت على جلجلة المدافع اليابانية الجديدة ذات الزاوية
المرتفعة التى أثبت بها هؤلاء الضمير الذين دللتهم وأعجبت بهم أوربا مبلغ
ضعف الدعامات التى يستند إليها تفوق أوربا الصناعى ، والتى أعادوا بها فى
«توكيد شديد» إلى ذاكرة روسيا اللطلة على حدودها الغربية تبعيتها الآسيوية .
ومما يكن من أمر فقد وجدت روسيا حينئذ سبيلا لشغل نفسها «بأوربا»
إذ أصبح من الثابت أن دولة النمسا والمجر ان تعيش أو تعتبر قائمة بعد موت
الإمبراطور «فرنسيس يوسف» ، وأصبح مدار النساؤل : أى وضع سيكون

عليه النظام الجديد لهذه البقاع الفسيحة ؟ وهل يستقر الوضع من غير حرب ؟
فقد كان هناك إلى جانب الخطط والميول المختلفة المتضاربة في داخل
الإمبراطورية الطونية مطامع الدول المجاورة ، ثم ماتتوقعه الدول البعيدة
التي كانت تنشأ صداما يقربها من أهدافها في أصقاع أخرى ، وهكذا انتهى
النظام الدولي لأوروبا كوحدة وأصبحت الحرب المرجأة من عام ١٨٧٨ تنذر
باندلاع هبها لنفس المشكلات وفي ذات المكان . وذلك ما حدث في عام ١٩١٤ .
وبدأ في نفس الوقت ذلك النظام في الانتقال إلى صورة لا تزال قائمة
إلى اليوم وتعيد إلى الذكرى حالة الدنيا في العصر الهيليني المتأخر والقرون
الرومانية عندما قامت حينئذ - حول دول المدن الإغريقية في الوسط بما فيها
روما وقرطاجة - دائرة الأقاليم التي كانت تغذيها بالجيش والاموال لتفصل
فيما بينها ، فنشأ وقتذاك عن تركة الإسكندر الأكبر مقدونيا وسوريا ومصر ،
وعن قرطاجة إفريقية وأسبانيا ، وفتحت روما شمال إيطاليا وجنوبها وضم
قيصر بلاد الغال ، وقامت الحروب بسبب التنافس على من ينظم الإمبراطورية
المقبلة ويحكمها ، بادئة بحرب هانيال وسيبيو ومنتبهة بما كان بين
أنطونيوس وأكتافيوس ، وكما قامت الحرب في الماضي معتمدة على موارد
الأقاليم المجاورة العظيمة ، تطورت الأمور في الأعوام السابقة لعام ١٩١٤
إذ عدت من الدول العظيمة تلك الدولة التي لها من الجنود مئات الآلاف
تحت السلاح في أوروبا والتي لها من الموارد والاموال ما تستطيع به أن تضاعف
هذا العدد عشرات المرات في ساعة يحد الجدد وفي زمن محدود ، والتي تملك
من وراء ذلك كله في القارات الأخرى بقاعا فسيحة تعتبر بمثابة دعامة للثروة
أو قوة حربية تبعاً لذلك بما فيها من قواعد للأساطيل وجنود المستعمرات

والسكان الذين ينتجون المواد الأولية والمستهلكين للمنتجات . ذلك كان إلى حد ما الوضع الراهن للإمبراطورية الإنجليزية ، ولغرب إفريقية الفرنسية ، وآسيا الروسية . في ذات الوقت الذي قضى فيه ضيق الإدراك الذي أصاب الساسة والأحزاب الألمانية بضياغ الفرصة على ألمانيا عشرات من السنين لبناء إمبراطورية ألمانية استعمارية في وسط إفريقية تكون مصدر قوة في حالة الحرب وتقضى على احتمال العزلة التامة فيما وراء البحار . ونشأت عن التنافس في تقسيم ما بقي من الدنيا إلى مناطق نفوذ ومصالح - تحرشات بالغة بين روسيا وإنجلترا في فارس وخليج تشيلي ، وبين إنجلترا وفرنسا في فاشودا وبين فرنسا وألمانيا في مراکش وبين كل هذه الدول في الصين .

ففي كل مكان كان ثمة ما يدعو إلى أن حرباً عظيمة على وشك النشوب ، توزع فيها الخصومة توزيعاً مختلفاً فتكون بين روسيا وفرنسا من جانب وإنجلترا واليابان من الجانب الآخر ، وذلك في حادثة فاشودا وفي الصدام الروسي الياباني ، إلى أن تمخض الموقف في عام ١٩١٤ عن وضع غاية في السخف ، فكان ذلك هو المحاولة الأخيرة للفصل عن طريق الحرب في المسائل العظمى المعقدة من زمن بعيد على أرض ألمانيا عن طريق ضرب الحصار عليها كدولة متوسطة بين أنحاء العالم ، ولقد كان هذا وضعاً سخيفاً في هدفه وفي مبادئه ولو وفقت ألمانيا حينئذ إلى عقد صلح مبكر منفرد مع روسيا - وكان ذلك يؤدي حتماً إلى انضمام روسيا إلى جانب دول الوسط - لأدى ذلك إلى أن تتخذ الحرب في الحال وضعاً وأهدافاً مغايرة كل المغايرة ، ونهاية متباينة كل التباين وبسبب ذلك الوضع كان من الحتم أن تنتهي الحرب بفشل محقق لأن المسائل الرئيسية لا تزال إلى اليوم من غير حل كما كانت منذ القدم ،

إذ ما كان يتأق ذلك عن طريق انضمام خصوم طبيعيين بعضهم إلى بعض كإنجلترا إلى روسيا ، وكاليابان إلى أمريكا .

وهكذا كانت تلك الحرب نهاية كل التقاليد المتصلة بالسياسة العظمى والتي كان بسمارك آخر من مثلها ، فلم يكن بين السياسة الحقراء من يفهم واجبات مركزه وموقف بلاده التاريخي ، وكمن من سياسى أقر بعد انتهائها أنه انساق فى تيار الحوادث على غير هدى من دون أن يبدى أى مقاومة ، وهكذا انتهت أوروبا ، حقيقة واقعة فى غباء وتبذل .

فمن ياترى كان المنتصر ؟ ومن كان الخذول ؟ لقد اعتقد الناس فى عام ١٩١٨ أنهم كانوا يعلمون ذلك ، وكانت فرنسا على طريققتها الخاصة فى إدراك الأمور - مستمسكة بفكره الانتقام ، تلك الفكرة التى تعتبر آخر فكرة لوجودها السياسى كدولة عظمى . فهل تحققت هنا فى ميدان السياسة العالمى تلك القصة المأخوذة من أقصوصة كلايست وعنوانها « المبارزة (١) » ، ثم أكانت أوربة هى الخذولة أم قوى التقاليد ؟ لقد نشأ فى الواقع وضع جديد للعالم كأساس لأنواع الفصل المقبلة التى سوف تنطلق بقوة رهيبه . لقد استردت آسيا روسيا وضمته إلى حظيرتها ، وأصبح موضع السؤال الآن ألا يزال مركز الإمبراطورية البريطانية قائما فى أوروبا ؟ فما بقى من أوروبا - بعد أن خرجت منها روسيا - يقع بين آسيا وأمريكا ، أى بين روسيا واليابان فى الشرق ، وبين أمريكا الشمالية والدومنيون الإنجليزى فى الغرب

(١) Von Kleist الأديب الألمانى الكبير من كبار الرومانتيكيين مات عام ١٨١١

وقصته هذه تدور حول جريمة حدثت فى القرون الوسطى بين جماعة من الأشراف وظلت غامضة إلى النهاية حتى كاد البريء يؤخذ فيها بجريرة المذنب

وأصبح قوامه اليوم متمثلاً بصفة أساسية في ألمانيا التي استردت مكانتها القديمة كدولة تخوم ، وفي إيطاليا التي ستظل قوة طالما بقي موسوليني على قيد الحياة ، والتي يحتمل أن تكون أساساً أقوى لدولة عالمية حقة في البحر الأبيض المتوسط ، ثم في فرنسا التي عادت تنظر إلى نفسها من جديد كسيادة لأوربا ، وتنظر إلى عصبة الأمم في جنيف وبمجموعة الدول في الجنوب الشرقي لأوربا كخدم لمصالحها السياسية .

ولكن ربما كانت كل هذه المظاهر مظاهر عابرة ، فانهيار الأوضاع السياسية في العالم يخطو سريعا إلى الأمام ، وليس ثمة من يستطيع أن يستشف ما سيؤول إليه مضور آسيا وإفريقية بل أمريكا بعد بضعة عشرات من السنين .

- ٥ -

إن تاريخ الإنسانية في عصر الحضارات المتقدمة إنما هو تاريخ القوى السياسية الذي يتخذ من الحرب صورة له ، ويشمل الحرب والسلم جميعا ، فالسلم ليس إلا امتدادا للحرب بوسائل أخرى : كمحاولة المخذول التخلص من نتائجها بالمعاهدات ، ومحاولة المنتصر أن يحافظ على هذه النتائج . وما الدولة إلا تهيؤ لوحدة قومية تهذبها الدولة وتعدّها لحروب حقة محتملة ، فإن كانت صورتها وتهيؤها على جانب عظيم من القوة ، كان لها قيمة حرب كسبتها من غير التجاء إلى استعمال السلاح ، أى بمحض امتلاك القوة ، أما إذا كانت الصورة على شيء من الضعف ، فإنها تتخذ مظهر هزيمة مطردة في علاقاتها الدولية .

إن الدول محض وحدات سياسية لقوة متجهة إلى الخارج ، منفصلة
عن وحدات الجنس أو اللغة أو الدين ، فهي تسمو فوق كل ذلك ، حتى إنها
إذا طابقت هذه الوحدات أو تشابكت معها فإنها تفقد قوتها ولا تزداد أبداً ،
وذلك بسبب المقاومة الداخلية . والسياسة الداخلية لا تقوم إلا لتأمين القوة
والوحدة للسياسة الخارجية ، فإذا ما اتخذت أهدافاً أخرى ، كان ذلك إيذاناً
بسقوط الدولة ، أى فقدها الصورة .

ويشمل وجود الدولة على صورة ، أى كدولة من الدول - القوة ووحدة
القيادة والحكم والسلطة قبل كل شيء ، وبدونها لا توجد دولة في الواقع ،
فالدولة والحكومة صورة واحدة إذا ما أريد إبرازها إلى حين الوجود ، وقد
كانت دول القرن الثامن عشر على صورة حددتها التقاليد الصارمة المرعية في
البيوت المالكة وحياة القصور والحياة الاجتماعية وكانت بمثابة لها إلى حد كبير ،
ولم تكن طقوس المعاملة والآداب السامية في الفعل والمعاملة إلا تعبيراً ظاهراً
عنها . وكذلك « إنجلترا » كانت على « صورة » ، إذ استعاضت بموقعها الجغرافي
كجزيرة عن معالم أساسية من معالم الدولة ، وحدد العرف القديم في برلمانها
الحاكم معالجة الأمور في صورة فعالة ولكنها « أرستقراطية » . وما نشأت
ثورة فرنسا بسبب قيام الشعب في وجه الاستبداد ، فلم يكن له وجود حينئذ ،
ولا بسبب البؤس ووطأة الدين فقد كانا أشد وطأة في بلاد أخرى ولكنها
نشأت لأن سلطان الحكومة كان قد بدأ في الانحلال ، فالثورات لا تنشأ
إلا عن انحلال السلطان في الدولة ، ولا تستطيع ثورة الشارع أن تكون سبباً
للنتيجة التي تنتهي بها إذ أنها أثر من آثارها كما أن الجمهورية الحديثة ليست
إلا حطام دولة ملكية أسلمت نفسها .

فى القرن التاسع عشر انتقلت الدول من صورة البيوت المالكه الى صورة الدول القومية ، ولكن ما مغزى ذلك ؟ - لقد قامت بالطبع من قديم الزمن أمم أى شعوب متحضرة وتمثل هذه الوحدات فى كل ناحية مناطق نفوذ البيوت المالكه ، وكانت هذه الأمم « أفكارا » بالمعنى الذى يتحدث به « جوته » عن كيانها أى الصورة الداخلية لحياة عظيمة ، صورة تتحقق فى كل فعل وقول بصفة غير شعورية وغير ملحوظة .

أما أمة عام ١٧٨٩ فقد كانت مثلاً أعلى راسيوناليا روماننيكيا ، وبعبارة أخرى صورة مثالية بنزعة سياسية إن لم نقل اجتماعية صريحة . إن المثل الأعلى إنتاج فكرى ، هو عبارة تجب صياغتها لتتحول فى مدة قصيرة إلى صيغة شائعة أخاذة تلوكها الألسن دون أن يفهم الناس لها معنى . أما الأفكار فعلى عكس ذلك لاتصورها الألفاظ ، لذلك يندر أو ينتفى كلية وصولها إلى وعى حاملها كما يكاد يستحيل على الغير ان يصوغها فى عبارات ، إنما تحس الأفكار فى صورة الواقع وتوصف حينما تتحقق ، فهى لاتسمح بالتعريف كما أنها مقطوعة الصلة بالأمانى والأهداف . فالفكرة هى النزعة الغامضة التى تتشكل فى حياة ما ثم تندفع بقوة المصير إلى ما وراء حياتها الفردية جاهدة فى اتجاه ما . تلك هى الفكرة « الرومانية » وفكرة « الحروب الصليبية » والفكرة « الفايوستية » التى تهدف فى النهاية إلى الجهاد .

فالأمم الحققة أفكار حتى فى يومنا هذا ، أما ما تعنيه القومية منذ عام ١٧٨٩ فإنما هو الخلط بين اللغة القومية ولغة الكتابة بين سكان المدن الكبيرة ، وهى اللغة التى تتخذ وسيلة لتعلم القراءة والكتابة ، لغة الصحف اليومية ، والمطبوعات التى يعبر بها كل فرد معلنا حق الأمة وضرورة تحريرها من شىء ما .

أما الأمم الحققة فهي كسائر الكائنات الحية ذات بناء عضوى داخلى خصب ، وتكوّن بمحض وجودها لونا من النظام على حين أن الراسيونالية السياسية تفهم من الأمة التحرر من كل نظام والكفاح لهدمه ، فالأمم فى نظر هذه الراسيونالية كتلة لاصورة لها ولا بناء ولا سياسة لها ولا هدف ، ذلك ما أطلقت عليه اسم « سيادة الشعب » ، وأغفلت به شيئا يستحق الذكر هو تفكير المزارعين وشعورهم النامى فى حيويته ، وازدرت فيه العرف والعادات لحياة الشعب الحققة التى من أهم خصائصها رهبة السلطان ، فهى لاتعرف الاحترام ولا تبجل إلا المبادئ التى تنشأ عن النظريات وبخاصة المساواة الدهمائية أى تبديل الكيف الممقوت بالكم ، والمواهب المحسودة بالعدد . إن القومية بمعناها الحديث تعاض بالجموع عن الشعب إنها ثورية وحضرية فى صميمها .

وإن من الثورية العظمى هذا المثل الأعلى ، الذى هو حكم الشعب نفسه بنفسه فإذا كان الجيش يستطيع أن يقود نفسه بنفسه ، فقد يستطيع الشعب ذلك . فلا بد للشعب إذن من أن يحكم ، بل إنه ليرغب فى ذلك طالما كان متمتعا بغرائزه السليمة ، ولكن المقصود بذلك قطعاً شيء آخر يهدف إليه هؤلاء الدعاة ، وذلك هو التمثيل الشعبى الذى يلعب الدور الأول فى كل حركة من هذه الحركات فتظهر فى الحال جماعة ينعتون أنفسهم بتمثلى الشعب وهم فى الواقع لا يرمون إلى خدمة الشعب وإنما إلى استغلاله لغاياتهم القذرة التى يعتبر أقلها خطراً إشباع نزعة الزهو فى أنفسهم ، إنهم يكافحون قوى التقاليد ليحلوا أنفسهم محلها ، ويحاربون نظام الدولة لأنه يعوق لون نشاطهم الخاص . إنهم يكافحون كل أنراع السلطة لأنهم لا يريدون أن يحملوا أية

مسئولية أمام أحد ، بل إنهم ليفرون من طريقها . ان كل الدساتير لا تحتوى مثلا واحدا هيئة تقف أمامها الأحزاب موقف المسؤولية ، انها تكافح فوق كل شيء الصورة الحضارية للدولة ، الصورة التي نمت ونضجت على مهل لأنه ليس لدى هذه الأحزاب ما في المجتمع العريق ، مجتمع القرن الثامن عشر بل انها لتحس فيه ما لا يحسه رجل الحضارة من اكراه وكبت . وهكذا تنشأ ديموقراطية القرن ، أى اللاصورية بكامل معناها كمبدأ ، البرلمانية كفوضى دستورية ، الجمهورية كإنكار لإى لون من ألوان السلطة .

وهكذا ازدادت الدول الغربية فى لا صوريتها كلها اشتد اندفاعها فيما سمته « تقدما » فى الحكم ، تلك هى الفوضى التى دفعت « مترنخ » الى مكافئه الديموقراطية دون تفريق بين اتجاهاتها .

يستوى فى ذلك الاتجاه الرومانتيكى لحروب التحرير ، والراسيونالى لإسهادى الباستيل ، والجامع بين النزعتين فى عام ١٨٤٨ ، تلك الفوضى التى جعلته يقف موقف المحافظ أمام كل اصلاح فلقد نشأت منذ ذلك الوقت وفى كل البلدان - الأحزاب السياسية التى هى عبارة عن تجمع أفراد وجماعات من مستغلى السياسة ، الذين تحيط بمنشئهم وخلقهم وسلوكهم ودوافعهم الريب والشكوك والشبه ، قاموا بين الصحفيين والمحامين والمضاربين والأدباء ، وموظفى الأحزاب ، لقد كان حكمهم مجرد قيام على مصالحهم الخاصة . وإن كان الأولك والوزراء على الدوام مسئولين أمام جهة ما - كان الرأى العام أقلها - لقد تحررت هذه الشراذم من كل مسئولية ، فالصحافة التى كانت فى الأصل صورة الرأى العام أصبحت لاتخدم الامن يشتريها بالمال ، والانتخابات التى رسمت لتكون مظهر هذا الرأى لم تصل الى النصر الا بمن كان اكثر إغداقا

للمال . وإذا كان قد بقي شيء من الحكم الذي يصدر عن وحي الضمير أو شيء من السلطان ، فإنما ذلك فضلة من فضلات صورة القرن الثامن عشر يتمثل ذلك في هيئة الملكية وإن كان فيها دستورية ، وفي طبقة الضباط ، وفي التقاليد الدبلوماسية ، وفي التقاليد البرلمانية العتيقة كما في إنجلترا ولا سيما في مجلس اللوردات وفي حزبيها السياسيين . وإلى كل هذا يعود الفضل في كل ماتم من أعمال إنشائية على الرغم من وجود المجالس النيابية . فلولم يعتمد بسمارك على ملكه لسقط فريسة للديموقراطية في لمح البصر ، وهذا هو ما أدى إلى أن ينظر هؤلاء المتحذلقون السياسيون البرلمانيون إلى هذه القوى التقليدية بعين الريبة والبغض ، فحاربوها في المبدأ بحرب الخصم ، من غير ما هوادة ، ولا اعتبار للنتائج الخارجية ، وهكذا تحولت السياسة الداخلية في كل مكان إلى ميدان له - من الأوضاع المغتصبة له - اختصاص يتعدى بكثير اختصاصه الطبيعي ، واجتذب إليه نشاط جميع الساسة المجريين ، واستهلك وقتهم وقوتهم ، حتى نُسى أو تُنسَى المعنى الأصلي لقيادة الدولة ، أى قيادتها في السياسة الخارجية . هذه هي الحالة المليئة بالفوضى التي تدعى اليوم بالديموقراطية والتي تندفع بهدمها السيادة الملكية عن طريق راسيونالياتها السياسية الدهمائية إلى قيصرية المستقبل التي أخذت في الظهور الخافت بزعاتها الديكتاتورية والتي قدر لها أن تسيطر سيطرة مطلقة على ميدان من حطام التقاليد التاريخية .

ولقد كانت من أخطر الأعراض لانحلال سلطة الدولة تلك الحقيقة التي سلم بها الجميع في القرن التاسع عشر وهي أن الاقتصاد أهم من السياسة ، ولا يكاد يوجد بين من يتصلون بالأمور الفاصلة بسبب من ينكر هذا الأمر بصفة قطعية ، وأصبح لا يقتصر الأمر على النظر إلى السلطة السياسية كعنصر من عناصر الحياة الرسمية مهمته الأولى إن لم تكن الوحيدة خدمة الاقتصاد بل إلى مطالبتها بالتغالى في إشباع رغبة الاقتصاديين وخدمة وجهة نظرهم بأكمل ما يمكن ، وأن تخضع في نهاية الأمر لقيادة زعماء الاقتصاد . ذلك ما حصل إذاً على صورة متسعة ، أما مدى نجاحه فذلك ما ينبغي بنا به به تاريخ ذلك العصر .

والواقع أن السياسة والاقتصاد لا انفصال بينهما في حياة الشعوب ، فهما كما ينبغي أن يتقرر دائماً في الأذهان جانبان لنفس الحياة ، وموقف أحدهما من الآخر موقف قيادة السفينة من مصير حمولتها فعلى ظهر السفينة يكون الربان الشخص الأول لا التاجر الذي يملك المتاع ، فإذا ساد اليوم الرأي القائل بأن الزعامة الاقتصادية هي العنصر الأقوى ، فإن مبعث ذلك هو أن القيادة السياسية قد سقطت فريسة للفوضى الحزبية وأصبحت غير جديرة باسم القيادة ، ولذلك تبدو الزعامة الاقتصادية كأنها أعلى شأنًا ، ولكن هل يلزم أن يكون المنزل الذي يبقى قائماً بين حطام غيره من المنازل عقب زلزال من الزلازل هو أهمها ؟ فطالما كان التاريخ يسير على صورة ولم ينحدر بعد إلى الصخب والثورة فلن يتأقن للزعامة الاقتصادية أن تكون يوماً ما

صاحبة الفصل في أمر من الأمور، بل إنها على العكس من ذلك تخضع للاعتبارات السياسية وتخدمها بالوسائل التي تمتلكها ، ولا يوجد اقتصاد سليم في أى زمان أو مكان بدون سياسة قوية ، على الرغم من أن المذهب المادى يقول بالعكس ذلك المذهب الذى اعتبر مؤسسة « آدم سميث » الحياة الاقتصادية حياة البشرية الحققة ، وعد جمع المال كجوهر للتاريخ ، واعتبر رجال السياسة كخشرات مؤذية ، مع أن فى إنجلترا بالذات لم يسد الاقتصاد الإنجليزى بفضل التجار وأصحاب المصانع بل بفضل السياسة الخارجية العظمى للسياسة الحقيقية من أمثال « بيت » الأكبر والأصغر . وعلى الرغم من المعارضة الحارة من جانب رجال الاقتصاد القصار النظر ، فالذين حاربوا « نابليون » واشرفوا على شفاهاوية الانهيار المالى كانوا الساسة النفعيين لأن نظرهم امتدت إلى ما وراء ميزانية السنة التالية كما هى العادة الآن . والواقع أنه أصبح اليوم لصوت الاقتصاد فى الأمور الفاصلة الشأن الأول بسبب قيادة الساسة النافذين الذين يُسهمُ معظمهم فى الأعمال الخاصة ، ولكنه الاقتصاد الشامل الذى لا يقتصر على المصارف وغيرها من الجماعات المتنكرة فى الحزبية السياسية وغير المتنكرة فيها ، بل الذى يمتد إلى الهيئات المطالبة برفع الأجور وتقليل ساعات العمل وهى ما يسمى بأحزاب العمال ، فهذه الأخيرة هى النتيجة الحتمية للأولى ، وفى ذلك مأساة كل اقتصاد يهدف إلى تأمين نفسه فى الناحية السياسية وهو نفس ما بدأ فى عام ١٧٨٩ بالجير ونديين الذين رأوا فى نشاط البرجوازية الاقتصادية معنى السلطان فى الدولة ، كما أنه نفس ما حدث فى حكم « لويس فيليب » الملك البرجوازى ، وبصفة أكثر اتساعا عند ما أصبح الشعار الأخلاقى للعصر ذلك القول الشائن : « أغنوا أنفسكم » هذا الشعار الذى

أصاب خير إدراك ، وعمل به لافى ميادين التجارة والصناعة ولا من الساسة
خشب ، بل من طائفة الأَجريين الذى استغلوا فى عام ١٨٤٨ سقوط
سيادة الدولة لأنفسهم ، وبذلك اكتسبت الثورة المتسللة خلال القرن
بأكمله نزعة اقتصادية ، تلك الثورة التى أطلقوا عليها كلمة « ديموقراطية »
وظهرت بصفة دورية فى ثورات الجموع وفى بطاقات الانتخابات وفى
المتاريس وممثلى الشعب عن طريق إسقاط الوزارات ورفض اعتمادات
الدولة المالية . كما أنه نفس الذى حدث فى إنجلترا حيث طبقت نقابات العمال
مذهب حرية التجارة المانشسترى على تجارة السلعة المسماة « بالعمل » مما شرحه
نظريا « ماركس » و « إنجلز » فى البيان الشيوعى ، وبهذا تم إنزال الاقتصاد
 للسياسة ، والمكتب التجارى للدولة ، وزعيم النقابة للسياسى من عرش
السلطان ، وهنا لا فى أعقاب الحرب العالمية توجد بذور الكارثة الاقتصادية
الحالية ، فهى فى كل وطأتها الشديدة ليست إلا نتيجة لانحيار سلطان الدولة .
ولقد كان جديرا بهذا القرن أن يعتبر بالتاريخ ، إذ لا يشمل التاريخ أى
توفيق حقيقى للمشروعات الاقتصادية من غير تأييد من جانب قيادة الدولة
المفكرة القوية فى سياستها . ومن الخطأ أن تفهم غزوات « الفيكينج » التى
استهلت بها شعوب الغرب سيادتها البحرية على هذا الأساس ، فلم تكن لها
غاية صريحة إلا السلب فى حد ذاته بصرف النظر عن المسلوب نفسه ، أكان
أرضا أم أناسا أم كنوزا ، فهذا أمر ثانوى ، وكانت السفينة دولة فى ذاتها
وكانت خطة الرحلة والقيادة وإدارة الأعمال الحريسة كلها من صميم السياسة
وإذا ماتولد من السفينة أسطول أدى ذلك فى الحال إلى تأسيس دولة ذات
سيادة صريحة كما حصل فى إنجلترا ونورمانديا وصقلية ، ولو كانت ألمانيا نفسها

ذات وجود سيامي لظلت ، الهانزا ، الألمانية دولة عظمى اقتصادية ، فن الوقت الذى انتهى فيه الحلف القوى من المدف والذى لم يظفر بتأمين سياسى من قبل أية دولة ألمانية ، انفصلت ألمانيا عن الكتلة الاقتصادية العظمى فى الغرب ، ولم يَسْمُ فيها ثانية من شىء من ذلك إلا فى القرن التاسع عشر .
لابفضل الجهود الفردية بل بفضل الرجل السيامى ، بسمارك ، الذى كان أساس نهضة الاقتصاد الألمانى الإمبراطورى .

لقد بدأت الإمبريالية (١) البحرية ، وهى التعبير عن النزعة الفلوسفية إلى اللانهاية تتخذ صورا عظيمة عند ما أغلقت طرق المواصلات الاقتصادية إلى آسيا باستيلاء الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وقد كان هذا أقوى دافع إلى كشف الطريق البحرى إلى الهند الشرقية على يد البرتغاليين ، وإلى كشف أمريكا بواسطة الأسبان ، وكان وراء كل كشف دولة قوية من دول هذا العصر تسنده وتظاهره ، لا لتجنى منه ربحا تجاريا فحسب ، بل هناك دوافع أخرى كثيرة كالطمع ولذة المغامرة والاستمتاع بالحرب والتحرق للذهب ، وكان لابد من غزو هذه البلاد المكتشفة وحكمها ، والتى كان مفروضا فيها أن تدعم من سلطان ، الهابسبرج ، فى التكتلات الأوربية ، فالإمبراطورية التى لم تغرب عنها الشمس كانت بناء سياسيا ، وإنتاجا لقيادة سياسية متفوقة ، وبذلك فقط أمكنها أن تكون ساحة لنجاح اقتصادى .

وكذلك كانت الحال عند مانالت إنجلترا الصدارة ، فلم تكن لها قوة اقتصادية بل كان لها حكام نبلاء محنكون سواء أكانوا من المحافظين أم من الأحرار ، ولم يأت ثراء إنجلترا عن طريق إمساك الدفاتر والمضاربة ، بل عن طريق المواقع الحربية ، ولذلك كان الشعب الإنجليزى أكثر شعوب أوروبا محافظة

(١) أى النزعة الإمبراطورية كذهب سياسى اقتصادى

وإن يكن ، لبراليا ، فى فكره أو قوله ، كان شعبا محافظا بمعنى الاستمساك بكل صور السلطة الغابرة حتى فى أدق طقوس المعاملة ، وإن كانت هذه الصورة موضع السخرية أو الازدراء أحيانا ، وقد احتفظوا بالصورة القديمة لأنه لم يكن هناك صور جديدة أقوى منها ، كشأنها فى الحزبين السياسيين ، والطريقة التى تفصلها الحكومة فى الأمر بمعزل عن البرلمان ثم هى تستخدم مجلس اللوردات والعرش كعوامل مهمة فى المواقف الدقيقة ، وكم من مرة أنقذت هذه الغريزة إنجلترا ، وإذا أصابها الخمود اليوم فإنما يعنى ذلك فقد المركز الاقتصادى العالمى لا السياسى فقط .

إن ميرابو وتاليران و مترنيخ وولنجتون لم يكونوا ليفقهوا شيئا فى الاقتصاد ، ولا شك فى أن هذا التقصير قد أخذ عليهم ، ولكن الحالة كانت تزداد سوءا لو كان بدل كل منهم خبير اقتصادى يحاول مقارفة السياسة فحالما آلت الإمبريالية إلى أيدى رجال الأعمال الإقتصاديين الماديين وانتهت بذلك قوتها السياسية انحدرت معها سريعا من ميدان المصالح الاقتصادية للطبقة المتزعمة إلى ساحة للحرب بين الطبقات التى قام بها العمل ، وهكذا انهارت الاقتصاديات القومية العظمى جاذبة معها الدول العظمى إلى الهاوية .

- ٧ -

لقد كانت الجيوش العاملة فى القرن التاسع عشر أزرع تعبير فى نتائجه عن الثورة القومية منذ عام ١٧٨٩ ، إذ حلت جيوش الجموع المؤسسة على الخدمة العسكرية العامة محل الجيوش المحترفة للدول الملكية ، وكان ذلك فى صميمه من المثل اليقروية العليا ، لأن التجنيد العام لسنة ١٧٩٢ تمشى مع

الأمة على أنها جموع ، تلك الأمة التي وجب أن تنظم على أساس المساواة التامة في داخلها ، وأغفل صورتها القديمة ، صورة أمة مؤلفة على هيئة طبقات عضوية .

أما ما ظهر إذ ذاك في هجمات هذه الجموع الموحدة في زيتها العسكري من الابتهاج الجميل الوحشي بالمغامرة والسيادة والنصر ، وهو شعور جديد كل الجدة ، وبعيد كل البعد عن الروح النظرية ، بل هو ما تبقى من العنصر السليم ، ولم يزل بعد حيا في هذه الشعوب من بطولة نورديكية - أما ذلك الذي ظهر فقد كان تجربة خبرها المتحمسون لحقوق الإنسان في أسرع وقت ممكن .

لقد صار الدم من جديد أقوى من الفكرة ، وكان التحمس النظري للمثل الأعلى المتمثل في الشعب المسلح يتجه إلى غرض مقصود راسيوني ، يختلف كل الاختلاف عن إطلاق الغرائز البدائية . كذلك كان الشأن بعد حروب التحرير في كل شيء وقبل كل شيء ، وقد انتهى الموقف من جرّاء ذلك في ألمانيا ذاتها إلى ثورتي ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ . وقدر لهذه الجيوش التي لا تفرق بين الشريف والوضيع والغنى والفقير أن تكون صورة للأمة المقبلة التي تزول فيها - بطريقة ما - كل فوارق المرتبة والملكية والموهبة . ولقد كانت تلك هي الفكرة الخفية التي انطوت عليها نفوس الكثير من المتطوعين عام ١٨١٣ ومن الأدباء الألمانين الشبان (هاينه ، هيرفيج ، فرايلجرات) ومن أتباع كنيسة بولس الرسول (مثل أولاند) إذ كان الأمر الفاصل لديهم هو مبدأ المساواة غير العضوية ، ولم يكن أمثال ياهن وآرندت ، ليقدروا أن الهتاف الذي دوى لأول مرة في مذابح سبتمبر سنة ١٧٩٢ - ما كان يعني غير المساواة .

ولقد نسي الناس حقيقة واقعة أساسية : هي أن الأغلى الشعبية الرومانتيكية لم تغن إلا ببطولة الجندي العادي ، فلقد كانت تلك الجيوش سطحية إلى حد كبير ، وما قيمتها الأثيلة ومجدها الموطد إلا في فن الحرب وسمو الروح ، ودقة النظام ، وحسن الإعداد ، وكل هذه المناقب تتوقف على خلال جماعة الضباط ، وهي تنزع إلى الحرص على تقاليد القرن الثامن عشر . وكان الليعقوميون يرون قيمة الفصيلة من الناحية الأدبية فيمن يقوم على أمورها من الضباط ، وقد قرر نابليون في سانت هيلانة أنه ما كان ليظهر لو أتيح أن يكون له إلى جانب ملادة جيشه الفخمة فريق من الضباط يشاكل الفريق النمساوي الذي احتفظ بتقاليد الفروسية من وفاء ونبل ونظام صامت إيثاري . ولا عجب فإن الفصيلة الباسلة لتتحد سرعاً إلى قطع جبان خائر لاحول له حين تنحرف القيادة عن مبدئها أو موقفها ، وحين تسلم نفسها كما حدث سنة ١٩١٨ . ولو صمدت الجيوش - وهي أداة من أدوات السلطة للانحلال السريع النسي أو هي مظاهر القوة والسلطان في أوروبا - لعد صمودها إحدى المعجونات حقاً . وهذا هو عينه الذي حدث ، فإن الجيوش العظيمة وهي أكثر العناصر محافظة في القرن التاسع عشر - كان لها وحدها دون الملكية التي ضعفت ورجال الدين والنبلاء فضل إنقاذ سلطة الدولة ودعمها والإبقاء على حيويتها أمام النزعات الفوضوية للحركة الليبرالية ، ولقد كتب مورتينغ عام ١٨٤٩ لا يستطيع أحد أن يقدّر ذلك الذي سيظهر من تحت الحطام ، فلقد بدا سبب من أسباب القوة لا في النمسا وحدها بل في جميع أنحاء أوروبا التي عانت وطأة شديدة ، ذلك السبب هو نهضة الجيوش العاملة . على أنها ليست بالسبب المنشئ ، وإنما هي سبب صائن فحسب ، على حين

يتطلب الموقف الإنشاء .

وإذا عاد الفضل في إنقاذ سلطة الدولة ودعمها إلى صرامة مبادئ الضباط وخلاصهم ، واحتذاء الجنود حذوهم وعملهم على شاكلتهم فإن تبعة ما قام من ثورات ومذابح محلية عام ١٨٤٨ وما بعده تقع على عواتق الضباط حين تفشّاهم الانحطاط المعنوي . فلقد كان بأسبانيا وفرنسا وروسيا والنمسا قواد مُتسيّسون (يتكفون السياسة وليسوا بمدرّبين عليها) خولوا أنفسهم - معترّين بمرتبهم الحربية - السلطة والحق في أحكامهم السياسية ، ثم حاولوا التصرف على أساسها ، ولكن طبقة الضباط ككتلة ووحدة كانت تحرم على نفسها أين كانت - أن ترى رأيا سياسيا خاصا .

وفي أعوام ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧٠ لم تصمد التيجان ، وإنما صمدت الجيوش ، فهي التي منعت الحروب منذ عام ١٨٧٠ ، ذلك أن أحدا لم يجرؤ على إطلاق هذه القوى الهائلة مخافة النتائج الجسيمة التي يستحيل تقديرها ، فساد السلم طوال فترة خارقة للعادة امتدت من عام ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ فكان أن جعلت تقدير الأمور على وجهها الصحيح أدنى إلى المستحيل . ولذا حلت الحرب بالوساطة أو الحرب المقنعة محل الحرب المباشرة ، فبولغ في العناية بالاستعداد الحربي ، وسرعة السلاح ، والمخترعات الفنية . هذه الحرب المقنعة لها انتصاراتها وهزائمها بل لها معاهدات صلحها القصيرة المدى أيضا وهي تتطلب وجود ثروة قومية لاتوافر إلا في البلدان ذوات الصناعات الثقيلة الكبرى التي تعتمد في قيامها على وجود الفحم . وقد نشأ عن ذلك أن أصبح الاقتصاد الصناعي الكبير نفسه سلاحا ، فليس من شك في أن الحرب تتطلب المال ، وأن الإعداد لها يستدعي ما هو أكثر من المال إذ يستلزم توطيد

دعائم الاقتصاد الصناعي توطيدا يكفل كثرة إنتاجه ، وبهذه الكثرة يتحقق للأجرامات الحربية التوفيق ، فنجاحها متوقف على إمكان الحصول على استهلاك غير محدود في كثير من المواد ولا سيما الذخيرة .

هذه الحقيقة لم يدركها الناس إلا في بطن ، فبسمارك في مفاوضات الصلح عام ١٨٧١ قد حصر تقديره في النقط الحربية كمنس وبلفور ، ولم يكثر مطلقا لمناطق اللورين الغنية بالخيرات المعدنية . فلما اتضحت العلاقة التامة بين الاقتصاد والحرب ، وبين الفحم والمدفع انقلب الوضع ، فأصبح الاقتصاد القومي المؤئل هو الأساس المتين والعامل الفاصل وذا الاعتبار الأول لقيام الحرب . ونهض الفحم بخدمة المدافع ، وتزايد في اطراد .

ولما انتشرت الروح البرلمانية وتقوضت فكرة الدولة كأثر لسيادة هذه الروح ، وشارك عالم الاقتصاد - من اتحاد أرباب المصانع إلى اتحاد العمال - في الحكم - أخذت أهداف السياسة الخارجية ووسائلها تتحدد وتتعين ، فجنحت السياسة الحربية والاستعمارية إلى الحرب في سبيل الأسواق ومصادر المواد الأولية للصناعة ولا سيما ينابيع الزيت التي ناجزت الفحم وغلبته على منزلته وهل كان من المستطاع وجود السيارات والطائرات والغواصات من دون هذه المحركات المدارة بالزيت ؟

ولقد تحول الاستعداد للحرب البحرية إلى هذا الاتجاه : فلقد كانت السفن التجارية المسلحة في بداية الحرب الأهلية - لا يقل مستواها عن السفن الحربية المعاصرة ، وبعد ثلاث سنوات سيطرت السفن المدرعة على البحار ، وخضعت هذه البوارج للتطور السريع في نماذجها ، واطردت الزيارة المتتابعة في بنائها حتى لقد أصبح النموذج منها يعد عتيقا بعد قليل من السنين . هذه

الحصون القائمة بضخامتها الهائلة واستهلاكها العظيم للفحم صارت منذ مستهل القرن الحالى فى حاجة ماسة إلى قواعد بحرية على الساحل .

وبذا استؤنف الكفاح بين اليابسة والبحار فى سبيل الأولوية ، واتجه من جديد اتجاها واضحا إلى جانب اليابسة ، فساد البحار من امتلاك القواعد البحرية بحياضها ومستودعاتها وعتادها ، من غير اعتداد بقوة الأسطول . ومن أجل هذه السيادة سيطر البريطانيون على جبل طارق ومالطة وعدن وسنغافورة وجزائر برمودة ، وكثير غيرها من القواعد البحرية المتشابهة واعتمدوا فى حياة هذه السيادة على ثروة مستعمراتهم التى قامت من أجل السفن ، ولم تقم السفن من أجلها .

والواقع أن وجود هذه الأساطيل لم يتمخض عن أى فصل فى معركة حرية ما ، ولم يحدث قط على سطح البحر ما ينطبق على خطط أركان الحرب كأن الناس قد فقدوا معنى الحرب ، وعميت أبصارهم عن المعركة الفاصلة على سطح البحار ، فلم يكن منهم إلا محاولة تعجيز الأسطول المعادى بعزله عن السواحل ، وهذا النضال النظرى الذى ثار حول قيمة البوارج بعد الحرب الروسية اليابانية - لم يكن على ما قامت به فى دور التجربة ، وإنما كان على الطراز الذى بنته اليابان منها .

وفى الحرب العظمى قبع البوارج فى موازىها حتى جاز القول بأن من المستطاع التجاوز عن وجودها ، وما كانت معركة إسكاجراك إلا هجمة مباغطة ودعوة للزوال ، عرف الأسطول الإنجليزى كيف يتوقاها . وليس من شك فى أن تطور السلاح الجوى قد جعل بقاء عصر السفن المدرعة موضعا للنسائل ، وإن كان من المحتمل أن تبقى القرصنة البحرية ، وينبغى أن نذكر

هنا أن جميع السفن الكبيرة التي تقادم عليها العهد في خلال السنين الحسنة الأخيرة فأقصيت عن الخدمة - لم تطلق في حياتها طلقة واحدة على سفينة من لداتها .

وفي خلال الحرب العظمى حدث انقلاب كامل آخر على اليابسة ، ذلك أن الجيوش الأهلية المبنية على الكم والتي أدركت في تطورها أوج استطاعتها فأصبحت على عكس الأسطول البحري سلاحا مستنفدا - قد انتهت إلى حرب الخنادق ، تلك الحرب التي استمر بها حصار ألمانيا بما احتوته من هجمات واندفاعات ، حملتها على التسليم المطلق آخر الأمر .

وبذا انتصر الكم على الكيف ، وتغلبت الآلة على الحياة ، والكثرة على السرعة ، تلك السرعة التي أدخلها « نابليون في الفن الحربي على أوضح صورة مستطاعة إبان حملة ١٨٠٥ ، فقد بلغت « أوسترليتز » عن طريق « أولم » في بضع أسابيع ، ثم أمعنت تلك السرعة في زيادة مطردة على يد الأمريكيين فيما بين ١٨٦١ ، ١٨٦٥ باستعمال السكك الحديدية ، وبهذه الوسيلة تمكنت ألمانيا من نقل جيوش كاملة بين الشرق والغرب . ولولاها لم تتخذ هذه الحرب الصورة التي بدت عليها ، ولم تنته في المدة التي استغرقتها .

ويسجل التاريخ انقلابين عظيمين كاملين في العمليات الحربية زادت بهما سرعة الحركة زيادة مبالغتها : أما أولها فيقع في القرون الأولى بعد العام الألف قبل الميلاد حينما ظهر جواد الركوب في مكان ما من السهول الفسيحة الممتدة بين « الطونا والأمور » وبه تفوقت الجيوش الراكبة على المشاة تفوقا عظيما إذ أتيح لها أن تظهر وتختفي من غير أن تتمكن خصمها من الهجوم عليها ومطاربتها ، ولهذا كان مافعلته الشعوب القاطنة فيما بين الإطلةنطيق والمحيط

المهادى من ضم الفرسان إلى المشاة - عبثا أى عبث ، إذ عاقت المشاة حرية حركة الفرسان ، ومن العبث أيضا ما كان من حياطة كل من الإمبراطوريتين الرومانية والصينية بسور وخنادق . ولقد عثر في هذه الأيام على السور الرومانى فى الصحراء السورية العربية ، على حين لا يزال السور الصينى يخرق نصف آسيا . ووجه العبث فى هذا العمل أنه لم يكن من اليسير جمع الجيوش وراء هذه الأسوار فى السرعة التى تستدعيها الهجمات المباغتة . وكم من مرة سقط كل العالم الصينى والهندي والرومانى والعربى والغربى بسكانه الزراع المستقرين فريسة للرعب من البارثيين والهون والشيشين والمغول والأتراك . ويبدو أن حياة الفروسية وحياة الفلاحنة لا تتفقان فى الروح . هذا وإن الانتصارات التى أحرزتها جموع جنكيز خان لتعود إلى عامل التفوق فى السرعة .

أما الانقلاب الثانى ، فنحن فى عصره الآن ، إذ استبدل بحصان الفارس الحصان البخارى للصناعة الفاوسية . ولقد طافت بفرق الفرسان الشهيرة فى أوربة الغربية بالذات ، وغمرتها - هالة من الفخار الفروسى ، ولذة المغامرة والبطولة من قبل أن نشب الحرب العظمى وفى أوائها ، وكان الفرسان خلال عدة قرون بمثابة الفيكينج لليابسة لا للبحر ، وتزايد على الأيام تمثيل مهنة الجندى الحقبة الأصلية وحياته على نحو أقوى وضوحا منه فى مشاة الخدمة الإجبارية ، وسيختلف ذلك فى المستقبل ، إذ ستحل الطائرات وقطعان الدبابات محلها ، وستجاوز بذلك حرية الحركة حدود الإمكانيات العضوية إلى الإمكانيات غير العضوية للآلة ، وسيكون ذلك بالأحرى الآلة الفردية التى تختلف عن وابل النيران غير الشخصى ، وهو المنبعث عن الخنادق

وهذا سيزيد من جديد أعباء البطولة الشخصية .

ولكن هناك حقيقة مقبلة تتدخل في مصير الجيوش العاملة تدخلا أبلغ بكثير من هذا الحسم بين الكم والحركة ، وستشهد حتما للقضاء على مبدأ الخدمة العامة الإلزامية الذى عم القرن الماضى . لقد توقف أمام الجيوش إلى عام ١٩١٤ انهيار السلطة باستبدال الحزب بالدولة . وبعبارة أخرى توقفت الفوضى المطردة ، فطالما كان هناك رهط ثابت من الضباط يقوم على إعداد جند يستبدلون سراعا ، ولا يُحْمَرُونَ - بقيت القيم الخلقية لشرف السلاح والوفاء والطاعة الصامتة سليمة ، وهى عامل قوى من عوامل الاستقرار ، بل هى روح فردريك الأعظم ، ونابليون ، وولنجتون ، أى روح القرن الثامن عشر .

وهذه الروح لم تهتز فى أصولها إلا فى حرب الخنادق «السكون» (١) حين واجه الضباط الشبان المدربون فى عجلة جنوداً أسس منهم وقد طووا الأعوام الطويلة فى ساحة الوغى .

وهنا أيضا أوقف السلم الطويل الذى ظل قائما من ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ التطور الذى وجب أن يصاحب الانهيار المطرد لوجود الأمم على صورة . وأصبح للجنود بما فيهم صغار الضباط الذين نظروا إلى العالم من أسفل ، ولم يكونوا قادة بالدربة على المهنة والأصالة فيها بل بطريق الممارسة العابرة السريعة - أصبح لهم رأى خاص فى النظم السياسية التى يمكن أن تكون (الإمكانات السياسية) ووسائل تنفيذها ، وقد وفدت عليهم هذه النظم من الخارج ، أو من العدو ، أو من الأحزاب الراديكالية فى بلادهم عن طريق

الدعاية وبثور الانحلال .

وبهذا . وجدت الفوضى سبيلها إلى داخل الجيوش ، وهي التي استطاعت وحدها من قبل درأها عنها بعيدا ، ودامت داخل ثكنات جيوش السلم العاملة بعد انقضاء الحرب في كل الأنحاء .

ويضاف إلى هذا أن الرجل العادي من صفوف الشعب - وقد كان شأنه شأن السياسى المحترف والزعيم الحزبى الراديكالى - ظل أربعين عاما مشفقا ومغرقا في تقدير مدى الفعل المجهول للجيوش الحديثة حين تواجه الجيوش الأجنبية أو الثورات . وقد أسقط من حسابه توقع المقاومة وهي أمر ممكن ، وأدى ذلك إلى أن تقلع الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في كل مكان قبل الحرب عن التفكير في الثورة ، وإن أبقت على لفظها فحسب في منهجها .

ولهذا سهل على فصيلة صغيرة أن تكبح جراح آلاف من المدنيين الهانجين على حين أثبتت الحرب ضالة ما يمكن أن تفعله الفصيلة القوية من الجند بمدفعيتها الثقيلة أمام مدننا الحجرية إذا مادافع عنها منزلا منزلا .

ولكن الجيش النظامى فقد في الثورات ما كان يحيط به من هالة المنفعة والهيبة إذ صار لكل مجند رأى في نفسه يخالف تماما ما كان يراه المجندون قبل الحرب : فهو لم يعد يشعر بأنه محض وسيلة ومطية للسلطة الآمرة . وإني ليخامرني لهذا أكبر الشك في إمكان القيام بتعبئة عامة في فرنسا (مثلا) لمواجهة عدو ذى خطر . وليت شعري ماذا يحدث لو هربت الجموع من واجب تقديم أنفسهم للخدمة العسكرية ؟ وأي قيمة لجنود لا يعرف الإنسان مدى انحلالهم الأدبى ، وأياها استطاع الاعتماد عليه ؟

هذه نهاية الخدمة العامة الإجبارية التي بدأت عام ١٧٩٢ عام الخامسة القومية للحرب ، ثم هي بداية الجيوش المتطوعة من المحترفين الذين يجمعهم لواء قائد قومي ، أو يؤلف بينهم غرض عظيم .. وهذا عينه ما حدث في كل الحضارات ، فلقد استبدل بالجيش المقترعة من الزراع الجيوش المحترفة المأجورة منذ عهد ماريوس ، ثم فيما أعقب ذلك من أحداث .

وإن ذلك هو السبيل إلى القيصرية ، والثورة الغريزية للدم وللجنس الذي لم يستنفد ، وللارادة الفطرية تثور في وجه القوى المادية للمال والفكر ، وللمذاهب الفرضوية ، وللحضارية التي تستغلها بادئة بالديموقراطية ومنتهية بالبلوتوقراطية .

وترتب على ذلك أن لجأت هذه القوى المادية والدممائية منذ نهاية القرن الثامن عشر إلى وسائل جريية تلائم تفكيرها وخبرتها ، وتمثل في أساليب للحرب الاقتصادية ، وكثيرا ما أدت هذه الحرب في فترة السلم إلى معارك وانتصارات ومعاهدات صلح اقتصادية نظرت إليها رجال الحرب من أمثال مولتكه بازدراء ، واستخفوا بقوة تأثيرها .

أما الساسة المحدثون فقد كانوا أكثر تقديرا لها إذ بدأ اتجاه تفكيرهم أولا نحو الاقتصاد بتأثير نشأتهم وميولهم الطبيعية ، ثم انحرف إلى السياسة . هذه الوسائل المتمثلة في الحرب الاقتصادية نشأت بجانب الجيوش والأساطيل التي أعدت في زيادة مطردة لأغراض بعيدة كل البعد عن مصلحة الشعوب ذاتها إذ اقتصر على خدمة المصالح التجارية للجماعات شتى . وإن في اسم حرب الأفيون ، لشاهدا صارخا على ما نقول .

وقد هيا الانحلال الزاحف المطرد في سلطان الدولة عن طريق البرلمانية

الفرصة لاستخدام عوامل هذه القوة الدولية في ذلك السبيل .

وتم ذلك - بخاصة - في إنجلترا التي تحولت تحولاً تاماً في وسط القرن التاسع عشر إلى أمة من « أرباب الحوانيت ، وأخذت بقاعدة تقضى بالآلا يلجأ إلى الحرب لتحطيم قوة العدو وإخضاعها ، وأن يجهز عليه - اقتصادياً - باعتباره منافساً ، ويستبقى باعتباره مستهلكاً للسلع الإنجليزية . وإن هذه الحرب الاقتصادية لأبقى أثراً في خضد شوكة العدو من حرب الميدان . ولقد كانت هدف الأبريالية الليبرالية القاضية بحرية التجارة منذ عهد « روبرت بيل » ، ولقد عمد إليها نابليون فعند « الحجر القاري » Kontinentalspeve وسيلة حرية مُصممة تنال إنجلترا في الصميم ، لأنه لم يكن حيالها ليلك غيرها من وسيلة .

هذا ، وفي الوقت الذي لم يصنع نابليون فيه في أوربة إلا أن أقام عروشا - كان بيت (Pitt) يؤسس في أنحاء العالم القاصية مستعمرات تجارية وزراعية .

ويخطئ من يقول إن إنجلترا في عام ١٩١٤ قد شبت الحرب مناصرة لفرنسا أو بلجيكا ، فالحق أنها ما أثارها إلا من أجل عطلة نهاية الأسبوع أى للقضاء على منافسة ألمانيا في الميدان الاقتصادي قضاء سرمداء إن استطاعت .

وفي عام ١٩١٦ بدأت إلى جانب الحرب العسكرية الحرب الاقتصادية المرسومة ، والتي يجب أن تستمر إذا ما قدر للأولى أن تضع أوزارها . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الأهداف تتجه ذلك الاتجاه بصفة قاطعة دائمة .

ولم تكن معاهدات فرساي أساساً لأي لون من ألوان السلم ، بل كانت

لتنظيم القوى الدولية على نحو يكفل تحقيق الأهداف في أى وقت ، بمطالب ووسائل جديدة . ومن أجل هذا تضمنت تسليم المستعمرات والأسطول التجارى ووضع اليد على الأرصة المالية والممتلكات والباتنتات فى جميع البلدان ، وساخ المناطق الصناعية كسيليزيا العليا ومنطقة السار ، وإدخال النظام الجمهورى الذى كان القصد منه القضاء على الصناعة بالنقابات التى أصبحت مطلقة السلطة ، وأخيرا تضمنت التعويضات التى لم تكن عند إنجلترا - على الأقل - تعويضات حريصة بل إعاناتا مستمرة للصناعة الألمانية يسرع بها إلى الموت .

ولقد بدأت - على غير تقدير من الدول التى أمّلت المعاهدة - حرب اقتصادية جديدة نحن الآن فى غمارها ، وإليها يعود معظم التبعة فى هذه الأزمه العالميه الاقتصاديه الراهنه ، إذ تغير تغيرا تاما توزيع القوى العالميه بسبب ازدياد قوة الولايات المتحدة الأمريكية ، وماليتها الكبرى وبسبب الشكل الجديد للإمبراطورية الروسية ، وبذا استحال كل من الخصوم والوسائل إلى خصوم ووسائل أخرى .

هذه الحرب الحالية ذات الوسائل الاقتصادية ، والتى يحتمل أن تدعى فى عصر مقبل بالحرب العالميه الثانيه - قد أتت بصور جديدة كل الجدة للهجوم الاقتصادى البولشفيكى تتمثل فى مشروع خمس السنوات ، وفى هجوم الدولار والفرك على الجنيه الاسترلى . وفى ألوان من التضخم النقدى التى تقوم بها بيوت المضاربة (البورصات) الأجنبية ، للقضاء على ثروات قوميه كامله وفى الأوتاركيه فى مختلف الأنظمه القوميه الاقتصاديه التى ما أقيمت إلا لتكون وسيلة للقضاء على صادرات البلاد المعاديه أى على اقتصاد امم كبيره لتقويض

أسس حياتها ، وما مشروع « دويس ويونج » ، إلا محاولات لجماعات من
المالين تهدف إلى تسخير دول بأجمعها لحساب مصارف معينة . فلباب هدفهم
إنقاذ المقدرة الحيوية لشعوبهم الخاصة بالقضاء عليها في شعوب أجنبية . إنها
الحرب على قاع السفن . وهنا ترد ثانية إلى مكائنها - بعد استنفاد الوسائل
الأخرى - أقوم الوسائل وأعرقها ، أعنى الوسائل الحربية ، فالدولة القوية
ترغم الدولة التي دونها قوة على التخلي عن دفاعها الاقتصادي ، والتسليم ،
ثم الفناء . فالمدافع أقوى من الفجم في سبيل هذه الغاية .

وليس من السهل تقدير الحال التي ستنتهي بها هذه الحرب الاقتصادية
ولكن المحقق أنها ستزد على الدولة من جديد حقوقها التاريخية باعتبارها
سلطة تستند إلى جيوش محترفة موثوق بها لقيامها على التطوع ، جيوش
أحسن تدريباً ، وأعظم حركة ، ثم تُزحزح الاقتصاد إلى الخط الخلفي حيث
مكانه الطبيعي .

- ٨ -

وفي هذا العصر من التحول واللاصورية « ما بين العصرين » والذي يبدو
أنه لم يبلغ بعد أوج اضطرابه وتشكلاته العابرة - أخذت نزعات جديدة
تظهر مشيرة إلى ما وراء الحاضر في المستقبل الأبعد . فهذه الدول التي قدر لها
أن تقوم بالمعركة الأخيرة للسيادة على كوكبنا هذا - شرعت تتشكل صورة
ووضعا . وسوف تستطيع واحدة منها لحسب أن تطلق اسمها على إمبراطورية
العالم إن لم يدعها قضاء هائل يسحقها قبل اكتمالها . إن هناك أمما من نوع
جديد توشك أن تظهر . أمما ليست من نوع أمم اليوم الذي تمثله مجموعات

من أفراد متساوين في الدرجة واللغة ، وليس طابعها كطابع الأمم السابقة التي عاصرت النهضة حينما كان لكل صورة ، ومعركة ، ووجه ، وفكرة ، ومسلك ، ورأى - أسلوب إيطالي وروح إيطالية على رغم الجزم بعدم وجود دولة إيطالية وقتئذ .

إن الأمم الفاروسية ستكون آخر القرن العشرين جموعاً متجانسة انتخابية مؤلفة من أناس يجمعهم إحساس واحد بالحياة ووحى متماثل ينبعث عن الضمير ويصدر عن إرادة قوية ، ويقرم - بالبديهة - على لغة واحدة ، من غير أن يميز الأمة أو يحددها معرفة هذه اللغة ، أناس من جنس قوى ولا اعنى بذلك الإيمان بالجنس على النحو الشائع اليوم ، وإنما اعنى إخص معانيه ، اعنى الغرائز القسرية التي تشمل فيما تشمل تفوق النظرة إلى الأشياء تلك النظرة التي لا يستطلع اليوم في المدن العالمية وبين كتاب المكتب فيها التفرقة بينها وبين الفكر العادي لذوى الذكاء الخالص ، أناس ولنوا للسيادة ولنظروا إلى انفسهم كطالين بها . ان كثرة العدد أصبحت لاتعنى شيئاً وقد ولى القرن الماضى الذى استبد به الكم فخر له ساجداً ، وصارت قيمة الرجل الحق كبيرة اذا قيس اليه جمع من الأرقاء والسليين والمتفائلين الذين يهدفون إلى الهدوء ويودونه بأى ثمن ، وان كان هذا الثمن هو الحرية . وان هذه النقلة لتماثل الانتقال من الشعب الرومانى الخاص بعصر هانيبال إلى مثلى الرومانية فى القرن الأول قبل الميلاد كاريوس وشيشرو الذين لم يكونوا رومانين خالصين .

ويبدو ان غرب أوربة قد اضاع أهميته الفاصلة ، ولكننا اذا استثنينا الناحية السياسية لم نجد ضياع الأهمية الا فى الظاهر فحسب ، فلقد ترعرعت فيه

فكرة الحضارة الغربية ، وامتدت فيه جذورها ، وفيه ستنال نصرها الأخير
أو تلقى منيتها على عجل .

وإن الأمور الفاصلة - مهما يكن ميدانها - لن تكون إلا من أجل
الغرب لاسبب ماله أو هناءه ، وإنما من أجل روحه . ولكن القوة في
خلال ذلك قد انتقلت منه إلى البقاع الواقعة وراء حدوده إلى آسيا وأمريكا :
هناك على أفصح بقاع الأرض الداخلية في آسيا ، وهنا في الولايات المتحدة
الأمريكية وبلاد الدومينيون الإنجليزية الممتدتين على المحيطين التاريخيين
المتصلين بقناة بناما ، ومع كل هذا فليس بين دول الأرض الحالية دولة
يستطيع الإنسان أن يتنبأ لها بأى لون من ألوان القوة بعد مائة عام بل
بعد خمسين عاما . بل إن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ لها بالوجود ذاته .

وبعد فما الدولة التي تعد ذات طراز عظيم في عصرنا هذا؟ هي صورة
دولية أو شبيهة بالدولية ، لقيادتها أهداف سياسية ، ومقدرة حرة على تحقيقها
وإصابتها مهما تكن الوسائل التي تستخدمها : من الجيوش والأساطيل ،
والتنظيمات السياسية ، والاعتمادات ، والكتل المصرفية والصناعية ذات
القوة والمصالح الموحدة ، وأقوى من هذه الوسائل كلها المركز الاستراتيجي
القوى على سطح الأرض ، ويجمع ذلك كله المدن ، المليونية ، على اختلاف
أسمائها ، تلك المدن التي تتجمع فيها هذه القوة وروحها ، والتي إزائها لاتعد
بلدان بل أمم بأجمعها إلا بمثابة الإقليم التابع .

وتلزم موسكو موقفا فريدا بكال غموضها وخفائها وإغلاقها المحكم إمام
الفكر والوجدان الغربيين ، وإنها للعامل الفاصل في أوربة منذ عام ١٨١٢
أى منذ كانت تتبعها دوليا . وقد صارت العامل الفاصل في العالم منذ عام ١٩١٧ .

ولأن انتصار البولشفيك ليعنى من الوجهة التاريخية معنى يختلف كل الاختلاف عن المعنى السياسى الاشتراكى أو الاقتصادى النظرى .

ولقد استردت آسيا روسيا ثانية بعد أن ضمتها أوربة إليها على يد بطرس الأكبر . وبهذا الإجراء اختفت فكرة أوربة من التفكير العملى للسياسيين أو ذلك ما كان يجب أن يحدث لو كان بيننا سياسيون من ذوى القدر .

إن آسيا فكرة حققة لها مستقبل ، وهى لاتعياً بفوارق الجنس واللغة والقومية والدين فى صورهِ الراهنة القابلة للتغير الذى لا بد أن يكون . إن هنالك لونا من الحياة لاتحدده العبارات ، لونا لايشعر بوجوده ، قد حملته فى بطنها بقعة عظيمة من الأرض ، وهى فى طريق ولادته . أما الرغبة فى تحديد المستقبل وتعيينه ، ووضعهُ فى إطار برنامج - نخطط بين الحياة والكلام وهذا ماتفعله البلشفية المتحكمة التى لاتشعر شعوراً تاماً بمنشئها الأوربى الغربى والعقل المتصل بالمدن الكبيرة .

وليس من المستطاع الهجوم من الخارج على سكان هذه البقعة الأرضية الداخلية الهائلة فى اتساعها ومدادها ، فاتساع الرقعة قوة لم تقهر قط سياسياً أو حربياً ، وقد بلا ذلك وخبره نابليون . وأى ربح يناله العدو إذا ما احتل هذه البقاع الفسيحة ؟ ولقد اتخذ البولشفيك عدتهم للقضاء على أية محاولة لبلوغ العدو هذه الغاية ، فنقلوا مركز الثقل فى نظامهم إلى الشرق ، واقاموا كل المراكز الصناعية الهامة ذات الأثر فى ميدان القوة السياسية - شرقى موسكو ، فأكثرها يمتد شرق الأورال إلى جبال « ألتاى » ، ويمضى إلى القوقاز جنوباً ، ولقد كانت جميع المنطقة الممتدة غربى موسكو بما فيها روسيا البيضاء واوركانيا فى امتدادها بين « ريغا » « واوديسا » - تعد أهم بقعة فى امبراطورية

القيصرية ، وهى اليوم ليست إلا حرمًا للقلعة الروسية أمام أوربة . وإن
التقهقر عنها وتركها للعسود لا يؤديان إلى انهيار نظام الدولة . وبذا أصبح
التفكير فى الهجوم عليها من جهة الغرب عقيا لا ينتج ، ومحض طعن فى الهواء .
إن هذا الحكم البولشفيكى ليس دولة بالمعنى الذى نفهمه ، وليس كما كانت
عليه روسيا القيصرية ، فهو ككبتشاك ، إمبراطورية القطيع الذهبى فى عصر
المغول : يتألف من حاكم يدعى الحزب الشيوعى بزعمائه وسخانته المطلق
السلطان ، ومن قطيع يضاعفه مائة مرة أو يزيد ، قطيع أعزل من السلاح ،
خاضع لما يؤمر به ، وإذا ما استثنينا القليل جدا لم نجد فيه من الماركسية
إلا الاسم والبرنامج ، إذ الحكم الحقيقى هناك مطلق يهدف إلى إثارة العالم
واستغلاله دون مراعاة لأى حد أو اعتبار اللهم إلا الاستبداد فى دهام
وقوة ، واتخاذ الاغتيال وسيلة عادية من وسائل الحكم الذى يمهّد ليوم
يطوى فيه جنكيزخان الجديد آسيا وأوربة طيا .

إن الروسى الحق لا يزال كصينى الشمال ، والمانشو ، والتركمانى من حيث
شعوره بالحياة ، فهو رحالة غير مستقر ، لا يفهم المواطن على أنه القصرية بل
على أنه السهل المتراعى الأطراف ، أعنى أُمَّهُ الروسية . إن روح هذه البقعة
غير المحدودة (اللامتناهية) تدفعه دائما إلى التجوال فى غير هدف ، وإن
الإرادة لتعوزه ، على حين تجد شعور الجرمانى بالحياة ذا هدف يجب بلوغه
عنوة : بلاد بعيدة ، مشكلة ، إله ، قوة ، مجد . ثروة .

تطوف بالروسيا أسر الزراع والصناع والعمال من إقليم إلى آخر ، ومن
مصنع إلى مصنع من غير ضرورة ماسة أو حاجة ملجئة ، ولم تستطع أية وسيلة
من وسائل الإرغام السوفياتية أن تمنع ذلك ، لأن هؤلاء المترددين بين

الأقاليم والمصانع ينبعثون بالنزعة الداخلية في الروح ، ولقد أدى هذا الى أن صار من المستحيل نشوء طائفة من العمال المدربين لطول ارتباطهم بالعمل وحبطت كل محاولة لانشاء أية صناعة من نوع ما في أوربة الغربية أو ابقائها من غير اشراك اليد الأجنبية .

أهناك حقا منهج شيوعي جدى المقصد ، يتحرى المثل الأعلى الذى يضجى له الملايين من الناس ، ويجوعون من أجله ويحيون فى شقاء ؟ أم أن كل ما هنالك ليس الا وسيلة حرية دفاعية فعالة الى أكبر حد تقف أمام الكتلة الخاضعة ولا سيما المزارعين ، أو وسيلة هجومية تقف أمام العالم غير الروبى العالم البغيض الذى يجب توهين بنائه وزعزعة أسسه قبل اخضاعه والقضاء عليه ؟ ومن المحقق انه لن يكون ثمة تغيير يعتد به اذا ما تحلى يوما ما عن المذهب الشيوعي لأسباب تراها السلطة السياسية ، فقد تتغير الأسماء فتسمى فروع الإدارة الاقتصادية مؤسسات ، واللجان مجالس اشراف ، والشيوعيون أنفسهم مساهمين ، وتبقى فيما عدا ذلك الصورة الرأسالية الغربية القائمة منذ زمن .

ولكن هذه القوة لا تستطيع القيام بحرب خارج بلادها فى الشرق أو فى الغرب الا بالدعاية ، هذا الى ان نظامها ذا الملاحم الراسيونالية الغرب اورية الذى نشأ فى الحجوم الأدبى فى بطرسبورج يغلب عليه التكلف فهو غير طبيعى ولن يعيش بعد اى انهزام بل لن يعيش بعد اى انتصار

ان البيروقراطية المسكوفية لا بد ان تسقط امام قائد منتصر ، وستحل روسيا جديدة محل روسيا السوفيتية ، وقد يذبح القطيع الحاكم فيها دون ان يكون لذلك اثر غير القضاء على الطراز الماركسى للبلشفية ، ونمو الملون

القوى الاسيوى لهذه البلشفية نموا هائلا لايعوقه عائق ما . ولكن هل يستطيع الوثوق بالجيش الأحمر ؟ وهل يمكن استخدامه ؟ وما الصفات الفنية والادبية لفريق الضباط ؟ إن ما يظهر في ألوان الاستعراض العسكرى فى موسكو ليس إلا كتائب منتقاة من شيوعيين موثوق بهم ، وهم الحرس الخاص لأرباب السلطة ، ولا تنفك تأتينا الأنباء من الأقاليم عن مؤامرات تخمد وتخب ، وهل تستطيع السكك الحديدية والطائرات وصناعات التسليح أن تضطلع بالمطالب الجدية ؟ إن من المحقق أن النصرف الروسى فى منشوريا ، وموائق عدم الاعتداء فى الغرب يمان عن الرغبة فى تجنب أى اختبار حربى بكل الوسائل . أما الوسائل الأخرى : كالإبادة الاقتصادية للخصم بوساطة التجارة ، وبالثورة بخاصة ، لاعلى أنها هدف مثالى بل على أنها سلاح مرسوم - وقد استخدمته إنجلترا وفرنسا عام ١٩١٨ وسلمت سيفه على رأس ألمانيا - أما هذه الوسائل فهى أقل خطرا وإن كانت أكثر تأثيرا وفاعلية .

ولليابان على خلاف ذلك مركز أشد قوة ، فإنها تكاد تكون منيعة أمام الهجوم عليها من البحر بفضل سلاسل جزائرها التى يستطيع سد منافذها الصغيرة فى إحكام بحقول الألغام والغواصات والطائرات ، مما يجعل بلوغ البحر الصينى مستحيلا على أى أسطول أجنبى ، هذا إلى أن اليابان قد كفلت لنفسها فى منشوريا بلادا فسيحة الأرجاء ذات مستقبل اقتصادى هائل : ولقد قضى اليوم فول السويدا على أى احتمال للربح من زراعة جوز الهند أو نخيل الزيت فى البحار الجنوبية وغرب أفريقيا . ثم إن عدد سكانها قد زاد إلى درجة لم يسمع بها ، وليست تخومها الحالية النهائية بمحدودة بدقة ، وستؤدى

أقل محاولة للبشفيك للتدخل الحربى فى وجه هذا السلطان الزاحف إلى ضياع
فلاديفستك وبلاد المغول الشرقية وبكين على الراجح . وسيكون الفعل العملى
الوحيد المقابل لهذا - الثورة الحمراء فى الصين . ولكن هذه الحركة أخذت
تتخطم يوماً بعد يوم منذ تأسيس « الكومنتانج » ، أما هجمات الرأسماليين ،
وأجدرها بالتخصيص رشوة قواد وجيوش بأجمعها .

إن الشعوب العتيقة الفلاحية من أمثال الهنود والصينيين لن تستطيع
أن تلعب دوراً مستقلاً فى عالم الدول العظمى ، وقد تستطيع مثل هذه الشعوب
أن تبدل سادتها فتطرد أحدهم لتقع فريسة لسيد جديد - كالإنجليز فى الهند
مثلاً - ولكنها لن تستطيع بحال أن تنتج من جديد صورة ذاتية داخلية
عن الوجود السياسى إذ تناهت فى القدم والتبس والاستنفاد ، وقد اجتلبت
صورة ثورتها الحالية بجميع أهدافها من الحرية والمساواة والبرلمان والجمهورية
والشيوعية وما إلى ذلك من غرب أوربة وموسكو . وإنها لأهداف ووسائل
حربية للدول الأجنبية لتحول هذه البلاد إلى ساحات قتال للفصل بينها . وإن
يستطيع هؤلاء الأقوام لذلك السبب نفسه أن يكون لهم شأن هائل وإن عابراً .
وقد وجهت - دون شك - كل من روسيا واليابان أنظارهما إلى ما يرقى
من إمكانيات بين هذه الأقوام ، فأخذتا تعملان فى الخفاء بوسائل لا يراها ولا
يفطن إليها الرجل الأبيض . ولكن هل اليابان اليوم فى مثل ما كان لها من
قوة وثبات فى عصر الحرب الروسية ؟ لقد كان يحكم اليابان فى ذلك الوقت طبقة
السادة الساموراي القديمة الفخور العريقة الباسلة التى تعد من خير ما أنتجه العالم
من أجناس ، أما اليوم فإننا نسمع عن أحزاب راديكالية وإضرابات ودعاية
بولشفيكية واغتيال وزراء ، فهل جاوزت هذه الدولة المجيدة قمة وجودها

بعد أن سممتها صور الانحطاط الديمقراطي الماركسي المنبعشة من الشعوب البيض ، وقد دخل النزاع حول المحيط الهادى فى دوره الفاصل ؟ لئن كانت لاتزال فيها قوتها الهجومية القديمة لى قادرة على الثبات والصمود لآى تكتل من الدول المعادية ، وسيعين هذه القوة الهجومية مركزها السراتيجى البحرى الفذ .

ولكن من أية دولة تتوقع هذه الخصومة ؟ أما روسيا فلا تتوقع منها خصومة على التأكيد ، ويستحيل توقعها من أية دولة من غرب أوربة . ولذا لا يوجد مكان يحس فيه المرء بوضوح سقوط هذه الدول من مكاتنها السياسية الماضية كما هو الشأن هنا . ومنذ مدة لاتكاد تبلغ عشرين عاما كانت بور آثر ، وواى هاى واى ، وكياتشو محتلة ، وكان تقسيم الصين إلى مناطق نفوذ قائما . ولقد كانت مشكلة المحيط الهادى يوما ما أوربية ، أما اليوم فلم تعد إنجلترا ذاتها لتجسر على أن تنفذ فى سنغافورة خطة التوسيع التى وضعت منهجها من عشرات السنين . ولقد كان المفروض فيها أن تكون قاعدة قوية للأسطول الإنجليزى يواجه منها الأوضاع والحوادث المعقدة فى شرق آسيا . فهل من المستطاع المحافظة عليها أمام اليابان وفرنسا إذا ما نزلت هذه الأخيرة عن الطريق الأرضى للهند الصينية ؟ إن إنجلترا إذا تخلت عن مكاتنها القديمة فى هذه البحار ، ووضعت بذلك استراليا تحت رحمة الضغط اليابانى - حملتها على أن تنفصل من الإمبراطورية وتنضم إلى أمريكا .

إن أمريكا هى الخصم الجدى الوحيد ، ولكن ما مدى قوتها البحرية فى هذه الأنحاء على الرغم من قناة بناما ؟ إن سان فرنسيסקو وجزائر هاواى

ما لم يأتنا فكرة قاعدتين بحريتين تهددان اليابان ، وسوف يكون الاحتفاظ بالفلبين مستحيلا ، ثم إن لليابان في أمريكا اللاتينية حلفاء محتملين يعادون نيويورك ، ولن يقلل من أهميتهم إغفال ذكرهم في الحديث .

- ٩ -

هل الولايات المتحدة الأمريكية دولة ذات مستقبل ؟ لقد كان الملاحظون السطحيون يملئون الأسماع قبل ١٩١٤ بامكانياتها غير المحدودة بعد أن طافوا هناك بضعة أسابيع ، ثم إن المجتمع الجديد في غرب أوربة بعد ١٩١٨ - وهو مزيج من متحذلقين وغوغاء - قد استبدَّ به الإعجاب بهذه الأمريكية الفتية القوية البالغة في تفوقها علينا ، المرموقة كمثل يقتدى به . ولكنهم بذلك يخلطون بين الأرقام والدولارات من جهة ، والقوة الروحانية وعمق القومية ، الذي لا بد منه إذا أريد لدولة البقاء والثبات - من جهة أخرى ، كما يخلطون بين الرياضة البدنية الحديثة وسلامة العنصر ، وبين ذكاء التاجر ، والروح والفكر . ما الأمريكية الكاملة (أى ذات مائة في المائة) ؟ أهى صياغة المجموع في قالب متوسط الأذى ؟ أهى وقفة بدائية أم أمل في المستقبل ؟ المحقق أنه ليس هناك في أمريكا بعدُ أمة ولا دولة حقيقية . وهل في الإمكان أن يصوغها قضاء صارم أم أن ذلك مستحيل الوقوع بسبب ذلك الصنف من المستعمرين ، الذي انطوى ماضيه الروحي بعيدا عنه وانقضى ؟ فالأمريكي لا يتحدث كما يتحدث الإنجليزى عن دولته ووطنه وإنما يقول : هذه البلاد ، ونحن - فى الواقع - بصدد بقعة لاحد لها لاتساعها ، وسكان أفاقيين ، ينتقلون من مدينة إلى أخرى طلبا للدولار من دون قيد أو اعتبار ، إذ لا يدعن هناك

للقانون إلا من لا يملك من القوة أو المكر ما يهيء له أن يزدري القانون .
وإن مشابها بروسيا البلشفية لأشد خطر مما يُظن : فهذا اتساع الرقعة
نفسه الذى يقضى على كل احتمال لنجاح أى هجوم من جانب أى خصم ،
وبالتالى على تذوق الخطر القومى الحق ، وبذلك تستغنى عن الدولة ، ويستدعى
هذا استحالة نشوء تفكير سياسى أصيل ، فالحياة هناك قد انحصرت صورتها
فى الناحية الاقتصادية المحضة . وقد استغنت إلى هذا عن العمق بنسبة فقرها
فى عنصر المأساة ، وهو المصير العظيم الذى عمق وهذب روح الشعوب
الغربية قرونا طويلة ، لقد أصبح الدين لونا من الترفيه المفروض بعد أن
كان بوريثانية صارمة . كما أمست الحرب ضربا جديدا من الرياضة البدنية .
وهنا كما فى روسيا دكتاتورية الرأى العام ، سواء أكانت ياملاء الحزب
السياسى ، أم ياملاء المجتمع ، تلك الدكتاتورية التى تمتد إلى كل ما يُستزك فى
الغرب لحرية الفرد كالمغازلة والعبادة والخذاء ومساحيق الزينة وألوان الرقص
وأفانين القصص والتفكير والأكل والترفيه . فكل شئ لكل الناس يجرى
على وتيرة واحدة : هناك طراز موحد فى الجسم والملبس والروح للرجل
الأمريكى ، وللأمريكية بخاصة ، ومن يخرج على هذه الأوضاع ، أو يجترىء
على نقدها علنا - يصبح طريدا الرأى العام . ذلك فى نيويورك ، وذلك فى
موسكو أيضا . وأخيرا هنا صورة للاشتراكية الدولية أو الرأسمالية
الدولية تكاد تكون نفس الصورة الروسية ، وتمثلها الاتحادات الاقتصادية
التي تدبر وتوحد الإنتاج والتوزيع طبقا لخططة مرسومة دقيقة التفصيلات .
وذلك كما فى روسيا . إن هذه الهيئات تمثل سادة أمريكا الحقيقين كما هو الحال
هناك . إنها إرادة القوة « الفاوستية » ولكنها القوة التى انتقلت من العضوية

النامية إلى الآلية الفاقدة الروح . إن إمبراطورية الدولار التي تنظم أمريكا كلها إلى سانتياغو وبونيس إيرس والتي تسعى قبل كل شيء في تقويض الاقتصاد في غرب أوربة وإبادته ، ولا سيما الاقتصاد الإنجليزي في كل مكان ، والتي حُجِنَت النزعاتُ الاقتصادية قوتها السياسية - إن إمبراطورية الدولار هذه لتتطبق بإحكام على إمبراطورية البولشفيك ، كما أن شعارها « آسيا للأسيويين » يتفق في الجوهر مع فكرة مذهب مونرو فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية ، تلك الفكرة التي يمكن تصويرها في هذه العبارة « أمريكا كلها لاقتصاد الولايات المتحدة » هذه هي الفكرة النهائية في تأسيس جمهوريات مستقلة في كوبا وبها ، وفي التدخل في نيكاراغوا وفي سقوط رؤساء الدول المتعنتين بقوة الدولار ، وذلك في أقصى الجنوب .

ولكن هناك وجها آخر لهذه الحرية في حياة موجهة توجيهها اقتصاديا خالصا ، هذه الحرية المُسَعَّرَة من كل سياسة أو تشريع : لقد تولد منها دول بحرية اخذت قوتها تطغى على قوة إنجلترا ، وتسيطر على محيطين ، وأصبح لها مستعمرات : الفلبين ، وهواي ، وجزائر الهند الغربية ، ثم ادى الأمر بالمصالح الاقتصادية وبالدهاية الإنجليزية أن تجرّأها إلى خوض غمرات الحرب العظمى ومقاساة معاركها بالاشتراك فيها ، وبذا صارت الولايات المتحدة عاملا رئيسيا في السياسة العالمية سواء أعلنت ذلك وأرادته ام لم تعلمه ولم ترده . وأصبحت الآن مرغمة إما على التفكير والنشاط السياسى الدولى نحو الداخل والخارج ، وإما على الفناء في صورتها الراهنة . ولم يعد هناك أى أمل في الرجوع إلى الوراء . فهل الأمريكى أهل لهذه المهمة الثقيلة ؟ وهل يُسَّئِل لونا ثابتا من الحياة ام هو محض بدعة من بدع الأزياء الجسمانية

والفكرية والروحية .

ثم كم من سكان هذه الولايات لا ينتسبون بحال إلى ذلك الطراز الحاكم الأنجلو ساكسوني ؟ إننا إذا ما تركنا الزنوج جانبا بصفة قاطعة وجدنا أنه لم يهاجر إليها في العشرين عاما السابقة للحرب العظمى إلا قليل من الألمان والانجليز والسكانديناف على حين دخلها خمسة عشر مليوناً من البولنديين والروس والتشييك وصقالية البلقان واليهود الشرقيين واليونان وأهل الشرق الأدنى والأسبان والاطالين . وهؤلاء لم يندمج سواهم بعد في الأمريكية كما أنهم يكونون بروتارينية أجنبية مغايرة في تفكيرها ، وممثلة في الانسلا ، ومتخذة من شيكاغو مركز النقل ، وهم إلى هذا ينشدون الكفاح الاقتصادي الطليق من قيد القانون ، فهم يفهمونه على أساس آخر .

حقا ، ليس هناك حزب شيوعي ، كذلك لم يكن في دولة القياصرة أية هيئة للأغراض الانتخابية ، ولكن هناك هناك عالما سفليا قويا ذا طابع دوستويفسكي وأهداف قوة وأساليب انحلال ، ومعاملات خاصة ، عالما يمتد تأثيره إلى طبقات المجتمع البالغ الثراء بفضل الفساد المؤلف في الإدارة ووسائل الأمن ، ولا سيما تهريب المخور الذي بلغ بالانحطاط السياسي والاجتماعي أقصى درجته . إنه يحتوي الاجرام الحرفي كما يضم الجماعات السرية من نوع الكوكلو كس كلان ، ويشمل الزنوج والصينيين . كما يجمع العناصر المجذرة لسكل الأصول للأوربية ، وله هيئات ذات الفاعلية الشديدة بعضها قديم من نوع الكامورا الايطالية والجيربلا الأسبانية والنهليست الروسية قبل ١٩١٧ والتشيكي بعد ١٩١٧ : فاللينشن (١) (Lynching) وألوان الاختطاف للأشخاص ، والعدوان والاعتقال والسرقة والحرق - وسائل مجرمة منذ بعيد للدعاية السياسية الاقتصادية ، وزعماء هذه الهيئات من أمثال جاك دياموند وآل كابوني

(١) قتل الملونين في أمريكا بغير محاكمة

يقتنون الجواشق « الفيلات » والسبارات ، ولهم الأرصدة المالية التي تفوق
أرصدة كثير من الاتحادات الاقتصادية بل كثير من الولايات المتوسطة الدرجة .
وفي البقاع الفسيحة القليلة السكان تتخذ الثورات بالضرورة صورة مختلفة
عما هي عليه في حواضر غرب أوروبا . وترينا جمهوريات أمريكا الجنوبية
ذلك من دون انقطاع . إذ ليس فيها دولة قوية يكون من الختم سقوطها في
القتال أمام جنس ذي تقاليد قديمة ، ولا دولة تكفل صيانة النظام القائم
بفضل الاحترام لوجودها في ذاته ، فلا يلقى هنا « حكومة » قد يلوب فجأة
وينتهي إلى لا شيء ، وكثيرا ما دافعت الاتحادات الاقتصادية قبل الحرب عن
مصانعها إبان الاضراب بتحسيناتها الخاصة ورماة منافعها الرشاشة .

ففي « بلاد الحرية » لا تجد غير عزم المتمردين من الرجال على مساعمة
أنفسهم ، وما المسدس في جيب السروال إلا اختراع أمريكي . وهو من تصرف
من يمتلكه ومن لا يمتلكه على السواء . فمن زمن وجيز حاصر الزارع في
ولاية Lwa بعض المدن التي لم تشتت منهم حاصلاتهم بشئ محترم وأنذروها
بالاجاعة . ولبضع سنين خلت كان كل من يتحدث عن ثورة في هذه البلاد
يعد معقوما .

أما اليوم فقد أصبحت مثل هذه الأفكار مألوفة ، فإذا تمعل جوع المتعطلين -
وهنا أكرر أن جمهورهم ليسوا أمريكيين أقحاحا (مائة في المائة) ، إذا ما قضيت
مواردهم وفقدت المساعدة الحكومية لفقدان الفولة المنظمة باحصائياتها الدقيقة
الزمنية وإشرافها على المحتاجين : هل يفكرون إذ ذاك قوة قبضاتهم وارتباط
مصالحهم الاقتصادية بالعالم السقي ، وهل تكشف الطبقة العليا البدائية العقل
التي لا تفكر في غير المال في نشاطها مع هذا الخطر الهائل - هل تكشف فجأة
عن قوات معنوية كامنة تؤدي إلى بناء حق للفولة وإلى
استعداد رוחي للتضحية بالنفس والتفكير من أجلها بدلا من جعل الحرب

وسيلة للكسب ؟ أم سبقي للمصالح الاقتصادية الخاصة للبقاع المختلفة أقوى بما كانت ، لتؤدي من جديد كما حدث عام ١٨٦١ إلى انحلال البلاد إلى ولايات منفصلة ، وهي على وجه التقريب : الشمال الشرقي الصناعي ، والأقاليم الزراعية في الغرب المتوسط ، والولايات الزنجية بالجنوب ، ومنطقة ماوراء جبال الروكي .

وإذا ما تركنا اليابان جانباً باعتبارها الدولة الوحيدة في طموحها إلى تحقيق خططها الإمبراطورية في شرق آسيا وتجاه أستراليا تحقيقاً يتم في غير إزعاج فإن نجد دولة واحدة تبذل كل تضحية بكل شيء في سبيل تحقيق هذا الانحلال . هذه إنجلترا ، لقد فعلت ذلك مرة حتى أوشكت أن تعلن الحرب ١٨٦٢ - ١٨٦٤ حينما كان يبنى ويشترى للولايات الجنوبية سفن الحرب ولصوصية البحر (القرصنة) - في الموانئ الإنجليزية ، ثم تجهز بعد بنائها أو شرائها بالعتاد والرجال في مياه أوربية .

ولقد جهزت السفينة « آلاياما » بالبحارة البريطانيين ، لتحرق وتغرق السفن التجارية للولايات الشمالية حيث تجدها . ولقد كانت إنجلترا في ذلك الوقت سيدة البحار بلا منازع ، ولهذا السبب وحده لم تكن حكومة واشنطن لتجرؤ على إعلان الحرب . إن حرية التجارة لم يكن يعنى حينئذ إلا حرية التجارة الإنجليزية فحسب ، ولكن ذلك قد انتهى في عام ١٩١٨ ، فإنجلترا التي كانت في القرن التاسع عشر مصرف العالم لم يعد لها من الثراء ما يهيء لها أن تحرز قصب السبق في بناء الأساطيل ، ولم يعد لها إلى جانب هذا من السلطان ما يرد غيرها عن محاولة التفوق عليها .

إن الإحساس الباطني لتلك المرحلة التاريخية كان أحد أسباب الحرب ضد

ألمانيا ، كما أن شهر نوفمبر ١٩١٨ كان على مايحتمل - آخر فترة قصيرة تذوقت فيها تلك الدولة المولية (دولة الأمس) آخر وهم بانتصار عظيم .

وإذا غض النظر عن التأخر المستمر في بناء البوارج كما فرغنا من تبيانها ، وجدنا أن فكرة السيادة البحرية قد تقوضت من أساسها ، إذ ظهرت الطائرات إلى جانب الغواصات كسلاح متفوق . وبذلك أصبحت اليابسة وواء الساحل أهم من الساحل والميناء ، وكفت إنجلترا أمام أسراب حاملات القنابل الفرنسية أن تكون جزيرة بالمعنى الاستراتيجي ، لقد غرقت إنجلترا سيدة البحار مع البارجة الثقيلة في أعماق الماضي .

هذا إلى أنه لم يعد للأمة الإنجليزية في روحها وجيشها من القوة والشباب ما يهيء لها أن تتخطى عنوة وفي ثقة هذه الأزمة الرهيبة .

لقد جهدت إنجلترا وبذلت في القرن التاسع عشر في سبيل ممتلكاتها دماء ثمينة بسبب الهجرة إلى الدومنيون الأبيض ، وعصف المناخ في المستعمرات الملوثة ، وإنه ليعوزها قبل كل شيء الأساس الجنسي لطبقة قومية من الزراع . ولقد استهلكت الطبقة العليا الحاكمة منذ عصر النورمان والمكونة من جرمان وكلت ولا فرق مطلقا بين الاثنين ، ففي كل مكان يصل الى السلطة جموع السكان الأصليين ، الذين يسمون بالكلت تسمية خاطئة لأنهم يشعرون بالحياة شعورا فرنسيا مختلفا في نوعه - تتحول الصورة الأوليجاروكية القديمة للحكم البرلماني السامي الى لون آخر هو حكم الأحزاب في القارة بفوضاه ومعاركه الحزبية القذرة . ولقد وصف جالزورقي مأساة هذا الخرد في ادراك عميق مؤلم في قصته « فورسيت زاجا » . وبذلك انتصر اقتصاديا المثل الأعلى لنوى الإيراد الثابت على الأمبريالية الرأسمالية . نعم . ان فضلات عظمة من

الثروة الغابرة لا تزال باقية ، ولكن لم يعد هناك حافز لجمع ثروة جديدة عن طريق الكفاح . فالصناعة والتجارة تهرمان في أساليبيها في بطن ، وليس هناك النشاط المبدع الذى يخلق صوراً جديدة ، والذى تشاهد آثاره في أمريكا وألمانيا ، إن لذة الإقدام تحتضر ، وإن الجيل الناشئ ليظهر في الناحية الفكرية والخلقية ، وفي نظراته العلمية - انهياراً ونزولاً عن السمو المأثور الذى بلغه المجتمع الراقى الإنجليزى عن طريق التهذيب فى القرن الماضى وإنه لانهيار رهيب لا مثيل له ، إن النداء القديم : « إن إنجلترا تنتظر من كل إنسان أن يقوم بواجبه ، والذى كان قبل الحرب يحسه كل شاب إنجليزى من أسرة عريقة من إيتون وأوكسفورد - يحسه نداء موجهاً إليه وحده - قد ذهب مع الريح . وأضحى من الشائع شغل النفس بالمشكلات البولشفيكية واتخاذ الحب الجنسى هوى رياضياً ، وجعل هذا الهوى مهنة وجوهراً للحياة . وحينما اشتعلت الحرب لم يتسالم فى هم ويأس عمن يذود عن المثل الأعلى لبريطانيا إلا رجال الجيل الأقدم الذين كانوا يومئذ يشغلون المراكز الرئيسية ، ولقد بين « برناردشو » فى كتابه « إمبراطور أمريكا ، أن هناك فئة تفضل خوض حرب لا أمل فيها ضد تفوق القوى الأمريكية - تفضلها على إلقاء السلاح أمامها . ولكن كم يكون عدد هذه الفئة بعد عشرة أو عشرين عاماً ؟ لقد وضعت إنجلترا نفسها فى ميثاق وستمنستر عام ١٩٣١ على قدم المساواة التامة مع بلاد الدومنيون البيضاء فى مجموعة الأمم البريطانية فنزلت عن منزلة الصدارة ، وارتبطت بهذه الدول على أساس المساواة فى المصالح ، وبخاصة على أساس حماية الأسطول الإنجليزى . وغداً قد تتجه كندا أو استراليا دون اعتبار لأية عاطفة إلى الولايات المتحدة إذا وجدت

- بوصفها أحد الشعوب البيضاء - أكثر صرا لمصالحها ودفاعا عنها ، ووقوفها معها في وجه اليابان الصفراء .

لقد ساءت إنجلترا بمكاتها في سنغافورة ، وإذا ما ضاعت الهند لم يعد هناك معنى لمركزها في مصر والبحر الأبيض . إن « الدبلوماسية » الإنجليزية تحاول بأسلوبها العتيق محاولة عابثة تعبئة القارة الأوروبية لخدمة المصالح الانجليزية كجبهة للمدنيين أمام أمريكا ، وجبهة ضد البلشيفية أمام روسيا . ولكن هذه المحاولة قد أصبحت من دبلوماسية الماضي البعيد . لقد نالت إنجلترا في عام ١٩١٤ آخر نجاح هيأه لها القدر . وبعد فماذا يحدث لو تفاهمت روسيا وأمريكا للموقف في وجه الثورة الأخيرة للزهو الانجليزي التقليدي ؟ لاتظن ذلك مستحيلا فليس شيء منه بخارج عن نطاق الممكنات .

أمام مثل هذه الظواهر التي يتجمع فيها مصير العالم في ظلمة وإنذار لمدة قد تصل الى قرون - لن يكون للبلدان الرومانيكية الا أهمية أقليمية ، ودشها فرنسا التي أصبحت حاضرتها على وشك التحول الى تحفة تاريخية يستمتع بمرآها كفينيا ، وفلورنسا ، وأثينا في ظل حكم الرومان . وحين كانت السياسة العليا في أيدي قدماء النبلاء من الأصل الكلتى والجرمانى الذين ترد أصولهم الى ما بين عصر هجرة الشعوب وزمن الحروب الصليبية - وقد دام ذلك الى عصر لويس الرابع عشر تقريبا - حين كانت السياسة العليا في أيدي هؤلاء كانت هناك أهداف جليلة كالحروب الصليبية نفسها والمؤسسات الاستعمارية في القرن السابع عشر . ولكن الشعب الفرنسى لم ينفك من قديم الزمان يبغيض كل من يقوى من جيرانه ، لأن نجاحهم يجرح زهوهم ، يبغيض الأسبان والانجليز ، وهو أشد بغضا للألمان في كل من الدولتين الهاابسبورجية

والهوغزوليزية . وقد بلغ البغض العتيق بهذا الشعب لألمانيا حينما الجنون منذ فشل الانتقام لمعركة سادوفا . إن هذا الشعب لم يستطع قط أن يخطو بفكره في أغوار المكان والزمان لا في عالم السياسة ولا في عالم الفلسفة ولا أن يشبع نهمه إلى المجد إلا بضم الأراضى الواقعة على حدوده أو تخريبها . فهل هناك فرنسى صاف يهتز في أعماق نفسه للممتلكات الفسيحة في غرب أفريقية إذا تركنا جانباً كبار العسكريين ورجال المال البارزين ؟ بله الهند الأقصى (الهند الصينية) بل ماذا يعنيه من أمر الألزاس واللورين بعد أن استردا ؟ لقد زال عنها بعد هذه الحقيقة الفعلية ما كان لها من جاذبية أصبّت هذا الشعب .

إن الأمة الفرنسية لا تنفك تتكون بوضوح من عنصرين متباينين كل التباين في الروح : أحدهما جيروندى ، يمثل الأكثرية الساحقة ، ويتمثل في الفرنسى الإقليمى المتحمس لمثله الأعلى المائل في الإرادة الثابت ، إن كل ما ينشده لا يعدو الدعة في ظلال قومية أصبحت عقيمة متعبة لقذارتها وبخلها وبلاذتها ، والاطمئنان إلى مال قليل ونبيذ وغرام . لم يعد له مأرب ما في السياسة العليا ، وفي الأطماع الاقتصادية ، والقتال في سبيل أهداف الحياة العامة ، ذلك الفرنسى هو الفلاح والبورجوازي ، وفي الناحية الأخرى من الأمة نجد الشطر اليعقوبى ذلك العنصر الذى يضمحل يوماً بعد يوم ، والذى يعين مصائر الأمور في البلاد منذ عام ١٧٩٢ ، والذى طبع مع الوطنية الفرنسية باسم « شوفان » وهو علم لشخصية هزلية قديمة ظهرت عام ١٨٣١ . وهذا الشطر يتكون من الضنائط ورجال الصباغة وكبار الموظفين في الإدارة الحكومية التى جعلها نابليون ذات مركزية شديدة ، ومن صحفيي باريز ،

والنواب على اختلاف أحزابهم وبرامجهم - وينبغي أن نقرر أن النائب في باريز يقوم بعمل خاص لاجزئ - ثم من هيئات منظمة قوية كالمحفل الماسونى واتحادات المحاريين ، ويقودها ويستغلها فى الحفاء منذ قرن كبار رجال المال الباريزيين الذين يشترون الصحافة والانتخابات بالأموال . وفى الحق لقد أصبحت « الشوفونية » منذ زمن عملا تجاريا بأكمل ما يدل عليه هذا اللفظ .

وتعتمد سياسة هذه الطبقة العليا على خوف الأقاليم العميق من الأخطار السياسية الخارجية مما يكن نوعها ، ومن نزول قيمة الأموال المدخرة . ويركى هذا الخوف البالغ الصحافة الباريسية ، والطريقة التى تصنع بها الانتخابات ، وستبقى هذه الحال النفسية إلى أمد خطرا على البلدان المجاورة : على إنجلترا وإيطاليا وعلى ألمانيا ، سواء بسواء . وقبل عام ١٩١٤ بذلت فيها لخدمة مصالح إنجلترا وروسيا ، وإن السياسى المحنك فى أى بلد أجنبى ليستطيع فى يسر جعلها خاضعة لتصرفه ومشيئته . إن صورة «شوفان» تتحول فى مهل إلى مايمائل صورة دون كيشوت الأسبانى ، وقد أصبحت اليوم فى هزلها المتعاطف تثير سخرية نصف العالم . أ رأيت المغامر الشيخ الذى يجمع وراءه بعد عمر طويل من البطولة - أكبر كومة من الذهب فى العالم ويتسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، بكل ما يتصوره العقل من قطع الأسلحة ، ويحيط نفسه برهط من الخدم المدججين بالسلاح ، ويستعين بأصدقاء الأمس لينجدوه فى منزله الذى استحال حصنا ، ويطل من نافذته محتلجا مضطربا ، لا يكاد يتهاسك ، ثم هو يفقد رشده من الهياج حين يلح جارا قد بدا فيما يشبه التسليح ؟ هذه خاتمة تلك الأمة العظيمة التى قد ترونها فى أقاليم البحر الأبيض

وشمال أفريقية - تلك الإمبراطورية الإيطالية التي خلقها موسوليني إذا قدر لها الاستقرار بقيادته لتكتسب الثبات والالتحام الروحي . إن الإنسان ليعجز اليوم عن القطع بأن أية دولة من هذه الدول ستلزم صورتها الراهنة في منتصف القرن الحالى . قد تنطوى إنجلترا فى جزيرتها ، وقد تتحطم أمريكا ، وقد تسقط كل من اليابان وفرنسا فى أيدى جابرة من الشيوعيين ، وهما اليوم الدولتان الوحيدتان اللتان تدريان معنى الجيش القوى . أما روسيا فليس فى الإمكان مطلقا الحدس بما يحتمل أن تتعرض له فى المستقبل ، ولكن الخلاف بينها وبين إنجلترا فى الشرق ، وبين إنجلترا وأمريكا فى الغرب سيتحكم فى الحال العالمية الراهنة ، وفى كلتا الحالين ستتحط إنجلترا فى النواحي الاقتصادية والدبلوماسية والحرية والأدبية ، ولن تستطيع أن تسترد بعض ماتفقد من مراكز ولو لجأت إلى الحرب ، أفيعنى ذلك الاختيار بين الحرب والنسليم ؟ أم أن هذا الاختيار لن يظفر به المغلوب ؟

إن معظم الأنجلو ساكسون على جانبي المحيط يعتقدون أن صلة الدم والتقاليد من القوة بحال لا تجيز أن يقف أحدهما من الآخر مثل هذا الموقف الفاصل . ولكن القول بأن الدم أكثف قواما من الماء قد فشل فى محك الاختبار بين إنجلترا وألمانيا . إن الكراهية بين الأخوة كانت دائما أكثر منها بين الغرباء ، وهى معرضة لأن تتحول فجأة ولأسباب تافهة إلى ثورة نفسية تتفاقم ولا تهدأ .

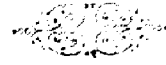
هذه حال العالم الذى يحيط بألمانيا ، فأمة فى مثل موقفها حرمت الرعامة والسلاح وقد أجهدتها الفقر والتمزق لانتستطيع أن تكفل مجرد وجودها . لقد رأينا الملايين يحزرون فى روسيا ، ويموتون جوعا فى الصين ، فلم يكن

ذلك عند غزوهم من الأمم الاخرى من الاخبار يعنى عليه القسيان من
غزوهم ومهما يحدث في حرب أوروبا من الأمور البالغة في السوء فلن يزعج
شيء منها إنسانا ما في خارجها أو يكدر صفوه، فالإنسان لا يرتعد فرقا إلا
أمام التهديدات ، أما أمام الواقع فيمتثل من فوره راضيا ، وسواء أصاب
الموت أفراد أم أمة فإنها لن تترك وراءها فراغا . ولقد كان كل إنتاجا معشر
الألمان - أمام هذه الحال الصخب ومُثُل الأحزاب السياسية ، والمشاحنات
العامة بين جماعات المحترفين وزوايا الغريلات . وإن التخلي عن السياسة العالمية
لا يحمي من عواقبها ، ففي نفس الأعوام التي ~~تكشف~~ فيها كولمبوس أمريكا
وفاستكوديجاما طريق الهند الشرقية ، والتي فيها شرع عالم غرب أوروبا يمد
سلطانه وثروته على سطح الكرة في هذه الأعوام أقفلت أبوابها
الشتاهوف ، (١) في لندن ، وهي آخر رمز لسلطان الهانزا القابر العظيم ،
واختفى بذلك التاجر الملاح الألماني عن سطح البحار ولم يعد هناك علم المساق
يخفق فوق ساريته . وتحولت ألمانيا بهذا إلى بلاد بلغ فقرها مبلغا يعجزها عن
انتهاج سياسة عالمية ، واضطرت إلى أن تدبر رعا حروبها بالمال الأجنبي
ولحدته ، وما كان هذا منها إلا في سبيل تبارك حقيرة من أرضها تتنازعها
دويلاتها القزمة . وهكذا لم تنل عندها الوقائع العظيمة الحاسمة فيها وراء بلادها
اية غاية أو فهم ، لقد صارت لا تفهم من السياسة إلا ما كان حقيرا ضئيلا إلى
حد لا يشغل إلا ذوى الشخصيات البالغة الضآلة .

والآن ، وفي هذا الخيل الفاصل هل تعود هذه الحال حتما إلى الظهور ؟
هل نبقى حالمين ، مجرد متحمسين متنازعين لتبطلنا الحوادث غير تاركة لنا

(١) مقر اتحاد الهانزا في لندن

شئنا يتم التاريخ صياغته كعظمة ما ؟ لقد رمى بالأزلام وحرك القِدادح
في سبيل سيادة العالم ، ولن يصيب القِذح المَعلى ويثبت في المعمعة
إلا الأقوياء ؟ أفلم يأنِ للألمان أن يُسهموا في ذلك الفصل ؟



الثورة البيضاء

هكذا يتجلى عصر الحروب العالمية الذى ظهرت طلائعه ، وقد بدا من خلفه العنصر الثانى لهذا الانقلاب الهائل وهو الثورة العالمية . ماذا تبغى هذه الثورة ؟ وما قوامها ؟ وماذا تعنيه هذه العبارة فى صميمها ؟ إن الإنسان ليدرك كنهها الكامل فى ضآلة إدراكه للمعنى التاريخى للحرب العالمية الأولى ، التى خلفناها وراءنا . لم تصبح المسألة كما يفهمها بعضنا - تهديدا للاقتصاد العالمى من جانب بلشفية موسكو ، ولا تحرير طبقة العال كما يفهمها بعضنا الآخر . فهناك المسألتان قائمتان عند سطح الموقف ، والمسألة الأساسية هى أن هذه الثورة لا يقتصر الأمر فيها على أنها فى بدء تهديدها فلقد غمرتنا فعلا لا منذ أمس أو اليوم فحسب ، بل منذ أكثر من قرن من الزمان وإن من خصائصها أن يشتبك النضال الرأسى بين الطبقات المتزعمة للشعوب البيضاء والطبقات الأخرى - بالنضال الأفقى بين الدول والأمم ، وقد بدأ فى المؤخرة فعلا الشطر الأبلغ فى خطورته لهذه الثورة ، أعنى الهجوم على الجنس الأبيض بصفة عامة من جانب كتلة الأجناس الملوثة جميعا ، فقد بدأت تشعر على مهل بجماعتها الموحدة .

ولا يسيطر هذا النضال على ما بين طبقات البشر فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى ما بين طبقات الحياة النفسية ممتدا إلى الأفراد . إن كلا منا يكاد يشعر فى نفسه بهذا الانشقاق فى الوجدان والفكر على الرغم من عدم إدراكه إياه .

لذلك يوفق القليل إلى الإدراك الواضح للجانب الذى يقع فيه فى الحقيقة .
ولكن ذلك نفسه يدل على الضرورة العميقة لحسم الموقف ذلك الحسم الذى
يجاوز بكثير الرغبة والفعل الذاتيين .

ولم يربح الناس كثيرا من العبارات الأخاذة الشائعة التى نشأت عن
البدعة المسيطرة على التفكير كالبشفية والشيوعية وحرب الطبقات والرأسمالية
والاشتراكية ، تلك البدعة التى تخيل بها لكل إنسان أنه يحدد المشكلة بدقة ،
وما كان هذا التخيل إلا لأنه لا يستطيع أن يبلغ بنظرته أعماق الحقائق .
وذلك نفس ما وقع فى مثل هذه المرحلة من الحضارات الغابرة مهما يكن
مالدينا من التفاصيل عنها قليلا .

ولكننا نعرف عن الحضارة القديمة ما يعد كافيا ومُغْنِيًا ، فإن أوج
الحركة الثورية فيها يقع فيما بين وقت تiberيوس جراكس ، وأخيه ووقت
سولا . وإن كان النضال ضد الطبقة المسيطرة وضد جميع تقاليدها قد بدأ
قبل ذلك بقرن كامل - على يد ك ، فلامينيوس ، ذلك الذى يعتبر المؤرخ
بولبيوس بحق أن قانونه الخاص بالأراضى الزراعية والصادر فى عام ٢٣٢
قبل الميلاد يعد بداية الانحطاط الخلقى لكتلة الشعب .

ولم ينزعج هذا التطور ، وينحرف عن سبيله إلا إلى حين وبصبغة مؤقتة
بسبب الحرب ضد هانيبال حينما أقجم قبيل انتهائها العبيد فى جيش المواطنين
(الجيش الأهلى) ومنذ اغتيال الجراكين كليهما ، وخصمهم العظيم سيبيو
أفريكانس الصغير - أسرع فى الاختفاء قوى التقاليد القديمة التى تصون
عادة صولة الدولة . ولهذا أفلاح ماريوس الوضع بل ماريوس الذى ليس فيه
من الرومانية الأصيلة شيء - فى تشكيل أول جيش لا يستند فى تكوينه ونأليفه

إلى راجب الخدمة العامة ، وإنما يعتمد على المتطوعين المأجورين ، وهذا
الذي كان من شأنه أن يثري روما الداخلية في استهتار وسفك للدماء ، فأيدت إلى
حد كبير الأسر القديمة التي تأصلت فيها منذ قرون الموهبة السياسية والشعور
بالواجب ، وإليها كان يعود الفضل فيما بلغته روما من المنزلة العالمية السامية .
وحاول سرتوريوس الروماني أن يؤسس من قبائل أسبانيا البربرية دولة
مقابلة هناك . كما دعا سبارتاكوس رقيق إيطاليا إلى إيادة الرومانية . وتبين
الحرب ضد يوجورتا ، ومؤامرة كاتلينا كيف سقطت الطبقات الحاكمة نفسها
وقد كانت عناصرها المجذرة على أهبة دائمة للاستنجد في أية لحظة بعدو
البلاد والسوقة إبقاء على مصالحها المالية القدرة . لقد كان سالوست المؤرخ
الروماني محقا إلى أبعد حد : فلقد قضى على شرف روما وعظمتها ، وعظمة
جنسها وفكرتها - المال المجرد الذي كان يتحرق إليه الغوغاء ، وأغنياء
المضارين جميعا ، ولكن هذه الكتلة الشعبية المنتمة إلى المدن الكبيرة
والمجموعة من كل صقع وواد لم تُسْعَباً وتنظم تنظيما داخليا كي تنال عن
طريق الكفاح حق الحكم الذاتي ، والتحرر من وطأة الطبقات الحاكمة
ولكن لتتخذ وسيلة إلى أغراض الساسة النفعيين والثوار المحترفين . وذلك
هو عين مايقع اليوم ، ولقد نشأت في هذه الدوائر - كما تنشأ اليوم -
الديكتاتورية السفلى ، وإنها لتنتجحة محتومة نهائية للفوضى الراديكالية الديمقراطية
لقد تنبأ بذلك بوليبيوس المؤرخ الروماني - وقد كان ذا حنكة سياسية
ونظرة خارقة إلى مجرى الحوادث - تنبأ به من قبل عصر ك. جراكس بثلاثين
عاما إذ يقول : إذا ما تكالبوا على المناصب الكبيرة ، واستطاعوا نيلها على
أساس غير أساس القضايل والمواهب الشخصية فإنهم يغدقون الأموال

ويجتذبون الجموع ويضللونهم بأية وسيلة ، وتكون النتيجة أن يعتاد الشعب بسبب هذا التكالب على المناصب - تلقى الهبات ، والتلف على نيل المال دون بذل عمل مقابل ، وبذلك تزول الديمقراطية ليحل محلها العنف ، وشريعة قبضة اليد ، فحين تجرد الجموع التي اعتادت أن تعيش وأن تبني أملها على ما يملك غيرها زعيما حازما طموحا تلجأ إلى استخدام قبضة يدها ، وإذا ذلك تتجمع وتمكث وتندفع هائجة في القتل والنشريد واغتصاب ما يملكه الغير ، ثم تسترسل في استباحاتها إلى أن تكمل فيه فتقع تحت السلطان المطلق لدكتاتور ما ثم يستطرد بوليبيوس قائلا : ثم تأتي الكارثة المكننة عن طريق ما تركبه هذه الجموع إذا ما اعتقدت أن نهم البعض لجمع المال قد أصابها بالأذى ، هذا في حين أن طمع البعض الآخر في تملك زهوها ليدفع به إلى مرتبة الغرور - قد أضلها عن لالبعيدا . وفي هذه الثورة الجنوبية سوف تنتهي تلك الجموع إذ أنها لن تصيخ السمع في جميع مقارضاها ومعاملاتها إلا للشهوات الجامحة ، وستكف عن طاعة ذوي الحل والعقد في الدولة ، بل لن ترضى أن يساووها في الحقوق ، وستطالب أن يكون لها حق الفصل في الأمور فإذا ما بلغت الحال هذا المبلغ فسوف تزين الدولة نفسها بأجمل الاسماء التي منها حرية الشعب ، وحكم نفسه بنفسه ، وإن كان الحكم في الواقع على أسوأ صورة : هي الأوكوكراتية أي حكم الغوغاء .

ولا يقتصر الأمر اليوم على أن هذه الديكتاتورية ليست غير تهديد للشعوب البيضاء إذ أنها تغمرنا بسلطانها الكامل الذي بلغت قوته ونزاهته مبلغا لا يهيم لنا أن نحسه على الإطلاق ، فديكتاتورية البروليتارية ، أي المستغلين لها والنقابات وموظفي الحزب في مختلف ألوانهم قد صارت حقيقة

فعلية مكتملة سواء أشكلت الحكومات منهم أم كانت في ظل سيطرتهم لخوف
البورجوازية منهم . تلك كانت مشيئة « ماريوس » في روما ، وما حطمتها إلا
فقره الشديد في الموهبة السياسية . أما ابن اخته قيصر فقد كان على أكبر
حظ من « هذه الموهبة النفسية » ، فاستطاع أن ينهى عصر الثورة الرهيب
بصوره الديكتاتورية من « عن » ، الديكتاتورية التي وضعت السلطة المطلقة
في يد شخصية متفوقة بعد هذه الفوضى الحزبية ، تلك الصورة التي أصبح اسمه
علما عليها على طول الزمان ، ولم يستطع قتله وما تلاه من عواقب أن يغيرا
شيئا ما من معالم ذلك الوضع ، فمنذ عصره لم تعد تدور رحى المعارك
حول المال وإشباع شهوة البغض الاجتماعي ، ولكن حول الاستئثار
بالسلطة المطلقة .

ولا صلة لذلك بالانضال بين الرأسمالية والاشتراكية ، وإن ما حدث
انعكس ذلك ، فطبقة كبار المالين والمضاربين ، وهي التي تناظر الإيكويستس
الرومانية التي اصطلاح خطأ على ترجمتها منذ « مومزن » ، بطبقة الفرسان - قد
أحسن التفاهم مع الغوغاء ومنظاتهم مثل نوادي الانتخابات ، وعصابات
المسلحة التي تشبه عصابات ميلو وكلوديوس في روما . فبدلوا الأموال في
الانتخابات والثورات وألوان الرشوة ، وبادلهم كـ . جراكس الأقاليم التي
أسلمها لاستغلالهم المطلق في ظل حماية الدولة - وانتشر فيها البؤس الشديد
بسبب النهب والربا ، وبيع سكان مدن بأجمعها في سوق الرقيق ، وأشد من
ذلك وأقسى ما كان من احتلال المحاكم ليفصلوا هم أنفسهم في جرائمهم ويتبادلوا
أحكام التبرئة . وهذا الحلف بين البورصة ونقابة العال قائم اليوم كما قام في
روما في تلك الآونة ، ويقوم أساسه على التطور الطبيعي لمثل هذه العصور

لأنه ينشأ بسبب البغض العام لسلطة الدولة ولزعماء الاقتصاد المنتج ، أولئك الذين يقفون حجر عثرة في طريق النزعة القوضوية لاكتساب المال دون بذل جهد ما . إن ذلك السياسي الغيّر ماريوس ، وكثيراً من زعماء الأحزاب الشعبين ، ومؤيديه : ساتورنينوس وسيسّنا - لم يختلفوا في تفكيرهم عن جراكوس ، ولذلك قام الدكتاتور القومي سولا بعد فتح روما عنوة بمجزرة مرعبة في رجال المال فيها فلم تقم لهم بعدها قائمة . ومنذ حكم قيصر اختفت عن مسرح التاريخ اختفاء كاملاً هذه الطائفة باعتبارها عنصراً سياسياً . لقد كان كيانها كقوة سياسية محكم الارتباط بعصر القوضى الحزبية الديمقراطية ، ولذلك لم يعد لها من بعده بقاء .

- ١١ -

وليس لهذه الثورة التي تدوم أكثر من قرن - أية صلة في أعماقها بالاقتصاد في ذاته . وهى عصر طويل من الانحلال لجميع حياة الحضارة على اعتبار الحضارة نفسها كائناً حياً . إن الصورة الداخلية للحياة تفتت ومعها المقدرة على التعبير عن ذاتها بالمنشآت المبدعة التي يؤلف مجموعها تاريخ الدول والأديان والفنون . يحدث ذلك التفتت بعد أن تنضج الحضارة وتبلغ أوج إمكانياتها ، ويتبع الفرد في كيانها الذاتي سير الجماعة : فأعماله ومسلكه وإرادته وتفكيره ولون تذوقه للحياة تُسكّر في حتميتها - على رغم قلتها - عنصراً من عناصر هذا التطور ، فإذا ما خلط ذلك بأمور الاقتصاد كان هذا الخلط من سمات الانحطاط المتغلغلة في نفسه ، سواء أحس ذلك أم لم يحسه . إن من البديهي أن صور الاقتصاد ليست إلا مظاهر حضارية على قدر الدرجة

المشاركة التي عندها الدول والأديان والأفكار والفنون . ولا نغنى صور الحياة الاقتصادية التي تنمو وتغنى في معزل عن إرادة البشر ، وإنما نغنى الإنتاج المادى للنشاط الاقتصادى الذى يضعه الإنسان اليوم من تفكيره في صف سواء مع الحضارة والتاريخ ، ويعتبر سقوطه ماديا وآليا - السبب الأصيل الجوهري في الكارثة العالمية .

إن مسرح هذه الثورة في الحياة وعلتها وتعبيرها هو « المدينة الكبيرة » التي تبدأ في الظهور في العصور المتأخرة من جميع الحضارات ، ففي هذا العالم الحجري والحجر تتجمع في اطراد متزايد الشعبية المجذرة التي اجتمعت من الريف الزراعى ، وهى الكم - فى معناه المرعب - من رمل بشرى لا صورة له ، يستطيع الإنسان أن يصوغه صوراً صناعية ، لاتبقي مع الزمن . هذه الصور هى الأحزاب والهيئات المنظمة طبقاً لمناهج ومُثل ، وقد ماتت فيها قرى انماء الطبيعى المشبع بالتقاليد التي كونتها الأجيال المتعاقبة ، وفقدت إلى هذا الخصوبة الطبيعية للحياة كلها ، أعنى غريزة بقاء الأسر والأجناس . إن الثروة النسالية وهى أهم خصائص الجنس السليم - تصبح ثقيلة على النفس ومثيرة للسخرية ، وتلك أخطر أمارات الأثرة في أهل المدن الكبيرة ، لقد أصبحوا هم أنفسهم ذرات للأثرة والأنانية ، وليست الأنانية بنقيض للاشتراكية التعاونية لهذه الأيام فلا يفرق بينها على الإطلاق إذ ليس في كومة من الذرات حياة أكثر مما في ذرة منها ، ولسكنها نقيض الغريزة التي اتصلت حياتها في دم النسل وفي العناية الإنسانية بأمره وفي ثبات اسمه على مر الزمن . ويتزعزع بدلا من ذلك على أرض شوارع المدينة الذكاء الكالح ، وهو تلك الزهرة الوحيدة ، والعشب الطفيل النامى في جموع عظيمة . إنه لم يعد بعد تلك الحكمة

المدبّرة العميقة للعشائر الريفية القديمة ، الحكمة التي تبقى صحيحة ما بقيت
العشائر التي تتبعها ، وإنما أصبح الفكر المحض الشائع ، فكر الصحف اليومية
والآداب الشائع ، والاجتماعات الشعبية ، الفكر من غير دم ، الفكر الذي
ينخر بنقده كل ما لا يزال قائما رافع الرأس من حضارة حقبة نامية .

حقا ، ليست الحضارة إلا نبذة ، وكلها كمثل تمثيل الأمة للحضارة - التي تعد
الشعوب الحضارية نفسها من إنتاجاتها السامية دائما - وكان انطباعها وشكلها
بطراز الحضارة الأصلية أقطع ، كلما كان هذا وذاك بدا نموها أخصب تشكلا
في بناء طبقاته ومراتبه ، وذا فوارق ملزمة للاحترام - بادئة بطبقة الزراع
المتأصلة ، وصاعدة إلى الطبقات المتزعمة في مجتمع المدينة ، فهنا يتمثل معنى
الحياة والمصير الشامل في سمو الصورة والتقاليد والتهديب والعرف ، وفي
التفوق للفظري للأسر السائدة والدوائر والشخصيات . إن مجتمعا - بهذا
المعنى - لا يستطيع أن تمسه يد التصنيفات والمثاليات التي يولدها الفكر ، وإلا
فقد كف عن الوجود ، إنه مجتمع يتكون من طبقات اجتماعية لا من
طوائف اقتصادية . إن تلك النظرة الإنجليزية المادية التي تطورت منذ آدم سمث
مع الرأسمالية المطردة الفخمة ، واشتقت منها ، والتي جعل منها « ماركس »
منذ قرابة قرن نظاما سطحيا منحطا - لن يدينها من الصواب أنها تحققت
في الفعل وسيطرت اليوم على كافة مناحي التفكير والنظر والإرادة بين
الشعوب البيضاء . وإنها لإحدى أمارات سقوط المجتمع ، ولاتدل على شيء
غير ذلك . وسيتسائل الناس في دهشة قبل أن ينصرم هذا القرن عن
طريق الأخذ في جسد وبصفة مطلقة بهذا التقويم للصور والدرجات
الاجتماعية على حسب أصحاب عمل وعمال ، ووفقا لمقدار المال الذي يحوزوه

الفرد أو ينشد حيازته كثرة أو ريع أو أجر ، أى على حسب مقدار المال لا على حسب لون الارتباط المقيد بالطبقة فى طريق حيازة المال وتشكيله فى صورة ملكية حقبة . إنه موقف البروليتين والأغنياء المحدثين الذين هم فى جوهرهم من الطراز نفسه ، إنهم عين الفئة التى ترعرعت على بلاط شوارع المدينة الكبيرة بادهنه باللص ومثير الزقاق إلى مضارب البورصة والسياسة الحزبية . إن كلمة المجتمع العريق تعنى أن هناك حضارة ، وهى التمتع بالصورة إلى أدق تفاصيل السلوك والتفكير ، الصورة التى بناها تهذيب طويل المدى قامت به أجيال كاملة من البشر : عرف صارم ، ونظرة للحياة يتغلغلان فى الوجود كله مع ألوف من الالتزامات والقيود التى ينسدر أن يدركها الوعى ، أو أن تعبر عنها الألفاظ وتلك الالتزامات والقيود هى التى تجعل من تسيطر عليهم وحيدة حية تمتد إلى ما وراء تخوم الأمم المختلفة ، وإن نبلاء الحروب الصليبية والقرن الثامن عشر لمن هؤلاء .

هذا ما يحدد المرتبة الاجتماعية ، أو التبعية للطبقة الراقية بتعبير آخر وذلك ما كان يدعى بين قبائل الجرمان بطريقة شبه خفية - بالشرف . ولقد كان ذلك الشرف قوة تتغلغل فى حياة الأجيال . وما كان الشرف الفردى إلا الشعور بتبعية الفرد المطلقة وأنه مسئول عن شرف الطبقة ، وشرف المهنة ، والشرف القومى . فلقد عاش الفرد فى حياة الجماعة ، وعاشت الجماعة فى حياته ، فكل ما كان يقوم به من فعل يجر معه إدانة الجميع ، ولم يكن موته مقصورا على الناحية النفسية إذا أصبح فاقداً للشرف ، وجرح كرامته وكرامة ذويه بسبب جريرته أو جريرة غيره .

وفى الحق إن كل ما يدعو به الناس واجبا أى أساسا لكل حق صميم ، ومادة

أصيلة لكل عرف سام - يعود إلى الشرف : فالزارع له شرفه ككل ذى مهنة والتاجر والضابط والموظف وأسر الأمراء كذلك ، ومن خلا من الشرف لا يكثر لأن يقف من نفسه كما يقف من أقرانه من حيث آداب اللياقة فهو وضع ، لأنه يناقض السمو في نظر كل مجتمع رفيع . هذه هي الضعة لا العوز والحاجة إلى المال كما يرى ذلك ويفهمه حسد الحاسدين في يومنا هذا ، إذ فقد الناس كل سليقة للحياة الرفيعة والحساسية السامية ، وانحطت آداب السلوك الرسمية لكل الطبقات والأحزاب عن مستواها ونزلت إلى المستوى الدهماني .

ولقد نمت في المجتمع القديم في غرب أوربة ، وهو الذى بلغ فى آخر القرن الثامن عشر من لون الحياة ورقة الصورة مالا مزيد عليه لمستزيد ، والذى أخذ فى كثير من خصائصه يصبح قصيا سهل كسره - فى هذا المجتمع نمت البورجوازية الإنجليزية البوريتانية الموفقة فى الأعوام التى تلت الأربعين الأولى ، وطمحت إلى بلوغ مستوى حياة كبار النبلاء ، بل استشرفت إلى الاندماج فيهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . وتتجلى قوة الصور ذات النسو القديم فى هذا الاستيعاب المستمر لتيارات جديدة من الحياة البشرية .

وقد نشأت منذ زمن أرستقراطية حقبة تفتح نهج النبلاء الأسبانيين ، ولوردات الإنجليز من ملاك المزارع الواسعة فى جنوب أمريكا الأسباني وشمالها الإنجليزي . وقد أيدت هذه الأرستقراطية إبان الحرب الداخلية (١٨٦١ - ١٨٦٥) وحلت محلها أرستقراطية ذوى الغنى المستحدث فى نيويورك وشيكاغو بنفحة ملياراتهم وسحر ثرواتهم المستفيضة . وبعد ١٨٧٠ أخذت البورجوازية الألمانية الجديدة تتطور إلى اللون الصارم لحياة طبقة

الضباط والموظفين البروسية . وهذا أساس الوجود الاجتماعى فكل من ترفعه
دمائته وفونه إلى الطبقة العليا - يجب أن تهذبه وتذبله صرامة الصورة وما يحتمه
العرف فإذا ما تمثلها ألقى بها إلى الأبناء والأحفاد فى اطراد ، وإن الطبقة
الريفية لتجدد فى اتصال لا ينقطع بالدم الثمين الذى يأتيا من أسفل ومن
ومن الخارج ، ويدل مدى ما تستطيع أخذه وتنقيته وتمثله من غير أن تزعزع
سلامتها - على مقدار القوة العميقة للصورة الحية .

وتنتهى هذه الصورة تماما حين تفقد بدايتها ، وحين تبيح تناول حتميتها
بالنقد بل حين ترضى أن تصيح إلى هذا ، إذ سيكون معنى ذلك فقدان النظرة
إلى حتمية التشكيل العضوى الذى يضح كل لون من الإنسان ومن النشاط
فى مرتبته الخاصة فى حياة المجتمع الشاملة ، وهذا يرادف معنى التشكل
العضوى الذى لا يسوى بين الأجزاء . نعم ، إن الإنسان يفقد الأحساس
الوجدانى الحسن بطبقته الخاصة ، ويفقد الترحيب بانخفاض الطبقة وتقبله
كأمر بديهى . وينتج عن هذا ، وفى مثل درجته من القوة - أن تفقد الطبقات
المنخفضة الرغبة فى النهوض بما يفرضه هذا الانخفاض من أعمال فيها
الاعتراف بضرورته وصوابه .

وهنا - كما هو الشأن دائما - تبدأ الثورة من أعلى لتخلى بعد ذلك الميدان
للثورات من أسفل ، هذا إلى أن الحقوق العامة لا يعطاها منذ قديم الزمان
إلا أولئك الذين لم يفكروا فيها أبدا ولم يطلبوها . إن أساس المجتمع الحق
عدم المساواة بين الأفراد ، هذه حقيقة طبيعية . فهناك طبائع قوية وأخرى
ضعيفة ، أناس خلقوا للزعامة وآخرون ليسوا لها أهلا ، جماعة مبدعة وأخرى
غير موهوبة ، شريفة وأخرى دنسة ، طموح وأخرى ساكنة . ولكل

منها مرتبتها في نظام المجموع . وكلما علا قدر الحضارة ، ودنا تشكّلها من
 تشكّل الكائن الحيواني أو النباتي السامي - كانت فوارق العناصر البانية
 أكثر ، وأنا أقول الفوارق لا الخصائص لأن الأخيرة لا يحتملها إلا الفهم
 وحده . إن العبد السليم الفطرة لا يفكر في النظر إلى الفلاح على أنه مساو له
 وكل رئيس عمال منتج لا يرضى عن نعمة المساواة تنبعث من جانب العامل
 الآخر . إن الحقوق المتساوية تخالف الطبيعة ، وهي علامة انحطاط المجتمعات
 الهرمة ونذير بيدم انحلالها المطرد ، وإن من الغباء في التفكير أن يبدل
 بناء المجتمع الذي قامت على رفع قواعده قرون من الزمان ودعمته التقاليد -
 أن يبدل شيئا آخر ، وهل يستبدل بالحياة شيء آخر ؟ إن الحياة لا يتلوها
 إلا الموت . هذا هو لباب المعنى وصميمه ، لا يريد الإنسان أن يغير ويحسن
 وإنما يريد أن يحطم ، ففي كل المجتمعات تهبط إلى الأعماق دون انقطاع العناصر
 المنحطة ، الأسر المستنفدة ، الأعضاء المنحدرة لأجيال بشرية سامية التهذيب
 المخفقون ذوو القدر الضئيل من الروح والجسم . وليس على المرء إلا أن
 يتطلع حوله لتطالعه في المجتمعات والمحال العامة والمواكب والمتهاوتين على
 المشاجرات - سخنات شتى لأشخاص شواذ في أجسامهم ، ليس في أدمغتهم إلا
 المشاكسة الكلامية ونزعة الانتقام ، إذ ليس في أجسامهم ما يزيد أهمية
 وخطرا على اللسان ، إنهم حثالة المدينة الكبرى ، هم الدهماء حقا ، والعالم
 السفلي بمعناه الكامل الذي ينهض في كل الأنحاء بالمقاومة والمضادة الواعية
 للعالم الرفيع . هم البرهيميون الأديبون ، والسياسيون ، والأشراف المنحطون
 ككاتيلينا وفيليب إيجاليتيه ودوق أورليان ، والأكاديميكيون المحطمون ،
 والمغامرون والمضاربون ، والمجرمون والعاهرات والمثالون وضعاف العقول ،

وبين هؤلاء بعض الذين يرقى لهم ممن يحملون بمثل ما مجردة . وينظم هؤلاء وأولئك في سلك واحد شعور غامض بالانتقام لما عكر عليهم صفو الحياة من سوء الحظ ، وانتفاء غرائز الشرف والواجب ، ونهم لايعوقه عائق بالمال يجمع دون عمل ، وبالحقوق تنال دون بذل واجبات . وهذا هو الجو الذي يظهر فيه أبطال الساعة لكل حركات الدهماء وللأحزاب الراديكالية . وفيه تكتسب كلمة الحرية معناها الدموي للعصور المُشَفِّية على الانحطاط ، أى التحرر من كل قيود الحضارة ، من كل لون من العرف أو الصورة ، من كل أولئك الناهين الذين يشيرون في أنفسهم حنقا بليدا على مارزقوه من رفعة المستوى ، وعظمة الحياة . إن الفخار ، والفقر الذى تُسَوِّطَن عليه النفس ، والقيام الصامت بالواجب ، والزهد فى سبيله ، أو فى سبيل العقيدة والعظمة فى حمل المصير ، والوفاء والشرف والتبعات ، والإنتاج ، إن كل أولئك مُشار إهانة دائمة لذوى الانحطاط وهوان الشأن .

لأكرر مرة أخرى أن الفقير ليس ضداً للسامى وإنما ضده الوضع . وإن الفكر والإحساس النازلين لهذا العالم السفلى يغريان أهله باستخدام الجموع المجذرة فى المدن العظمى وهم الذين فقدت غرائزهم الثقة فيها ، ليلغوا بهم أهدافهم وملاذم الذاتية من انتقام وهدم . لذلك تحقق هذه الجموع الضالة الرأى « بشعور الطبقات » ، « وبغض الطبقات » بالخطابة والكتابة المتصاتين ، وتصور لهم الطبقات المتزعمة : الأغنياء والأقوياء تصويرا يناقض الحقيقة ، ولا يحسرى مع الواقع ، تصويرا يبرزهم كجرمين ومستغلين . وأخيرا يتقدم إلى هذه الجموع من يعرض عليها نفسه لينقذها ويلى زعامتها . إن كل الحقوق القومية التى يتشدق بها الضمير المريض والفكر المتزعزع

في الطبقة العليا بطريقة عقلية (راسيونالية) تصبح مما تطالب به الطبقة السفلى في بداهة ، طبقة الذين حرّموا إرثهم ، وما يطالب بها من أجل الشعب لأنها تُعطى دائما من لم يفكر قط في المطالبة بها ومن ليس له شأن بها ، وهذه الحقوق لم تكن مخصصة للأمة ، ولكن للجنّة التي تدعو نفسها ممثلي الأمة ، والتي تُؤلف الآن عصابة حزبية راديكالية اتخذت من الحرب ضد القوى المشكلة للحضارة حرفة ، والتي تسلب الجموع تبعاتها بوساطة حق الانتخاب وحرية الصحافة والإرهاب .

هكذا تنشأ النيهيليستية ، وهي ذلك البغض العميق من جانب البروليتي لتصوره المتفوقة بمختلف ألوانها ، للحضارة وهي كيانها وجوهرها ، للمجتمع الرفيع كحامل وكنتيجة تاريخية لها . إن مما يملؤه حنقا بليدا أن يكون شخص ما على صورة يسيطر عليها ويظمن في ارتياح إليها على حين يحس فيها الوضع قيدا لا يستطيع أن يملك معه حرية الحركة ، وأن تكون الكياسة وحسن الذوق وملكة تقدير التقاليد وتذوقها أمورا لا تورث إلا عن حضارة رفيعة لا تنها إلا عن طريق التهذيب ، وأن توجد دوائر لا ترى في الشعور بالواجب وفي الزهد هزما وسخرية بل ميزة وفضلا . من كل أولئك تفيض نفسه حنقا خامدا . ذلك الحنق الذي كان في العصور الماضية يقبع في الأركان حيث ينفث سموه كترزيت (١) ، ولكنه اليوم يغمر الفطرة العامة للشعوب البيضاء في اتساع وضعة ، إن العصر الراهن نفسه صار وضعيا ، ولا يعرف

(١) شخصية كريمة الصورة من شخصيات الإلياذة ، تعد نموذجا للجبين ، بلغ من وقاحتها أنها كانت تسخر من أخيل وهو يبكي الأمازون ، بل سخرت من الأمازون نفسها

أكثر الناس مبلغ نصيبهم من هذه الضعة ، إن آداب السلوك في كل البرلمانات والميل العام للمشاركة في الأعمال التي لا يقرها الخلق النقي لما فيها من ربح ينال دون بذل ما يقابله من عمل ، ورقص الجاز والزنوج كتعبير نفسي لكل دوائر المجتمع ، وتلطيف النساء لوجوههن على أسلوب العاهرات ، ونزعة الأدباء إلى السخرية والاستهزاء في القصص والمسرحيات بالمجتمع الرفيع في دقيق مبادئه وصرامة مسلكه ، وما تظفر به هذه النزعة من الإعجاب والاستحسان العام ، ثم فساد الذوق الذي تفشى أكابر النبلاء ، ووجد سبيله إلى قصور الأمراء ، والتحرر من كل القيود الاجتماعية ومن صرامة العرف - إن كل ذلك ليس إلا سيطرة الدماء على الحياة العامة وذوقها ، وبيننا يسخر المرء من الصورة الرفيعة والعرف القديم لأنهما لم يعودا أمرين خلقين غير مقدر خطر الموقف وما يجر إليه من حياة أو فناء - إذا بهما يثيران في الناحية الأخرى البغض الذي يتوق إلى الإبادة ، والحسد لكل ما تستطيع اليد إدراكه من رفيع يراد به أن ينحط ويسفّل . وليست التقاليد والعرف هما اللذان يهيجان وحدهما النفس الوضيعة من قة الرأس إلى أخمص القدم ، إذ يهيجها كل لون من رقة الحاشية في الثقافة والجمال والجلال ، وما الجلال إلا الدقة في اختيار البزة ، وسلامة التصرف من نقد المجتمع ولوم الخطاء ، والعبارة المختارة ، والسيطرة الطبيعية على حركات الجسم التي تتم على التربية السليمة وضبط النفس . إن الوجه السامي في تكوينه والقدم الصغيرة التي ترتفع عن الأرض في خفة ورشاقة ليناقضان الديمقراطية . إن الدعة الوقور محل ساحة الملائكة وسباق الأيام الستة ، وإن الخبرة الأصيلة في الفن الرفيع والشعر القديم بل إن السرور بالحديقة المشذبة وقد جمعت رائع الزهر ويانع الثمر -

لأن ذلك يدعو إلى التدمير جرحاً . وإلى التحطيم . وللتفتيت بل إلى الرفق
والسحق . إن الحضارة حين تسمو عدو يجب إبادة لا شيء إلا لأن ما تبذره
وتخلقه ليس للجميع لمشقة فهمه ، وعدم إمكان تمثله في داخل النفس .

هذه نزعة النيهيلستية : لا يفكر الناس في تهذيب الجموع ورفعها إلى
مستوى الحضارة الأصلية لأن هذا عمل مجهود مضجر يفتقر إلى أسس
خاصة تعوز المجتمع ، وإنما يفكرون في أن ينزلوا بالطبقة الرفيعة إلى مستوى
الدهماء لتسود الضعة أو المساواة العامة . ويومئذ يصبح لاقتناء المال ، وإنفاقه
أسلوب واحد هو أسلوب الخبز واللحم فهما ما يحتاج إليه إنسان هذه الجموع
بل هما ما يفهمه . أما التفوق وآداب السلوك والنوق السليم فغرائب ، وكذا
الأفكار الخلقية والدينية والقومية ، والزواج في سبيل الفسل والأسرة وسيادة
الدولة تعد عنده من الطرز القديمة الرجعية . إن الصورة التي تظهرها شوارع
موسكو تبين الهدف ، ولكن ليحذر الإنسان الخداع ، فما انتصر هنا لم ينتصر
بروح موسكو ، إن موطن البلشفية هنا في أوربة الغربية ، وذلك منذ انتشار
النظرة المادية العالمية الإنجليزية للدوائر التي اختلط بها فواتير وروسوكطالين
طبعين ، تلك النظرة التي وجدت تعبيرها الفعال في يعقوبية القارة الأوربية .
إن ديمقراطية القرن التاسع عشر قد صارت بصفة حاسمة بلشفية لا تجد لديها
الشجاعة لمجاهة مظاهرها الأخيرة . فليس بين انتزاع الباستيل والجلالوتين
الدافعة للمساواة للعامة من ناحية ، والمثل العليا ومعارك الشوارع عام ١٨٤٨
عام البيان الشيوعي من ناحية أخرى إلا خطوة واحدة . وليس بين ذلك
وانهيار القيصرية الغربية التشكل إلا خطوة أخرى .

إن الشيوعية لا تهددنا ، فلقد أصبحت تحكمنا ، وإن فكرتها عن المساواة

لا تعنى إلا التسوية بين الأمة والدعماء ، وإن حررتها ليست إلا التحرر من الحضارة والانطلاق من مجتمعها الراقى .

- ١٢ -

وأخيرا يتبع الحضارة السامية شيء آخر تبعية محتومة ، فيدفع الطبائع النازلة الوضيعة إلى الحسد والبغض في ثورة وهذيان ، ذلك الشيء هو الملكية بمعناها الأصيل ، الملكية القديمة التى أورثها الآباء ، أو نماها صارم زاهد من عمل ذاتى فى عشرات السنين ، ثم تعهدت وكثرت للأولاد والأحفاد . ليست الثروة أساسا للتفوق فحسب فهى إلى هذا عاقبة وتعبير له لا فى طريق تحصيلها ولكن فى المقدرة على تشكيلها واستخدامها عنصرا للحضارة الحقة . لأعد القول فى صراحة مرة أخرى ، ولأصنع به وجه الضعة فى هذا العصر : ليست الملكية رذيلة ، وإنما هى موهبة لم يظفر بها إلا القليل ، وإنما لنتيجة لتهديب طويل خلال أجيال ممتازة . وقد يصيبها أحيانا مؤسسو الأسر الناشئة بتهديب ذاتى قام على أساس من الصفات العنصرية القوية التى لا ترجع إلى الموهبة العبقريّة وحدها لأنها وثيقة الصلات بالمحيط المهدّب والماضى المثالى . وليس كمها مهتما ، وإنما المهم نوعها ، وطريق حصول الإنسان عليها . وإن من ينشد الكم وحده ويتخذ غرضا فى ذاته ساقط وضيع ، ومن المستطاع أن يرغب المرء فى الملكية ويحوزها ويتوسل بها إلى القوة ، وذلك هو وضع ألوان النجاح الاقتصادى وراء الأهداف السياسية ، فلا بد من المال لإدارة ربح الحروب ، وتوجيه دفة الدول . هذا ما انتهت إليه الخبرة القديمة ، وأثبتته الأوضاع الراهنة : فهمه قصر حينما فتح بلاد الغال ونهبها ، وسيسل رودس

حينما استولى على مناجم جنوب إفريقية ليؤسس بها إمبراطورية تتلاءم مع ذوقه الخاص . ولن تدرك أية أمة فقيرة حظاً ما من ألوان النجاح السياسى وإن رأت فى الفقر فضيلة وفى الغنى خطيئة ورذيلة ، إن الملكية سلاح ، هذا هو المعنى الأخير الذى وعته وعيا تاماً وآمنت به إيماناً عميقاً البعثات الجرمانية الأرضية والبحرية ، فلقد بنوا السفن ، واجتذبوا الأتباع بما غنموه من كنوز . وإن سخاء الملوك يميز هذه الإرادة للقوة ، وهو نقيض الشراهة والبخل ، ونقيض إسراف المحدث النعمة ، ونقيض حب الخير الصادر عن طبيعة نسوية متهافئة . ولكن ليس هذا مجاله . إنى أتكلم عن الملكيات التى تعز بتقاليد الحضارة ، والتى تنبىء عن التفوق الداخلى ، وتمنح الامتياز على طبقات برمتها من الناس . تلك الملكيات ليست الكثرة من خصائصها : فقد تمثلها مزرعة صغيرة مُعَتَّى بها ، أو صناعة ذاهبة الصيت حسنة السمعة ، أو حديقة محدودة يتجلى لعين الناظر إليها مبلغ ما يبذل فى تعهدها وحياطتها من شغف وهوى ، أو منزل نظيف لمُسَعِدِّين ، أو بضعة من الكتب ، أو نماذج منقولة عن الفن القديم . إذ المعول عليه أن يقتدر الإنسان على أن يحيل هذه الأشياء إلى عالم شخصى يمتزج بذاته ، فالملكية الحقُّ روح بمقدار ما فيها من حضارة حق ، وما تقويمها بالمال إلا لون من سوء الفهم يدنسها ويُسَرِّتُق صفاءها ، كما أن توزيعها بعدموت مالِكها ضرب من ضروب القتل . تلك صورة الميراث عند الجرمان ، فلقد كانت فكرته لديهم أنه وحدة لا تنقسم عراها ، تتغلغل فيها روح من خلفها بعد قيامه على شئونها فهى مجموع لا يتجزأ ، ولكن من لى بمن يدرك ما أقول ؟ من لى بذى عين ثاقبة ، يحس الفارق الداخلى الذى يكاد يبلغ الميئافيزيكية بين الملكية والمال ؟

إن الممتلكات الحقة ذات ألفة بالغة بالمالك كالألفة المتوشجة بين المحارب
الألماني وأسلحته التي ترافقه الى قبره ، وبين الزارع والضيعة التي فليحها الأجداد
ورعوها ، وبين التاجر والمتجر الذي يحمل اسم رب الأسرة ذى الشرف
المأثور عن ذلك الطراز القديم من التجار ، وبين المصنع والصانع الأصيل
أبى سىء لا يعبر المال عن قيمته للمالك بل تقيم قيمته وتثوى فى ذلك
الالتحام بالمالك التحاما لا يزيله الا الموت ، ولهذا كان الملك الحقيقى فى معناه
العميق ثابتا دائما لا منقولا ، لأنه يلتصق بالمالك ، ويتألف من أشياء غـيـر
تلك الثروات التى لا تهدف الا الى الاستثمار ، والتى لا تحدد الا بالكم ، والتى
لا موطن لها . ومن أجل هذا تبذل الأسر الناشئة قصاراها فى سبيل الملكية
العقارية لأنها صورة أصيلة للملكية الثابتة ، على حين تهتم الأسر الغاربة المولية
بتحويل ملكيتها الى نقد ، وفى هذين الاتجاهين يتجلى فرق ما بين الحضارة
والمدينة .

إن المال أمر مجرد ، انه محض أداة لتقدير القيمة بلغة السوق التى يمكن
قياسها رياضيا بمقياس أى نقد ، إن فتنه الوحيدة قائمة فى امكان الحصول عليه
بين يوم وليلة بأية وسيلة ، وإن هذه الوسائل لتبدأ بألعاب الحظ والمصادفة ،
وبالسرقه عن طريق السطور وتنتهى بالأعمال المالية المتصلة بالسياسة ومضاربات
البورصات بمبالغ لا يملك الإنسان منها شيئا ، ويمكن فقدها فى كل لحظة . وفى ذلك
يتحد البروليتى ومحدث النعمة ، وفيه كذلك تبرز صلة عميقة بين البلشفية
والأمريكانية ، فما يملكه كل زعيم راديكالى من زعماء الأحزاب . أو كل
مضارب من مال يجب أن يعرض ليستمتع بمراه غيرهم . ان قصور اليعاقبة
الذين أثروا ، ورجال المال ذوى الحيلة منذ عهد الملزمين الفر نسيين فى القرن

الثامن عشر ثم المسيّلين (١) الأمريكيين - لتكلم بلغة صريحة . وكذلك كان الحال في روما القديمة حيث كان يسخر مارسيل ، وجيوفينال ، وبترونيوس من ذلك العرض لكتل الأموال المجموعة في سرعة .

حقا إن الإنسان حين يعطى ويبذل لا يشد إلا خدمة نفسه في الواقع ، فهو حين يشارك في مؤسسة خيرية أو يبذر ماله أو يهب منه لغيره يهمله أن يكون ثمة مشاهدون يعاينون ما يأتیه ، فلا خير فيما يبذل إن لم يعلمه العالم أجمع . إن الإنسان ليضطرب ويستمتع بالإنفاق للانفاق في ذاته ، ويلذ له أن يلعب دور ميسنياس لأنه قد سمع به . وهو بذلك ما يسمى في مونيخ Wurzen أى الغنى المحدث التوافق إلى المنح ومحاكاة تريماكيو (٢) . وهذا النوع من الناس يعنى كل أفرادہ بأن يشحنوا منازلهم بأشياء لا يفهمون منها شيئا ، وحسبهم منها ما دفعوه من أثمان - إن كل تجارة الفنون اليوم تقوم على هذا النوع ، وكذلك كانت حالها على عهد قيصر ، وأتفه نوع من هؤلاء المسرفين المستهترين وأسخفه يُعثر عليه أو به في الملاهى الليلية القذرة (الكباريات) حيث تبدو الأرباح الملوثة بين الخمر والميسر ، وقد برئت من هؤلاء منازل الطبقة الرفيعة من سكان المدن ذوى العرافة ، والضياع القديمة الأسر الحسيدة ، ولقد كان من آثار فقد الإنسان لروح الحضارة ، وطبيعة الاستمتاع التقليدى التى أعانتہ على أن يخلق الكثير من القليل ، والتى لم يعد فى مكتنة المال أن يشتريها - أن افترس الحسد لهذا اللون من التفوق قلوب ذوى الطبيعة الوضيعة ، ويجب ألا يغيب عن الذهن كل حين ولا سيما

(١) المليونيرين

(٢) شخصية هزلية فى قصة بيترونيوس الرومانى تمثل الاسراف والبذخ الأجوف

اليوم إذ افتتن الثوريون الوطنيون في ألمانيا بمثل الفقر العام ، والقذارة : كالراهب الشحاذ ، وكالماركسيين الذين يعلنون أن تملك أى قدر من الثروة يعد جريمة وخطيئة ، ويشيرون حربا شعواء على كل ما فيه حضارة رفيعة وعلى كل من يتفوق على غيره في المقدرة على تحصيل الملكية وصيانتها واستخدامها وما سرر فيها يعلنون إلا عن حسدٍ حملوه لهذه الكفايات التي تعوزهم جميعا - أقول : يجب ألا يغيب عن الذهن أن الحضارة العليا مرتبطة أحكم ارتباط بالتزرف والثروة ، إن التزرف - وهو التحرك البديهي بين أشياء الحضارة التي تتبع شخصيتنا - أساس العصور المبدعة جميعها ، وقوام ما تتمخض عنه من فن عظيم أودى وقضى نحبه لانقطاع الحياة الفنية الحقة منذ القرن الماضي ، تلك الحياة التي ازدهرت بين الخبراء والمبدعين لروائع الفن لا بين تجار التحف والسفنة والمتحذلقين والشعب بل الجمهور . إن الثروة التي تحرزها أيد قليلة في طبقات سائدة ، هي مع غيرها أساس تهذيب أجيال من الأدمغة السائدة عن طريق الصورة المثالية المحيط أدرك في تطوره مرتبة سامية ، لا يتأتى من دونها وجود حياة اقتصادية سليمة ، ولا تطور كفايات سياسية . قد يكون المخترع فقيرا ، ولكن مواهبه العظيمة لن تنضج ولن تستقر في شعب يتكفف الناس . ولا فرق بين مواهب المخترع والمواهب السياسية والفنية . وإلى هذا يرجع السر في الحال التي أصبح عليها الشعب الألماني منذ عام ١٦٤٨ ، ذلك الشعب الغريب عن العالم ، المؤلف من نظريين وشعراء وموسيقيين ، وتلك نواح لا تتطلب مالا . لقد خلط ولا يزال يخلط بين الأوهام الرومانتيكية والسياسة لأن الأولى لا تكلف شيئا غير النجاح . ولكن الثروة فكرة نسبية ، فما كان يعد عام ١٧٧٠ في إنجلترا ثروة قليلة عُدّ في بروسيا ثروة كبيرة ،

وكذلك الفقر ، فقد كان النبلاء البروسيين في عصر رخائهم فقراء ، وإن لم يحسوا ذلك الفقر في ذاته ، ومن أجل هذا كانوا حين يقاسون إلى أشراف الإنجليز فقراء في مواهبهم ، فالمواهب على الجملة تتطلب حياة المجتمع الراقى ليتولى تهذيبها وصقلها . إن العوز في الملكية الواسعة أو الإيراد الكبير ليس سوء حظ ولا بؤسا ، كما أن وجودها قل أن يعنى حسن الحظ بمعناه المألوف . وإن الإحساس بالفوارق ليس وليد الأمر الواقع في ذاته ، وإنما هو أثر للتفكير فيه ، وإن التبعة في هذا الإحساس لتقع على الحسد وحده ذلك أن الإنسان لا يشعر بالبؤس إلا إذا ثار حسده فتقزز بحياته المتواضعة ، ولقد كانت هذه مهمة الديماغوجيين في كل العصور . لقد كان الرجل الفقير يشعر بالسرور من غير حسد في نور مبرج أيام «ألبريخت ديرر» وهو يعايش الطبقات العليا ويعاين أهبته إذا كان يغمره شطر من بهاء مسقط رأسه وكان يدرك أن مستوى حياته متوقف عليها ، وأنه لن يشعر بسعادة قط إذا ما استبدل بمستواه في الحياة مستوى غيره ، وإن الصناعات والأجرام لفلاحة الأرض ليشعرون بتفكيرهم غير المهدب أن الملكية تبعة وهم وعمل فوق كل شيء ، ومنذ انتشر التفكير الراسيوني في القرن الثامن عشر ، وتناول الحياة والتاريخ ومصير الإنسان - هذب الحسد وفق خطة وضعها العالم السفلي لمختر في السياسة وكتاب العصر الديموقراطيين أمثال روسو ، أولئك الذين كانوا يربحون منه ، ويشبعون به مشاعرهم المريضة . ذلك الحسد الذي ما كان ليخامر شعور العامل الكفء المجد ، فما أبعدته عن طبيعته . ولقد تحولت وتطورت الرغبة الشرهة في ملكية الآخرين ، التي أصبحت تسمى «مسروقات» من دون اعتبار لما أفرغ فيها من عمل ومقدرة ، هذه الرغبة الشرهة تحولت

إلى نظرة عالمية ، وأنتجت سياسة سلفية تلامها .

وحينئذ تبدأ الثورة الاجتماعية في اتخاذ نزعة اقتصادية . تختار للتعبير عنها نظريات مثيرة لا من جهة تنظيم الاقتصاد وتحديد أهدافه ، بل من جهة النظرة إلى قيمة النقدية لمستثمراته ومحصولاته . وهكذا تخلق المقابلات بين الغنى والفقير للتحرش بينهما ، وإغراء كل منهما بالآخر ، ويصبح الأمر أمرا امتلاك كل موجود قابل للتحويل إلى نقد ، امتلاكه عن طريق القسمة أو الملكية الشائعة ، ثم تدمير مالا يستطاع امتلاكه لئلا يتمكن أحد من حيازته والانتفاع به . ومن هذا الشعور والتفكير اللذين اختلجا في نفوس من يطلقون على أنفسهم زعماء ، ونبضت بهما أيضا نفوس الطبقات الدنيا - ينشأ كل شيء مما كان يسمى في تاريخ روما القديم التوزيع المتساوي للملكية وما يدعى اليوم كفاح الطبقات ، والاشتراكية . إنه الكفاح بين الناحيتين السفلى والعليا للمجتمع ، الكفاح الذى تدور رحاه بين زعماء الأمم وزعماء الطبقة الدنيا الذين تصيح حيالهم طبقات العال محض أشياء ووسائل لأغراضهم الكفاح الذى تقوم فيه الطبقة العليا الهرمة العجوز بدفاع واهن على حين يقوم أعداؤهم الألداء بهجوم لارحمة فيه . وذلك إلى أن تقضى القيصرية الناشئة لديكتاتورية البروليتارية على النزعات الجراكية والكاتيلانية .

- ١٣ -

هكذا قد حصلنا على الأسس التى تحدد الثورة البيضاء فى مداها الكامل ، وأهدافها ، ومدتها ، وتطورها المنطقى ، ولم يكن ليقدم على هذا أحد من قبل بل لم يكن ليستطيعه قبل أن تبلغ بنا نتائج الحرب العالمية الأولى مستهل عقودها

الفاصلة. إن الشك الذى هو أساس النظرة التاريخية ليس أول الأمور كما أن احتقار البشر هو الأساس المحتوم للمعرفة العميقة للناس .

إن هذه الثورة لا تبدأ باشتراكية القرن التاسع عشر المادية ، ولا بيولشفية ١٩١٧ من باب أولى ، فلقد أخذت صورة انعقادها القانونى (١) منذ أواسط القرن الثامن عشر . ففى ذلك الوقت أخذت روح النقد الراسيونالية - التى سَمّت نفسها فى خيلاء فلسفة التنوير - توجه نشاطها المدمر من ميدان الأنظمة اللاهوتية للمسيحية ، والنظرة العالمية التقليدية للمثقفين ، تلك التى لم تكن إلا لاهوتية عارية من إرادة التنظيم - أخذت توجه نشاطها من هذا الميدان إلى الأمور الواقعة فى الحقيقة ، إلى الدولة ، إلى المجتمع ، وأخيرا إلى الصور المنظورة للاقتصاد ، وبدأت بتفريغ الأفكار المسماة أمة ، وحقا ، وحكومة من مدلولها التاريخى ، وبنت الفارق بين الغنى والفقير على أساس مادى بحث فى تضاد خلقى يعلن عن نفسه ، بدعاية مهيجة لاتنبعث عن عقيدة وحسن قصد . وبهذا يتصل الاقتصاد القومى الذى ظهر كعلم مادى أسسه آدم سميث حوالى عام ١٧٧٠ فى محيط هارتلى وبريستلى وماندويل وبنتام أولئك الذين جرموا على اعتبار الإنسان مجرد تابع للحال الاقتصادية ، وعلى تفسير التاريخ على أساس من السعر والسوق والبضاعة . فهو المؤسس لفكرة العمل لا على أنه جوهر للحياة ، ومهنة ، بل على أنه بضاعة يتجر فيها العامل لقد تجوهر كل ما يشكل التاريخ من العواطف والخصائص المبدعة للشخصيات والعناصر البشرية القوية ، تلك هى الإرادة المصوبة إلى الأمر والسيطرة ، إلى القوة والغنيمة ، هى النزعة للاختراع ، والبغض ، والانتقام ، والاعتداد

(١) بلغة المحاكم والجلسات

الفخور بالقوة الذاتية ، وما تصيبه من نجاح - هذا في ناحية ، وفي الناحية الأخرى الحسد والكسل والمشاعر المسممة للناقص القيمة ، وهكذا لا يبقى غير قوانين المال والتمن التي تعبر عنها الإحصاءات والمنحنيات البيانية .

وبجانب هذا يبدأ مذهب التعذيب الذاتي للمجتمع الراقى الأخذ في السقوط والبالغ من حدة الذهن وصفاته حفا موفورا يصرفه في السخر والدعابة ، والذي يصفق استحسانا لما يسد إليه من إهانة : و « زفاف فيغارو » تأليف بوماريشه التي مثلت برغم الحظر الملكي في قصر « جنفلييه » أمام الأشراف المبتسمين ، وقصص فولتير التي التهمت دوائر المجتمع الرفيع من لندن إلى بطرسبورج ، ورسوم هوجارت ، ورحلات جليفر ، واللصوص والديسة والحب ، وهذه الأخيرة هي المؤلفات المهمة الوحيدة للأدب الثوري - وكلها بحكم جمهورها الذي لم يكن قط من الطبقات الدنيا تدل على ما أسلفنا من حال هذا المجتمع ، أما ما كان يكتب في دوائر العقليين في المجتمع الرفيع كرسائل لورد شتسرفيلد وحكم الدوق لاروشفوكو ، ونظام الطبيعة للبارون هولباخ - فقد كان يعد إلى جانب الأولى للغته العميقة ، وفكرته الدقيقة غير مفهوم ، هذا إلى أن القراءة والكتابة لم يكونا قد ذاعا بعد في الطبقات الوسطى ،

أما زعماء الجماهير المحترفون للعالم السفلى في المدن ، الذين لم يتعلموا شيئا غير إلقاء الخطب وتسطير المذكرات فإنهم فهموا حق الفهم أن هذه الكتابات تتمخض عن ربح عبارات خلاصة براءة تتخذ وسائل للدعاية والتهيج بين الجماهير . وقد بدأت الاضطرابات في إنجلترا بقضية ويلكس ، الذي كان انتخابه لمجلس العموم يعاد ويحدد إذا ما حكم عليه لطعنه في الحكومة . ولقد كان

نداء «ويلكس والحرية» في المجتمعات والاضطرابات المنظمة يعتبر مطالبة بحرية الصحافة وحق الانتخاب العام بل بالجمهورية . وفي ذلك الوقت كان «مارا» قد كتب في إنجلترا للانجليز عام ١٧٧٤ كتيبه «سلاسل العبودية» . وقد نشأ عن الحركات الإنجليزية في هذه السنين ضياح المستعمرات الأمريكية عام ١٧٧٦ ، وإعلانها الحقوق العامة للإنسان ، والجمهورية ، وشجر الحرية وجماعات الفضيلة . ومنذ عام ١٧٧٩ ، وما يليه من أعوام نشأت النوادي والجماعات السرية ، وانتشرت في المملكة كلها ، وحاولت إشعال الثورة ، وأرسلت بزعامة الوزيرين شريدان وفكس إلى حكومة المؤتمر واليعقوبيين رسائل التهئة والنصح - ولولا أن البلوتوقراطية الإنجليزية المسيطرة كانت أكثر هممة من بلاط فرساي الخائر - لاشتعلت الثورة في لندن في وقت أكثر تبكيرا من ثورة باريز . أما في ألمانيا فلم يحدث ذلك إذ لم يكن هناك حاضرة ألمانية مركزية بها يلحقها من المهيجين السياسيين وأدباء الأركان والمجرمين المخترفين الذين كانوا يقودونها . لم يكن ثمة أحد من هؤلاء ، أما المثاليون فقد كانوا هنالك . وفي باريز لم تكن النوادي ولا سيما نوادي الفويان واليعقوبيين ببرامجها وصورة دعايتها وشعبها المنتشرة في أنحاء فرنسا - لم تكن إلا صورة للنوادي الإنجليزية ، التي استعارت من الأولى في مقابل ذلك - اللفظ الفرنسي «مواطن» Citoyen بعد أن ترجمته إلى الإنجليزية بـ Citizen وصاغت المؤنث الجديد Citizeness واستعارت إلى هذا عبارة الحرية والمساواة والأخوة ، وتسمية الملوك بالطغاة . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم ظلت هذه العبارات صورة للاستعداد التمهيدى للثورات ، ونشأت المطالبة العامة بحرية الصحافة والاجتماع كوسيلة لذلك ، وهذا هو

المطلب الرئيسى للبرالية السياسية ، لرغبة التحرر من القيود الخلقية للحضارة القديمة ، ولم تكن المطالبة بحرية الصحافة والاجتماع عامة مطلقا . وإن سماها كذلك الصارخون والكتاب الذين يرتقون منها ، ويهدفون من ورائها إلى أغراض خاصة . أما أفراد المجتمع القديم الذين شغفوا بالذكاء ، وهم المتعلمون الذين يناظرون الطبقة المتوسطة الحضرية فى القرن التاسع عشر ، أى ضحايا هذه الحرية - فقد رفعوها إلى مرتبة المثل الأعلى الذى لا يقبل النقد فى دوافعه . وإنا اليوم - ونحن لانواجه آمال القرن الثامن عشر فحسب بل مخلفات القرن العشرين - لنجد الموقف أخيرا يسمح بالبحث والتساءل : من هذه الحرية ؟ ولأجل من ؟ ومن كان يرشو الصحافة ، وينفق على وسائل الدعاية والتهييج ؟ ومن كان الراح ؟ لقد تبدت هذه الحريات فى كل مكان كاهى فى الواقع ، وسيلة للنيهليستية لتقصيب المجتمع ، ليتذرع به العالم السفلى إلى حقن جموع الدهماء فى المدن الكبيرة بالرأى الأكثر كفالة للنجاح ، وإنها لمستعدة للتأثر لما تراد عليه من رأى إذ ليس لها رأى خاص بها ، ويقول جوته : « لا يطالب بحرية الصحافة إلا من يقصد إساءة استعمالها ، ولهذا نجد تلك الحريات - بما فيها حق الانتخاب العام - تحارب وترد إلى نقيضها دائما بصفة مطردة حين تبلغ هدفها ، وتلقى بالسطة فى أيدي مستغليها ، وبحسبنا أن ننظر إلى فرنسا اليعقوبية عام ١٧٩٣ ، وإلى روسيا البلشفية وجمهورية نقابات العمال فى ألمانيا منذ عام ١٩١٨ ، لتساءل : فى أى العامين كان تعطيل الصحف أكثر وأشد : فى عام ١٨٢٠ أم عام ١٩٢٠ ؟ . لقد كانت الحرية دائما حرية الذين يرغبون فى اغتصاب السلطة لا الذين يريدون القضاء عليها .

هذه البرالية النشيطة تخطو فى اطراد منطقى من اليعقوبية الى البولشفية .

ليس ذلك تضاد الفكر والإرادة . وإنما هما صورتان المبكرة والمتأخرة ،
البدء والنهاية لحركة واحدة . ولقد بدأت حوالى عام ١٧٧٠ بتزعجات عاطفية
اقتصادية اجتماعية ترمى إلى تدمير المجتمع القائم على نظام الطبقة والمرتبة ،
فالإنسان يرغب أن يعود أدراجه إلى الطبيعة ، إلى القطيع المتماثل الوحدات ،
يجب أن يستبدل بالطبقات ما ليس بطبقة : المال ، والفكر ، المكتب
التجارى ومنصة المحاضرة أو الخطابة ، الحسبة والكتبة ، وأن تحل الحياة
الفاقة الصورة محل الحياة الزاخرة بها ، فيقضى على آداب السلوك ، والواجبات
وما يجب أن يستشعره الأدنى من تبجيل للأعلى . وحول سنة ١٨٤٠ تحولت
هذه النزعة السياسية الاجتماعية إلى سياسية اقتصادية ، تجعل هدفها المالك
من الزارع إلى صاحب العمل بعد أن كان هدفها من قبل رجال الطبقة
الارستقراطية ، ولم يقتصر ما يوعده أتباع هذه الحركة على المساواة
في الحقوق بل تعداها إلى أن يُـمَيِّزَ المعدمون فيما يصيبونه من هذه الحقوق ،
إن الحرية لم تعد للجميع إذ انتهى الوضع إلى دكتاتورية البروليت في المدينة
الكبيرة ، أعنى طبقة العمال . وليس في ذلك فارق في النظرة العالمية ، فقد ظل
الأمر ماديا ونفعيا ، وإنما الفارق في الطريقة الثورية لحسب ، فالديماجوجية
المحترفة تعبى شطرا آخر في الأمم لحرب الطبقات ، ففي عام ١٧٧٠ اتجهت
مترددة صوب الزراع والصناع في إنجلترا كما فعلت في فرنسا . إن كراسات
الشكاوى لنواب المدن الصغرى والريف عام ١٧٨٩ تلك التى كانت تمثل
صرخة الأمة لم يكتبها إلا الصائحون المحترفون . أما جمهور الناخبين فلم يكن
ليفقهها قط ، إذا كانوا على حظ من التقاليد المتأصلة حال بصفة مطلقة دون أن
يستغلوا فيتخذوا وسيلة وسلاحا . ولولا غوغاء الضواحي الشرقية لاستحال

ظهور حكم الإرهاب في باريس ، ولقد كانت الحاجة ماسة في المدينة الكبيرة إلى استخدام القبضات المعدة في غير انقطاع . وليس من الحق في شيء أن يقال : إن العوز الاقتصادي كان متفشيا ومجهدا ، فالضرائب والمكوس كانت من حقوق السيادة ، وحق الانتخاب العام لم يكن غير ضربة مسددة إلى بناء المجتمع ، وإلى هذا كان فشل حكومة الوفاق ، إذ لم يكن ليؤمن جانب الزراعة والصناع كأتباع للديماجوج المحترفين لما فيهم من احترام أصيل لفارق الطبقة : كانوا على وفرة في الغريزة وفقير في الذكاء الحضري ، كانوا مجدين وقد شدوا من المعرفة شيئا ، كان همهم أن يخلقوا المزرعة أو المصنع لأولادهم ، ولم تجد البراجم والعبارات الأخاذة الشائعة سبيلها إلى نفوسهم لتحديد بهم عن هذه الجأدة ، وتؤثر فيهم تأثيرا دائما .

وحول عام ١٨٤٠ لا قبل ذلك وجدت الديماجوجية الغرب أوربية الكاتبة الخطيبة التي انتهت في تطورها إلى صورة واحدة - الوسيلة الناجعة إلى بلوغ أغراضها في تلك الجموع المجذرة التي تجمعت حول الفحم في شمال أوربة ، والتي تعد نموذجا لصنف العامل الصناعي .

يجب أن يدرك الإنسان في جلاء حقيقة واقعة لم يخفها من أساسها غير ضباب المعارك السياسية الحزبية : تلك الحقيقة هي أن الشقاء الاقتصادي الذي أنزلته الرأسمالية البروليتارية لم يكن هو الذي أنشأ الاشتراكية ، وإنما أنشأتها الدعاية المهيجة التي خلقت هذا التصوير المتعمد للأمور كما حدث قبل عام ١٧٨٩ . حين خدعت طبقة الزراع البائسين فأعطتهم صورة زائفة كل الزيف لتتخذهم أتباعا مخلصين . وآمنت بذلك البورجوازية المتعلمة ، ونصف المتعلمة ، ولا تزال تؤمن به إلى اليوم . لقد حُففت بكلمة عامل منذ ١٨٤٨

هالة من القداسة ، دون أن يفكر الناس في معناها وحدود تطبيقها . إن طبقة العمال لا وجود لها في البناء الاقتصادي لأى شعب ، فما من علاقة تجمع عامل المنجم ، والبحار والحائك ، وعامل المعادن والنسج ، وموظف المصرف وعامل المزرعة ، وكناس الشوارع ، وتردد هذه الأخطا المتنافرة سياقاً متجانساً . ولكنها على رغم ذلك قد أصبحت حقيقة سياسية ، حزبا مهاجما يشطر الشعوب البيضاء شطرين : يقوم أحدهما على إطعام جيش من موظفي الأحزاب وخطباء الجماهير ومحررى الصحف ويمثل الشعب ، وعليه أن يضحي بدمه لأغراض هؤلاء الشخصية . وهذا هو معنى وجوده . إن مقابلة الرأسمالية والاشتراكية - وهما كلستان فشل في تعريفها فشلا ذريعا قدر عظيم من الأدب ، فالألفاظ الخلافة التى لها فرقة فارغ البندق لاتحدد لأنها لاتشتق من أية حقيقة ، وقصاراها أن تكون مثيرة مبهجة - هذه المقابلة بين الرأسمالية والاشتراكية قد زج بها ماركس فى علاقات الصناعة الإنجليزية الآلية ، ولم يأخذها عنها ، ولم يتأت له ذلك الزج إلا بإغفاله كل الذين يعملون فى الزراعة والتجارة والنقل والإدارة . وكان مبلغ القلة من مطابقة هذه الصورة لعالم الحقيقة وسكانه فى ذلك الزمن أن الجنوب أصبح منفصلا عن الشمال نظريا ، ويقع الحد بينهما على التقريب فى خط تقريبي ممتد من ليون إلى ميلانو . فى الجنوب الرومانى حيث يقل العمل وحيث مطالب الحياة محدودة ، وحيث لاخم ، وبالتالي حيث لاتقوم صناعة كبيرة . وحيث يختلف الجنس البشرى نفسه تفكيراً وشعوراً - تنشأ النزعات الفوضوية والسنديكالية التى ترى مثلها الأعلى فى انحلال كتلة الشعب ذات الشبه الكبير بالكائن الحى إلى جماعات صغيرة فاقدة للتنظيم السياسى ومكيفة بذاتها . أى جماعات

بدوية لا تعمل شيئا .

أما في الشمال حيث يستدعى الشتاء الصارم عملا أكثر صرامة ، عملا ضروريا لا يمكننا فحسب ، حيث ينضم الكفاح ضد البرد ، إلى الكفاح ضد الجوع منذ أقدم الأزمان - فينشأ من إرادة الحياة الجرمانية الموجهة إلى التنظيم الواسع . أنظمة الشيوعية المطلقة التصرف التي تستهدف الديكتاتورية على العالم أجمع .

ولقد أدت حقول الفحم في هذه البلاد الشمالية في أثناء القرن التاسع عشر إلى تجمع الناس والثروة القومية تجمعا لم يسبق له مثيل فصار للديماجوجية فيها وفيما وراء حدودها قوة أخرى بلغت الغاية في قوة دفعها ، وانتصرت الأجور المرتفعة لعامل المصنع الإنجليزي والألماني والأمريكي على أجور عمال الزراعة في الجنوب ، لا شيء إلا لأنها لم تكن أجور جوع بالذات ، وهكذا انتصرت الماركسية على نظريات فورييه ، وبرودون نتيجة لهذا التفوق الرأسمالي للوسائل الحزبية فحسب لم تعد الفلاحة محترمة من إحدى هذه النظريات ، إذ لم يبق لها باعتبارها سلاحا في حرب الطبقات إلا قليل من القيمة ، لأنها ليست في متناول اليد في أي وقت ، فلا يلبي أهلها على بلاط الشوارع ولأن تقاليدنا في الملكية والعمل تناقض أغراض النظرية الماركسية ، ولذلك تتجاهلها مشيعات البرنامج الشيوعي ، فالبرجوازية والبروليتارية ، عبارتان أخاذتان تروجان في سهولة ، وكلما كان المرء أدخل في السذاجة قل إدراكه لما يخرج عن هذا البرنامج .

وتبنى كل ديماجوجية برنامجها على حسب ذلك الشطر من الأمة ، وهو الذي تعتمد عليه في التعبئة لأغراضها . ففي روما منذ عصر فلايمنيوس إلى

ك. جراكس ، كان الفلاحون الذين رغبوا في الأرض ليزرعوها هم ذلك الشطر ، لذلك كان توزيع المنطقة الغالية جنوب نهر « البو » بوساطة الأول ، والمطالبة بتوزيع الأراضى العامة بوساطة الثانى . وقد قضى على جراكس أن الزراع الذين هاجروا إلى روما أفواجا للتصويت عادوا إلى أوطانهم لحصد المحصول . ومنذ ذلك الحين عولت الديماجوجية من أمثال سينا ، وكاتلينا على الرقيق ، وانصرفت عن الأجراء اليوميين المجدين ، كما حدث فى المدن اليونانية منذ عصر كليون ، عولت على الفوغاء المحترفين مهما يكن أصلهم ، الفوغاء الذين رغبوا فى أن يتخذوا من شوارع روما مجالا به يقيمون ويعلفون ويلهون ، شعارهم خبز ولهو . ولقد حوول طوال قرن اجتذاب هذه الجموع بالمغالة فى بذل المال إذ أصبحت من الكثرة حتى بعد قيصر على حال ظلت معها مثار خطر دائم على الجمهورية العالمية . وكلما ازداد هؤلاء الأتباع تفاهة وهانت أقدارهم كانوا أسهل قيادا وأسلس انقيادا واستخداما ، ولهذا كانت محاولة البولشفية منذ الكومون الباريزى فى ١٨٧١ التأثير فى العامل المحترف المجد القانع الذى يفكر فى مهنته وأسرته أقل جدوى منها على حثالة المدينة الكبيرة التى تأنف من العمل وتجنح للنهب والقتل . لذلك اتخذت الأحزاب النقابية الحاكمة فى ألمانيا منذ ١٩١٨ إلى أشد سنى التعطل عن العمل - اتخذت حذرهما لئلا لا يمكن التفريق القانونى بين المتعطلين وغير الراغبين فى العمل من الظهور . وفى ذلك الوقت قامت إلى جانب مساعدة المتعطلين المزعمومين الحاجة إلى العمال ولا سيما فى الريف . ولم يكن هناك من يرغب جادا فى منع ذلك ، وأسوأ استعمال صندوق المرضى من الألوف المهاريين من العمل ، لقد قامت الماركسية فى صراحة على رعاية العطالة وتهذيبها

في مبدأ أمرها . إن فكرة البروليتي في حقيقتها لا تهيم للسرور بالعمل ، وإن العامل الذي يستطيع العمل ، والذي يفخر بما ينتج ليس أهلا لأن يكون بروليتيا ، إنه يقف حجر عثرة في وجه الحركة الثورية ، لهذا يجب دفعه إلى الانحطاط الخلقى وتحويله إلى بروليتي ليكون آلة طيعة في يد هذه الثورة . هذه هي البلشفية الحققة التي وجدت فيها تلك الثورة أوجها ، والتي لم تصل بعد إلى خاتمها .

إن من خصائص سطحية التفكير للعالم الأبيض كله أن تعتبر هذه البلشفية مخلوقا روسيا يهدد بالغزو غرب أوربة ، فلقد نشأت البولشفية على الحقيقة في غرب أوربة ، وكان نشوءها نتيجة منطقية محتومة كالمحلة النهائية لديمقراطية ١٧٧٠ الليبرالية ، وكالنصر الأخير للراسيونالية السياسية ، أى لحماقة الرغبة في السيطرة على التاريخ الحى بالأنظمة الورقية والمثل العليا . إن الاندلاع الأول بنموذجها الكبير كان بعد معارك يونيه ١٨٤٨ متمثلا في الكومون الباريزى عام ١٨٧١ الذى أوشك أن يكتسح فرنسا جميعها . ولم يمنع ذلك غير الجيش وغير السياسة الألمانية التى أيدته أديبا ، فحينئذ لافى عام ١٩١٧ بالروسيا نشأة عن الحقائق الواقعة لعاصمة محاصرة ، مجالس العمال والجنود التى أوصى بها ماركس منذ ذلك الوقت - وهو فى الأمور العملية مغفل غر - كصورة ممكنة لحكومة شيوعية . وفى ذلك الوقت تمت المذابح المروعة التى اجتاحت الخصوم وكلفت فرنسا من الأرواح مافاق جميع خسائرها فى حرب ألمانيا . فى ذلك الوقت لم يكن الحكم على الحقيقة هم العمال ، وإنما كان الحكم هم تلك الحثالة الكارهة للعمل ، المؤلفة من الهاربين من الخدمة ، والمجرمين ، والقوادين ، والأدباء ، والصحفيين ، وبينهم كثير من الأجانب

بولنديين ، ويهودا ، وإيطاليين ، وألمانيين أيضا . لقد كانت تلك صورة فرنسية صميمة للثورة ، لم يجر فيها ذكر لماركس ، ولا لأحد من برودون وفورييه ويعقوبي سنة ١٧٩٢ . كان على اتحاد مفكك العرا من المدن الكبرى ، أعنى طبقاتها الدنيا - أن يسيطر على الأرض الزراعية والمدن الصغرى ويلزمها الخضوع لها ، وتلك فكرة نموذجية للفوضى الرومانية ، ولقد حاول القصاب « كابوش » مثل ذلك يؤازره الغوغاء الباريزيون المنظمون حرييا . وفي عام ١٩١٧ نقل ذلك إلى بطرسبورج نقلا دقيقا بأيدي غوغاء غربيين اتخذوا من طائفة مماثلة من العبارات الأخاذة المهيجة ذريعة إلى تحقيق ما نقلوا . على أن الناحية الأسبوية لهذه الثورة الروسية - وهي التي لم تكد تظهر في ذلك الحين ، والتي لم يُقدّر لها بعد النجاح في التغلب على الصور الغربية الشيوعية للحكم السوفيتي - قد عبرت عن نفسها لأول مرة في ثورة بوجاتشيف ١٧٧٢-١٧٧٥ الذي استولى على منطقة الفولجا وموسكو جميعها زمانا ، وهدد القيصرية . لقد قتل الفلاحون ذوو الحماسة الدينية ، وفيهم قبائل برمتها من القوزاق - كل من ظفروا بهم من ممثلي روسيا البطرسية المتبدية في صورة أوربية ، لقد قتلوا ضباطا وموظفين ، وكانوا أشد ضراوة بالنبلاء من النوع الجديد . ولقد كان ذلك يكون مآل ممثلي البروقراطية السوفيتية ، وسوف ترحب ذريتهم اليوم أو غدا بالنهوض بذلك في الواقع . إن بغض هذه الطبقة المسيطرة المعتنقة للأنظمة الأجنبية معن في القدم يرتد إلى ثورات الشترلتزينيين (١)

(١) Strelitzen حرس خاص أنشأه إيفان المرعب في أواسط القرن السادس عشر واطدكان جوهر الجيوش الروسية في حربها في القرنين السادس عشر والسابع عشر ويمتاز بالشدة والقوة ، وقد قضى عليه بطرس الأكبر ، وقصته شبيهة إلى حد ما بأنشكارية الدولة العثمانية .

على بطرس الأكبر . وإنه لبعض لا يستطيع تفكير الديمقراطيين والاشتراكيين في الغرب مطلقا استشعاره وتدوقه . هنا يتضح التضاد بين البلشفية الحققة الرائدة في أحشاء الشعوب البيضاء وما يلحق بها من الديمقراطية والاشتراكية أنفسهما ، وبين البعض الذى ينتظم كل سكان الأرض الملوئين للمدينة في مجموعها وتياراتها الثورية .

كيف تبدو تلك الطبقة الاجتماعية للمدينة الغرب أوربية التى تسمى نفسها فى إنكلترا راضية مستريحة « بالطبقة الوسطى » وفى القارة « بالبورجوازية » لأنها نسيت الفلاح وأغفلته ، والتى منذ ١٧٧٠ ، ولأسيما منذ ١٨٤٨ صارت حقيقة واقعة لتلك الثورة السفلية الزاحفة ، والتى تسخر منذ زمن بمرحلتها التمهيدية الليبرالية وبما طالبت به الحركة التنويرية الفكرية من حريات الصحافة والاتحادات والاجتماعات ، ومن حق الانتخاب العام ، بعد أن استغلتها إلى آخر حدود إمكانيات الانحلال ، أقول كيف تبدو تلك الطبقة الاجتماعية التى هذه حالها ؟ إنه لفصل من العار يتشوف إلى من يرويه من مؤرخى المستقبل ويرتقبه ، لقد تحملت الهجوم النيهليستى بعد أن بنتها الأمور الواقعة الإنشائية البدائية من السيادة والطبقة والملكية ، ثم فهمته ، ثم أشادت به وأيدته . وإن هذا لا تنحار فكري ، عُدّ فى القرن الماضى بدعة ذات شأن .

يجب أن أؤكد ماوسعى التأكيد أن هذا المجتمع الذى تم الآن فحسب انتقاله من الحضارة إلى المدينة مريض : مريض فى غرائزه ، ومريض لهذا فى نفسيته ، عاجز عن أن يدفع عن نفسه ، يحد لذة فيما يعانیه من إهانة وانحلال . ولقد استحرّ انحلاله منذ أواسط القرن الثامن عشر ، فانشق إلى دوائر ليبرالية وأخرى محافظه نهضت لمحض المعارضة ، للدفاع المستيئس ضد

الأولى . ففي ناحية عدد قليل من الناس رزقوا غرائز صادقة تنير لهم سبل الحقيقة السياسية ، وتكشف مايقع أمامهم ومصيره ، فيحاولون منع الواقع أو تلطيفه أو توجيهه وجهة أخرى ، هؤلاء شخصيات من نوع محيط سيبو في روما ، وقد أوحى مواقفها الفكرية إلى بوليبيوس مؤلفه التاريخي ، ثم برك ، بيت ، وانجتون ، وذررايلي في إنجلترا ، ومترنيخ وهيغل وبعدهما بسمارك في ألمانيا ، وتوكفيل في فرنسا ، لقد حاول أولئك جميعا الدفاع عن القوى الصائنة للحضارة القديمة : الدولة ، الجيش ، الشعور بالطبقة ، الملكية ، الزارعين ، ووقفوا للاعتراضات حيث كانت ، ولذلك سُخِرَ بهم ، وهُتِفَ بسقوطهم ، وسموا رجعيين ، والرجعية كلمة ابتكرها الليبراليون ، ومن عجب أن يطلقها بعد عليهم الماركسيون الذين رضعوا لبنانهم ونشئوا في حجورهم ، وهم يحاولون منع العواقب الأخيرة لأعمالهم . في ذلك الوقت يقع التقدم الممدوح . لقد كان هؤلاء في ناحية ، وفي الناحية الأخرى كان على وجه التقريب كل من فيه ذكاء المدينة ، أو على الأقل من يعجب به كعلامة للتفوق في الحاضر ، والقوة في المستقبل - المستقبل الذي أصبح اليوم ماضيا .

وهنا تبدو الصحافة كتعبير مسيطر للعصر ، إنها حدة الذهن المشغوفة بالتمسكة والدعابة تلك الحدة الماثورة عن القرن الثامن عشر بعد أن خففت وخلخلت لاستعمال ذوى الفكر العادى ، وهنا لن ننسى أن معنى كلمة نقد باليونانية Krinein الفصل والنقطيع والتفتيت . وهكذا تصبح الدراما ، والشعر الغنائى ، والفلسفة ، بل العلم الطبيعى وكتابة التاريخ - مقالات رئيسية وذييلية في الصحف اليومية تخاصم في تحد وقح كل ما هو محافظ . كل ما كان يدعو

يوما ما إلى التوقير ، ويصبح الحزب بديلا من الطبقة والدولة . وترتفع الثورة في صورة معارك الجموع الانتخابية الدورية وبوسائلها من مال وفكر ، بل من قوة بدنية تنتهج الأسلوب الجراكي - إلى وضع دستورى يحارب الحكم باعتباره معنى ومهمة للوجود كدولة ، أو يسخر منه ويهوى به إلى عمل حزبي . ولكن عمى الليبرالية وجبنها يسيران قدما ، فالتسامح يفاض على قوى حالة المدينة الكبيرة المدمرة ، وتمنحه منحادون أن تبتغيه وتنشده . وفي عاطفية مقرزة يعجب المجتمع الراقى في غرب أوربة بالنيهلست الروسين ، والفوضويين الأسبان ، وينتقل بهم من صالون إلى آخر . وفي باريز ولندن ، وفي سويسرا بخاصة لا يرعى نشاطهم الهادم فحسب بل يحمى وجودهم وتضان حياتهم في عناية . وتقف الصحافة الليبرالية منهم موقف المظاهرة والمناصرة ، فهي تدوى باللعنات على السجون الذى يذوى فيها أنصار الحرية وشهداؤها على حين لا تخط كلمة واحدة في العطف على أولئك الكثيرين الذين يبدمون بحماسة نظام الدولة الذابين عنه ، وينتهون بالجنود العاديين والشرط الذين تتمزق أجسامهم أشلاء في الهواء أو تشوه أو يذبحون .

إن فكرة البروليتارية التى خلقها القصد المصمم المتعمد من جانب النظرين الاشتراكيين - قد قبلتها البرجوازية ، وهى على الحقيقة ليست ذات اتصال ما بآلاف الأنواع من العمل الصارم ذى الخبرة : من صيد السمك إلى طبع الكتب ، من قطع الأشجار إلى قيادة القاطرات ، إنها فكرة يزدرىها العمال المجدون ذوو الخبرة ، ويستشعرون فيها إهانة ، وليس لها من هدف إلا أن تمزجهم بغوغاء المدن الكبيرة ابتغاء هدم النظام الاجتماعى ، ولكن الليبرالية باستخدامها كفكرة ثابتة جعلت منها محورا للتفكير العام

السياسى . وفى ظل عنوان « الطبيعة » نشأ أدب متهافت وتصور حقير رفعا
القذارة إلى فتنة جمالية ، والشعور والتفكير النازلين للمنحطين من الناس إلى
نظرة عالمية شاملة ، وأصبحت كلمة «شعب» لا تطلق على الأمة جمعاء ، وإنما
تطلق على ذلك الشطر من جموع المدن الذى وقف فى وجه هذا الاجتماع .
لقد ظهر البروليتارى على مسرح الحضرة الضيقة الأفق بطلا ، يرافقه الهارب
من العمل والمهيج والمجرم والداعرة البغى ، وأصبح النظر إلى العالم من أسفل
من منظور مقاهى الأركان والأزقة المتهمة الموبوءة يعد عصريا متفوقا .
وظهرت عبادة البروليتارى حينئذ فى الدوائر الليبرالية لغرب أوربة لافى
الروسيا عام ١٩١٨ .. وملك نفوس المثقلين وأنصاف المتعلمين صورة
للأمور مشقة بالعواقب : نصفها كذب ونصفها غباء ، بها يصبح العامل
هو الإنسان الحقيقى ، الشعب الحقيقى ، فيه معنى التاريخ والسياسة وهدفها ،
وهو مُثار هم الرجال الرسميين وإشفاقهم ، وينسب إلى جانب هذا أن الناس
جميعهم يعملون ، وأن منهم من يقوم بعمل أكثر مما ينهض به العامل وأهم
كالخترع والمهندس ومنظم العمل . ولم يعد هناك من يجرؤ على التنويه بمرتبته
وبطريقة تأديته للعمل كمقياس لقيمته ، إذ أصبح العمل مقيسا بالساعات
لامقوما بالجودة والبراعة . وصُوِّر العامل بأنه الفقير البائس الجائع المستغل
الذى حرم الميراث . وعليه قصرت كلمتا هم وضمك . فلا مدلول لها سواه .
ولم يفكر أحد فى أرض الزارع القليلة الخصب ولا فى خيبة محصولاته ،
وأخطار البرد والصقيع . وما يساوره من هم وخوف إبان بيع غلاته . ولا فى
الصناع البائسين فى المناطق التى تتكاثر فيها الصناعات الثقيلة . ولا فى مآسى
صغار التجار ، وصيادى السمك فى عرض البحار . والمخترعين . والأطباء

الذين يستبد بهم القلق وتخوف الخطر ، والذين عليهم أن يناضلوا في سبيل كل كسرة من زادهم اليومي ، والذين يهلكون بالآلاف دون أن يعنى بهم أحد . لا ينعم بالعطف الذين حرّموه إلا العامل ، وهو وحده الذى يؤخذ بناصره وتناط به العناية ، ويؤمن ، بل هو الذى يقدر ويعبد فى هذا العصر ، إن الدنيا تدور حوله . إنه مركز الاقتصاد ، ومدلل السياسة ما وجد الناس وما تحقق لهم كيان إلا من أجله ، فعلى سائر الشعب أن ينهض بخدمته ، وللمتفكك الساخر أن يستهدف بسخريته الزارع الفسّدم . والموظف الكسول . والتاجر الغاش . وتلك نعوت أملت بها السخرية المستهترة ودعك من جعل القاضى والضابط ومدير العمل الهدف المختار لبغيض النكات . أما العامل فأجل من أن يقتحم حماه بسخرية أو تعريض ، وناهيك من شأنه أنه لا يعد من سواء إلا متعطلين . فهو وحده العامل ومن عداه أناثيون أثرون . وحول هذا الشبح تهز البورجوازية جمعاء المباحر . وترى أن على كل من يعمل له شيئاً فى حياته أن يخز له ساجداً . إن حياته فوق مستوى النقد . تلك نظرة قامت البورجوازية بتحقيقها فى نجاح . كما أصبح يمثلوا الشعب المحنكون يتطفلون على مائدة هذه الأسطورة . ولقد ثابروا طويلاً على روايتها للعال حتى آمن هؤلاء بها وأحسوا أنهم أشقياء تساء معاملتهم . وفقدوا كل معيار لإنتاجهم وأهميته : فالليبرالية تجاه النزعات الديماجوجية ليست إلا الصورة التى فيها ينتحر المجتمع المريض . فى هذه اللوحة تسلم نفسها . وسيجدها فضال الطبقات الذى ثار فى وجهها وشن عليها فى مرارة وقسوة - مستعدة للتسليم السياسى بعد أن ساعدت بفكرها فى صنع أسلحة الخصوم وتطريقها . ولن يتهيأ درأ الخاتمة فى المستقبل لغير العنصر الخائف على ما كان عليه من ضعف

في القرن التاسع عشر ، وسوف ينهض بذلك .

- ١٤ -

من الذي أهاج إذن ، ونظم جموع هؤلاء الأجرين في المدن الكبيرة والمناطق الصناعية ، وأثارهم وغذاهم بتلك العبارات البراقة الخلاقة ، ثم دفعهم بالدعاية القذرة إلى إعلان حرب الطبقات على أكثرية الشعب ؟ إن ذلك لم يفعله العامل المجد المدرب ، أو الويش ، كما ذكرته في ازدرام بالغ الرسائل المتبادلة بين ماركس وإنجلز . يتحدث إنجلز في رسالته في ٩ مايو ١٨٥١ عن غوغام الديمقراطية الحمراء والشيوعية . وفي ١١ ديسمبر ١٨٥١ يكتب إلى ماركس : ماذا تكون حال الغوغام إذا فقدوا المقدرة على العراك . إن الصانع ليس إلا مجرد وسيلة للأغراض الذاتية للثوريين المحترفين ، يجب أن يعارك ليرضى حقدهم على القوى المحافظة ، ويشبع نهمهم إلى السلطة . ولو أريد أن يقتصّر تمثيل العمال على العمال أنفسهم لشغرت مقاعد الشمال في جميع البرلمانات . ليس بين مؤسسي البرامج النظرية وقادة الأعمال الثورية من أثر عنه أنه عمل بضع سنين في مصنع ما . وتألف بوهيمية غرب أوربة التي نمت فيها الشيوعية منذ منتصف القرن التاسع عشر من العناصر نفسها التي تألفت منها الليبرالية الثورية منذ ١٧٧٠ ، وسواء أخدمت ثورة فبراير ١٨٤٨ الرأسمالية أم أضرت بها في معارك يونية بعدها ، وسواء أكانت الحرية والمساواة للطبقة الوسطى في ١٧٨٩ ، أم للطبقات الدنيا في ١٧٩٣ ، ١٩١٨ . فإن أهداف مشعل هذه الحركات ودوافعهم الأخيرة هي في الحقيقة نفس الأهداف والدوافع الأولى . وإن الحال في أسبانيا اليوم لا تختلف عن ذلك في شيء ما ، وقد تصير

في الولايات المتحدة غذا كذلك . إنها الغوغاء الفكرية وعلى رأسها محطمو
المهن الأكاديمية ، وفاقدو الجدارة الفكرية والمصدومون في أرواحهم
بأية طريقة ، أولئك الذين ينشأ منهم ال Gangsters : رجال العصابات
للثورات الليبرالية والبولشفيكية . فديكتاتورية البروليتارية أى ديكتاتوريتهم
أنفسهم بمساعدة البروليتارية يجب أن تجعل انتقامها من السعداء وذوى الرخاء
آخر وسيلة لإطفاء الغرور المريض ، والشراسة الوضيعة إلى السلطة ، وكلاهما
وليد الاحترام المضطرب للذات ، وآخر تعبير للغرائز النالفة التى
أسىء توجيهها .

ولقد تعود الناس حين يذكرون كل هؤلاء المحامين والصحفيين والمدرسين
والفنانين والصناعيين أن يغفلوا طرازا هو أكثرهم قدرية ، أعنى القسيس
الغارب . يجب ألا ينسى الفارق بين الدين والكنيسة . فالدين هو العلاقة
الشخصية بقوى العالم المحيط كما تعبر عنه النظرة العالمية ، والعرف التقي ،
وموقف الزهد الشخصى ، أما الكنيسة فهى نظامية من القسس تجاهد فى سبيل
سلطانها الزمنى . وفى ظل لواء سلطانها هذا تجتمع صور الحياة الدينية ومن
يتبعها من الناس . ولهذا كانت العدو اللدود لكل الصور الأخرى للسلطة ،
للدولة ، للطبقة ، للأمة . وفى أثناء حرب الفرس قام كهنة ديلفى بدعاية خدمت
أجزر سيسى وكانت حربا على الدفاع القومى . واستطاع كيرش فتح بابل
والقضاء على حكم نابوتيد آخر ملك كلدانى ، لأن كهنة مردك تواطئوا معه .
والتاريخ القديم لمصر والصين مشحون بأمثلة من هذا النوع ، وفى الغرب قلما
كانت هدنة بين الملكية والكنيسة ، بين التاج والمذبح ، بين النبالة والكهانة ،
وما كان يقع هذا التهادن القليل إلا حين يجدان غنما أكثر فى تحالفهما على خصم

ثالث . . وإن مملكتي ليست في هذا العالم (١) ، هذا تعبير ينطبق على كل دين وإن خاتمه كل كنيسة . إن كل الكنائس تخضع بحكم وجودها لشروط حياتها التاريخية : فهي تفكر على أساس من القوة السياسية والاقتصاد المادى ، وتخوض الحروب باللونين السياسى والحزبى ، ويعرض لها ما يعرض لصور القوة الأخرى من أحداث الشباب والهرم ، والارتفاع والسقوط ، وهى فوق كل شيء تعجز عن الاستمساك بما يستدعيه الشرف تجاه السياسة المحافظة والتقاليد فى الدولة والمجتمع لا لشيء إلا لأنها كنيسة !!

فكل المذاهب الحديثة تكن عداء صميما للدولة والملكية ، للطبقة والمرتبة ، وشغفا عظيما بالمساواة العامة . على حين أن سياسة الكنائس الشيخة المسنة - على أية حال - محافظة فى ذاتها ، تنزع دائما إلى أن تكون ليبرالية ديمقراطية اشتراكية حيال الدولة والمجتمع ، وسرعان ما تتحول إلى التقصيب والهدم حينما تبدأ المعركة بين التقاليد والدهماء .

ولما كان الكهنة بشراً فقد توقف مصير الكنيسة على المادة البشرية المكونة لهيئة أشخاصها السريعة التغير فى اطراد . وإن الانتقاء الصارم نفسه ، وهو بالغ حد الكمال على وجه العموم - لا يستطيع أن يمنع الغرائز المنحطة والتفكير الساقط من أن يتكاثرا ويسيطرا فى أوقات السقوط الاجتماعى والانحلال الثورى للصور القديمة . فى هذه الأزمنة تظهر دهماء قسيسية تنحط بوقار الكنيسة وعقيدتها إلى حمأة المصالح الحزبية السياسية وتتحد مع قوى الانهيار وتساعد العالم السفلى على الانطلاق لهدم النظام الاجتماعى بالعبارات العاطفية كحب الغير وحماية الفقير ، ذلك النظام الذى ترتبط به الكنيسة نفسها

(١) من كلام المسيح فى الانجيل

ارتباطا قديرا لارجوع فيه . فالدين هو ذلك الذى يكون النفس المؤمنة .
أما الكنيسة فتقاس قيمتها بما فى بنائها من مادة قسيسة .

ولقد قام فى مستهل الثورة الفرنسية إلى جانب قطيع الأدباء المنحطين
الذين سخرُوا سنين فى مقالاتهم وخطبهم من الملكية والسلطة والطبقة -
الراهب الهارب فوشيه ، والأسقف الخارج تاليران ، وهما دوقان نابليونان
خائنات - لبلادهما ، هذا إلى أنهما من قتلة الملوك ولصوص الملايين من
الأموال . ومنذ ١٨١٥ أخذ القس المسيحى يتجه فى سرعة تتكاثر - إلى أن
يكون ديمقراطيا واشتراكيا وسياسيا حزبيا . ولم تقم اللوثرية التى توشك ألا
تكون كنيسة ، والبوريتانية التى ليست كنيسة أصلا - بوصفها هذين
بأية سياسة هدامة . ولقد انضم القس لحسابه الخاص باعتباره فردا - إلى
الشعب ، وإلى الحزب السياسى ، وخطب فى الاجتماعات الانتخابية والبرلمانات
وكتب فى المسائل الاجتماعية ثم انتهى ديماجوجيا أو ماركسيا . أما القس
الكاثولىكى - وهو أكثر تقيدا - فقد جر الكنيسة من ورائه فمضت فى طريقه
تقفوا أثره ، فاشتبكت فى الدعاية الحزبية أولا على أنها وسيلة فعالة لهذه
السياسة وأخيرا انتهت إلى أن صارت ضحية لها . ولقد كان فى فرنسا إبان
حكم نابليون الثالث حركة نقابية كاثوليكية ذات نزعات اشتراكية سنيديكالية ،
ولم تظهر أول صورة منها فى ألمانيا إلا منذ ١٨٧٠ ، وقد بعثها الخوف من
استئثار النقابات الحمراء وحدها بالسلطان على الجموع فى المناطق الصناعية ،
ولم يكن سرعان ما اتفقا . فكل احزاب العمال تشعر فى خفاء وغموض بتضامنها
جميعا مهما يكن تباغض جماعات الزعماء شديدا جارفا .

لقد انصرم زمن طويل منذ أحرزت وجهه نظر البابا ليو الثالث عشر

في السياسة العالمية أنصارا كثيرا ، ومنذ حكم رجال الإكليروس في ألمانيا أمير كنسي صميم كالكردينال كوب . لقد كانت الكنيسة في ذلك الحين تشعر بأنها قوة محافظة ، وتعرف معرفة عميقة أن مصيرها منوط بمصير القوى الأخرى المحافظة : سلطة الدولة ، الملكية ، النظام الاجتماعي ، ونظام الملكية وأنها تقف في حرب الطبقات على اليمين ، من غير ماسرط ولا قيد ضد القوى الليبرالية والاشتراكية ، وأن المستقبل مرهون بتخطي العصر الثوري كقوة . كل ذلك قد تغير . لقد ارتج التهذيب الروحي وتحكمت العناصر الدهمائية بين القسس في شئون الكنيسة بما تبذل من نشاط ، ومضت سيطرتها صُعُدا حتى طوت من يشغلون أعلى المناصب الكنسية ، فكان عليهم أن يؤثروا الصمت حتى لا يكشفوا عن عجزهم الستار ، فيبدو للعالم . على حين كانت الدبلوماسية الكنسية فيما مضى تساس من عل بطريقة متميزة وتحكم في سموها على الأمور من الوجهة التاكتيكية بحنكة عقودا من السنين . ثم أخلت الميدان في بقاع واسعة للأساليب المنحطة لسياسة اليوم ، للدعاية الحزبية الديمقراطية في الطبقة السفلى بحيلها المزدرة وحججها الكاذبة . فأصبح تفكيرها وفعلها في مستوى العالم السفلى في المدينة الكبيرة وانحطت الجهود التقليدية في سبيل القوة الزمنية إلى طمع ضئيل قائم في النجاح في الانتخابات وألوان التحالف مع أحزاب الدهماء كهدف لأنواع النجاح المادي . إن الدهماء من القسس الذين كانت أزماتهم في يد تمسك بها في صرامة قد أصبحوا يسيطرون بتفكيرهم البروليتاري على الشطر القيم للإكليروس . ذلك الذي يعتبر النفس الإنسانية أجل وأهم من صوته في الانتخاب ، ويهتم جديا بالمسائل الميتافيزيكية ، ويحتفل بها أكثر من صنوف

التدخل الديماغوجية في الحياة الاقتصادية . وما كانت لتقع منذ عقود من السنين الأخطاء التاكتيكية ، كما حدث في أسبانيا حيث خيل إلى القوم أن من المستطاع التفريق بين العرش والكنيسة في المصير . ومنذ نهاية الحرب العالمية انحطت الكنيسة في ألمانيا أكثر من كل شيء ، وهي تلك القوة القديمة ذات التقاليد التليدة الجامدة . وكان عليها لهذه الصفة أن تدفع غالباً ثمن الانحدار إلى مستوى الرقاق . ولم يكن هذا الثمن الذي بذلته إلا ضياع هيبتها بين أتباعها المؤمنين بها أنفسهم ، فلقد أثارت أتباعها ذوى القيمة القليلة إلى عراك الطبقات وإلى التعاون مع الماركسية . ففي ألمانيا بولشفية كاثوليكية ، وهي أخطر من البلشفية المحاربة للمسيحية . لأنها تنستر بقناع الدين .

ولقد نشأت جميع الأنظمة الشيوعية الغربية على الحقيقة عن الفكر المسيحي اللاهوتي ، فمن ذلك : طوبى ، مور ، والدولة الشمسية لكامبانيا لا دومينيكي ، وتعاليم كارلشتات وتوماس مينتزر من أتباع لوثر ، واشتراكية الدولة لفبيخته . وإن كل ما اشترك في الحُلم به والكتابة عنه فورييه ، وسان سيمون ، وأوين ، وماركس ، ومائة غيرهم - من مُثل المستقبل ليرجع إلى ثورة النفس الكهنوتية الخلقية ، وآراء الفيلسوف المدرسية التي أدت دورها في سرية تامة في الفكر الاقتصادي القسومي ، وفي الرأي العام في المسائل الاجتماعية . فما أكثر ما نجد من الحق الطبيعي وفكرة الدولة لتوماس إكويناس فيما كتبه آدم سميث - ولكن بعنوان مقلوب - في البيان الشيوعي ! إن اللاهوت المسيحي جد الشيوعية . إن الاستغراق المجرد في الآراء الاقتصادية ، البعيد عن كل خبرة اقتصادية يؤدي بنوع ما إذا ما سار في شجاعة وصدق - إلى أحكام فكرية ضد الدولة والملكية . وإن عوز النظر إلى الأمور هو وحده

الذى يمنع هؤلاء المدرسين الماديين من إدراك أن سلسلة تفكيرهم إذا ما بلغت نهايتها تعود أدراجها إلى مبدئها : الشيوعية المتحققة ليست غير البيروقراطية الطاغية . فلتحقيق المثل الأعلى لامناص من الديكتاتورية ، حكم الإرهاب ، القوة المسلحة ، عدم المساواة بين السادة والرقيق ، بين الأمرين والمطيعين ، ونوجز فنقول : نظام موسكو . ولكن ثمة لونين من الشيوعية : أحدهما شيوعية مؤمنة يتملكها جنون التعاليم ، والعاطفية النسوية وهى فى موقفها البعيد عن العالم والمعادى له تطعن فى ثروة السعداء الذين يقارفون الخطايا والآثام . وقد تطعن أحيانا فى فقر البائسين الشجعان . وهذه إما أن تنتهى «بطويات» مهمة أو بالانزواء فى النقشف بالدير ، فى البوهيمية «والأفاقية» داعية إلى تسخيف كل جهد اقتصادى ، وإلى جانب هذه الشيوعية المؤمنة شيوعية «دنيوية» سياسية واقعية ، تريد بوساطة أتباعها أن تحطم الطبقة الرفيعة حسدا وانتقاما منها أن تسامت بفضل شخصيتها ومواهبها ، تاركة إياها فى مرتبة منخفضة ، وقد تسعى بوساطة برنامج ما إلى أن تحشد الجوع ورامها إشباعا لرغبتها فى السلطان . وإن هذه الشيوعية الدنيوية لتتزع أيضا إلى التستر بقناع الدين .

والمركسية هى الأخرى دين ، لا كما عناه مؤسسها الأسمى . ولكن بما نسبه إليها الأتباع الثوريون . لها أولياؤها ورسلاؤها وشهداؤها وآباؤها الكنسيون ، لها أناجيلها وإرساليتها ، لها عقائدها ، ومحاكمها التى تقتص من من الزنادقة ، ومذهبها الأصيل (أرثوذكسيتها) وفلسفتها المدرسية ، وإلى كل ذلك لها قانون أخلاقها الشعبي ، أو على التحقيق قانوناها - للمؤمنين والملحدين - كسائر الكنائس . وهل يحدث فرقا أن تكون تعاليمها مادية

فى الصمىم ؟ وهل يعدد جمىع القسس الذىن ىتدخلون فى المسائل الاقصادىة
بأهاجة وإثارة - أقل مادية ؟ ما النقابات المسىحية إذن ؟ إنها بولشفىة مسىحية ،
هذه حقىقةأها فحسب . فمنذ بدأ عصر الراسىونالىة فى عام ١٧٥٠ وجدت مادية
باصطلاحات مسىحية ، ومادية من دونها . وإن الإنسان لىكون مادية
حىنما ىخلط فى فكر الفقر والجوع والبؤس والعمل والأجر بالنغمة القرارىة
الخلقىة فى الكلمات غنى وفقىر ، حق وباطل ، فىقف بذلك فى صف المطالب
الاجتماعىة والاقتصادىة البرولىتارىة ، أى مطالب المال . وإذ ذاك تحل عن
ضرورة عمىقة السكرتارىة الحزبىة محل المذبح المرتفع ، وصندوق الانتخاب
محل صندوق الإحسان ، وموظف النقابة محل القدىس فرنىس .

هذه المادية للمدن الكبىرة المتأخرة صورة للحكم والعمل العلمىن مهمما
تكمن العقىدة بجانبها . إنها لون النظر الاقصادى إلى التارىخ وإلى الحىاة العامة
والذاتىة ، وفهم الاقصاد لأعلى أنه حرقة ، ومغزى للحىاة بل على أنه الطرىقة
اللى بها ىغنى الإنسان أكثر ما ىستطاع من المال والاستمتاع بأقل جهد ممكن
أى على أنه «خبز وهور» . إن أكثر الناس اليوم قد فقدوا الشهور بمقدار
مادية كىانهم وافكارهم ، قد ىصلى الإنسان ، وىعترف متحمسا ، ولا ىفتر لسانه
عن ذكر الله ، بل قد ىكون قسىسا فى مهنته وعقىدته ، ولكنه برغم ذلك كله
ىكون مادية ، إن قانون الأخلاق المسىحى ككل قانون خلقى ، لا ىتمثل إلا فى
الزهد فحسب فمن لم ىحس ذلك كان مادية - « بعرق جبینك تأكل خبزك » -
لا بد من إحساس هذا المعنى القاسى للحىاة كشقاء ، وعدم تلافیه بالسیاسة
الحزبىة . ولكن هذا القول لا ىجدى بحال فى الدعاىة الانتخابىة البرولىتارىة . إن
المادى لىسعه ان يأكل الخبز الذى اصابه آخرون بعرق جبینهم : خبز الفلاح

والصانع والمخترع والمدير الاقتصادي . ولكن ستم الحياط . وكم من جمل
ولج فيه . ليس ضيقا على الغنى فحسب بل على من يغتصب رفع الأجور ،
وخفض مدة العمل بالاضراب والإتلاف والانتخابات ، وعلى من يوجه
هذا النشاط في سبيل سلطانه . إنه القانون الخلقى النفعى لنفوس الأرقاء ، ولا
أعنى الأرقاء من حيث وضع حياتهم فحسب . فنحن بهذا الاعتبار نعد
جميعا من غير استثناء أرقاء بسبب المصير المرتين بالمولد في زمن ومكان ما .
وإنما أعنى إلى هذا الأرقاء من حيث الطريقة الوضيعة التى بها يُنظر إلى
العالم من أسفل . وإن الأمر ليتوقف على نوع النظر إلى الثروة ، فبأى عين
ينظر إليها الإنسان : أبعين الحسد أم بعين الازدراء ؟ وبأى عين ينظر
الإنسان إلى من بلغ مرتبة القيادة بفضل ميزاتة الذاتية : أبعين الغبطة
والتقدير أم بعين البغض والتحقير ؟ ما شعوره إزاء صانع أقفال ارتفع
إلى مخترع وصاحب مصنع ؟ إن هذه المادية التى لا تفهم الزهد ، وترى فيه
هزلا . ليست إلا أنانية أفراد أو طبقات ، الأنانية الطفيلية لذوى القيمة
القليلة ، الذين ينظرون إلى الحياة الاقتصادية لغيرهم وللمجتمع على أنها هدف
يُعتصر منه بأقل جهد ممكن أكثر متاع مستطاع : «خبز ولهو» . وهنا
يعد التفوق الذاتى ، الجِد ، النجاح ، السرور بالعمل فى ذاته - شرا وخطيئة
وخيانة . إنه القانون الخلقى لحرب الطبقات ، يضم كل ذلك وينظمه تحت
عنوان «الرأسمالية» الذى لم يقصد منه أول الأمر إلا المعنى الخلقى ، ثم ينصبه
هدفا لبغض البرولتارى . هذا الى أنها تحاول من جهة أخرى مزج الأجرين
بالعالم السفلى للمدن الكبيرة فى جبهة سياسية .

لا يجوز لغير «العامل» أن يكون أنانيا ، لا يجوز ذلك للفلاح ولا للصانع .

إن العامل وحده هو الذى يملك حقوقا دون أن يكلف واجبات . أما غيره فلا حقوق له الى جانب ما عليه من واجبات ، انه الطبقة الممتازة ، الطبقة التى على غيرها أن يعمل فى سبيل القيام على خدمتها ، ان الحياة الاقتصادية للأمم لم تكن الا لتوفير الخير له وحده ، وما وجب تنسيقها الا لتقوم على رفاهيته دون سواء ، ان على الحياة الاقتصادية أن تُرفه عيشه ، ولا عليه بعد أن تهلك هذه الحياة او ان تبقى . هذه هى النظرة العالمية التى تطورت على يد طبقة ممثلى الشعب ، والحالة الأكاديمية من الأدباء والأساتذة إلى القسس . والى بها يحطون من روح الطبقات السفلى للمجتمع ليستطيعوا تعبئتها إشباعا لشهوة بغضهم ونهمهم إلى القوة . لذلك لم ينظر ماركس بعين الارتياح إلى الاشتراكيين العظام المحافظين فى تفكيرهم من أمثال لاسال المتعلق بالملكية ، وجورج سوريل الذى كان يرى أن أسى واجب للبروليتارية يتمثل فى الدفاع عن الوطن والأسرة والملكية . والذى قال عنه موسولينى : إنه مدين له بأكثر مما هو مدين به لنيته ، لم ينظر ماركس إلى هؤلاء بعين الارتياح ولم ينقل قط نص رأيهم الحقيقى .

ولقد انتصر من بين الأنواع الكثيرة للاشتراكية النظرية ، أو الشيوعية أخطأ وأقلها استهدافا للشرف ، أعنى النوع الذى نسق بأشد ما يمكن من الاستهتار رغبة فى إلقاء السلطة على الجموع - إلى الثوار المنحرفين . سواء أسى الماركسية أم لم يسم . والذى لا يعنيه أية نظرية تغذى الدعاية بالعبارات الثورية الخلابه ، ولا التنكر وراء أى ستار من النظرات العالمية اللاثورية ، وكل ما يعنيه ليس غير التفكير والإرادة العمليتين . فكل من كان وضيعا أو كان يفكر أو يشعر أو يعمل فى ضعة فلن يغير منه شيئا أن يلبس مسوح

الكهنة أو يهز الأعلام الوطنية : إن كل من يؤسس اليوم أو يدير نقابات أو إضرابا للعمال في أية بقعة على سطح الأرض يكاد يخضع حتما وفي سرعة شديدة للفكرية الماركسية ، التي تخون وتضطهد كل قيادة سياسية واقتصادية ، كل نظام اجتماعي ، السلطة والملكية ، لأنها تضم كل هؤلاء إلى كلية الرأسمالية ، وسرعان ما يجد بين اتباعه الفكرة التي أصبحت تقليدا ، فكرة اعتبار الحياة الاقتصادية على أنها حرب طبقات ، فعليها يعتمد إذا ما أراد استبقاء زعامته . لقد أصبحت الأنانية البروليتارية - في ضربة واحدة - في أهدافها ووسائلها الصورة التي تحققت فيها الثورة « البيضاء » منذ وقت يناهز قرنا من الزمان . ولن يحدث فرقا كبيرا أن تسمى حركة اجتماعية أو اشتراكية ، وأن يتشبث زعمائها برغبة المحافظة على مسيحيتهم أو أن يطرحوا عن أنفسهم النشبت بها . إن عصر ازدهار النظريات الإصلاحية للمجتمع يستغرق القرن الأول الصاعد للراسيونالية من « العقد الاجتماعي » لروسو ١٧٦٢ إلى « البيان الشيوعي » ١٨٤٨ . لقد اعتقد الناس وقتئذ كما اعتقد سقراط والسوفسطائيون من قبل سلطان العقل البشرى المطلق واستطاعته السيطرة على المصير والغرائز وتنظيم الحياة التاريخية وتوجيهها ، وأن نظام لينيه (العالم الأحيائي الشهير) لينتظم أيضا الإنسان كـ Homo Sapiens . لقد نسي الناس الحيوان في الإنسان ، وهو الذي ذكرنا بحيوانيته تذكيرا قويا عام ١٧٩٢ . لم يكن الإنسان أبعد قط عن « شكاكية » العارف بالتاريخ والحكام الحقيقيين في كل العصور الذين عرفوا أن « الإنسان شرير منذ نشأته » . لقد أمل الناس تنظيم الشعوب طبقا للبرامج المذهبية بقصد سعادتهم النهائية . ولقد آمن القارئون - على الأقل - بها ، أما مدى إيمان كاتب مثل هذه الطرويات المادية بها فمسألة أخرى .

ولكن ذلك قد انتهى منذ ١٨٤٨ ، وقد أصبح نظام ماركس أكثرها تأثيراً لأنه آخرها . فكل من يرسم اليوم برامج سياسية أو اقتصادية لإنقاذ الإنسانية ، يأتي بدعة قديمة عملة ، ويستثير الضحك . ولكن الأثر التهييجي لمثل هذه النظريات في الروس الغبية - ويقدرها لينين ٩٥ في المائة من العالم كله - لا يزال قويا ، وهي تزدداد في كل مكان حتى في إنجلترا وأمريكا ، اللهم إلا موسكو حيث يدعى القوم لأغراض سياسية بحت أنهم يؤمنون بها . إن الاقتصاد السياسي الكلاسيكي لعام ١٧٧٠ ، والمادى المماثل له في قدمه ، أى الإدراك الاقتصادى للتاريخ - وكلاهما يرد مصير آلاف السنين إلى ألفاظ السوق والتمن والسلعة - تابعان لذلك فى الصميم ، وكثيرا ما يتماثلان ويؤديان بالضرورة إلى أحلام رايخ ثالث ، يحاول الايمان بتقدم القرن التاسع عشر أن يهدف إليه بأية وسيلة ويتمثله غاية للتاريخ ، ولقد كان هذا الراجح المحلوم به - التحريف المادى لفكرة المسيحيين الخوط العظماء ، فكرة المملكة الثالثة ليوافيم فون فلوريس ، فلقد كان غرضها تأسيس السعادة النهائية على سطح الأرض لتكون جنة الفقراء والبائسين ، أولئك الذين طابق الانسان بينهم وبين العامل فى تأكيد متصاعد . إنها ستقضى على كل هم ، وستحقق الراحة الحلوة والسلم الدائم ، وستمهد حرب الطبقات الطريق إلى ذلك يالغائها للملكية وقضائها على عبودية الربا ، والاشتراكية الدولية وإبادتها للسادة والأغنياء . لقد كانت «أناية الطبقة» هى المنتصرة ، وأطلق عليها «سعادة الانسانية» ، وأشيد بذكرها فى الناحية الخلقية ورفعت إلى عنان السماء . وقد ظهر المثلث الأعلى لحرب الطبقات أولا فى المذكرة الشهيرة الزاخرة بالدعاية للأسقف سايبس عام ١٧٨٩ - وهو أيضا قس كاثوليكي - وقد كان

موضوعها الطبقة الثالثة التي يجب أن تقصب الطبقتين العاليتين إلى مستواها ، وقد تطور منطقيا من هذه الفكرة الثورية الليبرالية المبكرة - إلى الصورة البلشفية المتأخرة لعام ١٨٤٨ ، التي نقلت المعركة من الميدان السياسي إلى الاقتصادي ، لامن أجل الاقتصاد ، ولكن لبلوغ الهدف السياسي عن طريق تدميره ، وإذا ما وجد الفكريون البورجوازيون فرقا بين المثالية والمادية فإنهم لا ينظرون إلى ما وراء حرم ساحة الشائعات الخلافة ، إلى صميم الأهداف النهائية . وإنما لنفس الأهداف هنا وهناك تماما . إن كل النظريات لكفاح الطبقات لم توضع إلا رغبة في تعبئة جموع المدن الكبيرة . يجب خلق « الطبقة » التي بها تدور الحرب . لقد حدد الهدف عام ١٨٤٨ كديكتاتورية البروليتارية بعد أن تخطيت التجارب الأولى للثورات . ولقد كان يصح أن تسمى ديكتاتورية البورجوازية لأن الليبرالية لا تريد شيئا آخر . ذلك هو المعنى النهائي للديكتاتوريات والجمهوريات والبرلمانية ، فما كان يقصد في الحقيقة إلا ديكتاتورية الديماغوجيين التي كانت ترمى من ناحية إلى إبادة الأمم جميعا : تنيد بعضها عن طريق الانتقام بوساطة الجموع المنحطة في مستواها الخلق ، وتينيد بعضها الآخر عن طريق الرغبة في إشباع الشره إلى السلطة باسترقاقه . وينشأ كل مثل أعلى عن شخص يحتاج إليه . فكل المثليين العالين لحرب الطبقات الليبرالية والبلشفية إنما هو من خلق أناس أخفقوا في محاولتهم اللحاق بطبقة أعلى ، أو أناس آخريين من طبقة لم يبلغوا مستواها في مبادئ الأخلاق - فماركس بورجوازي مخفق - وهذا سر بغضه للبرجوازية . وينطبق ذلك على جميع المحامين والأدباء والأساتذة والقساوسة الآخرين ، فلقد تخيروا مهنة ليسوا على استعداد لها . ذلك هو الأساس النفسي

لثورى المحترف .

إن المثل الأعلى لحرب الطبقات هو أن تتركس الأشياء ، إنه ليس بناء شيء جديد . وإنما هو قضاء على ما يكون ثمة من بناء ، إنه هدف من غير تقابل ، إنه إرادة العدم ، والمناهج الطوية لم تكن إلا لرشوة الجموع رشوة نفسه ، رشوة تستهدف خلق طبقة تكون قوة محاربة عن طريق الهدم الخلق المصمم ، وهذا الذى تهدف إليه الرشوة هو غرضها الجدى الواحد ، لا وسيلة للحام والإلصاق المحكم أقوى من البغض . ولكن الأفضل أن يتناول الكلام هنا حسد الطبقات لا بغض الطبقات . فى البغض يكمن التقدير الصامت للخصم ، أما الحسد فهو النظرة المنحرفة من أسفل إلى شيء أعلى يستعصى فهمه وبلوغه ، ولذلك يروم الحاسد إنزاله إلى أسفل ، الى جعله مساويا له ، الى توسيخه واحتقاره . ومن أجله لا يلحق بالمثل الأعلى للمستقبل البروليتارى سعادة الأكثرية فحسب ، التى تتكون من التعطل الهنىء - ومرة أخرى خبز ولهو - بل السلام الأبدى المقيم للتنعم به خاليا من شوائب الهموم والتبعات على النحو الذى يمليه الذوق الثورى الصميم فوق كل شيء ، الذوق الثورى الذى يتوق أن يجسرع أولئك القليل الذين كانوا فيما مضى أرباب السلطة والحكام ، والعطاء والأغنياء أنفاس الشقاء ، لتقر عين تلك الأكثرية بالتطلع اليهم . كل الثورات تثبت ذلك : لن يظفر خدام الأمس اذا جلسوا الى مائدة سيدهم ينعمون ويقصفون ويزيطون بغير نصف المتعة ، ولن تتم متعتهم الا اذا جلسوا تلك الجلسة وقام السيد على خدمتهم .

ان هدف حرب الطبقات الذى كان حول ١٧٨٩ والطغاة - الملوك -

الاشراف البروسيين الزراعين ، القسس - صار فى ١٨٥٠ «الرأسمالية» وذلك

بانتقال المعركة السياسية إلى الميدان الاقتصادي ، وإن الرغبة في تعريف هذه اللفظة الشائعة محاولة ميثوس منها لأنها ليست ثمرة خبرة اقتصادية ، ولكنها تعنى معنى إلا يكن نصف مسيحي ، فهو خلقى - إنها تعنى جوهر الشر الاقتصادى ، خطيئة التفوق العظمى ، إبليس المتنكر فى ألوان النجاح الاقتصادى ، لقد أصبحت فى دوائر بورجوازية معينة كلمة سخرية تناول كل من لا يطاق ، من يتمتع بالمرتبة العليا ، صاحب العمل الناجح والتاجر والقاضى والضابط والعالم . ولقد تناولت الفلاحين أيضا ، إنها تعنى كل من ليس عاملا ، أو زعيم عمال . كل من لم تحقق عليه الخيبة بسبب مواهبه الضئيلة ، إنها تضم كل من يبدو أقوياء أصحاء فى أعين الساخطين جميعا ، أى الغوغاء فى روحهم . ليست الرأسمالية بحال صورة للاقتصاد ، ولا طريقة بورجوازية لتحصيل المال . إنها نوع من النظرة للأشياء . هناك من بين الاقتصاديين من عثر بها فى زمن شارلمان فى أكثر القرى بدائية . وينظر الاقتصاد القومى منذ ١٧٧٠ إلى الحياة الاقتصادية - وما هى فى الواقع إلا صفحة من الكيان التاريخى للشعوب - ينظر إليها بعين التاجر الإنكليزى . لقد كانت الأمة الإنجليزية وقتئذ فى الحقيقة - على وشك احتكار التجارة العالمية لنفسها . وإلى ذلك تعود شهرتها باعتبارها شعبا من أرباب الحوانيت . وليس التاجر إلا وسيطا ، إنه يرسم الحياة الاقتصادية على أساس محاولة جعل نشاطه مركز الثقل لها ، ثم يُتبع كل من عداه لمركزه باعتبارهم منتجين ومستهلكين . ذلك الوضع للقوة قد وصفه آدم سميث . وذلك هو العلم الذى وضعه . ومن أجل هذا يقوم بناء الاقتصاد القومى إلى يومنا هذا على فكرة الثمن ، فترى بدىلامن الحياة الاقتصادية ، ومن العاملين من الناس - سلعا وأسواقا فحسب . ومنذ

الآن فصاعداً يعتبر العمل سلعة ، والأجر ثمناً ، ولا سيما من النظرية الاشتراكية ، ففي هذا النظام لا محل لعمل القيادة الذي يقوم به صاحب العمل ، ولا للمخترع ، ولا لعمل الفلاح ، ولا ينظر فيه إلا إلى السلع المصانع والشوفان والخنازير ، ولن يمضى زمن طويل حتى يُنسب الفلاح والصانع تماماً وحتى يتمحض تصنيف البشر عن فرقتين لحسب - كما فعل ماركس - هما الأجيرون في ناحية ، ومن عداهم أى المستغلون في ناحية أخرى .

وهكذا ينشأ التقسيم الصناعى للإنسانية إلى منتج ومشتري . وقد تحول هذا التقسيم على يد أصحاب نظرية الكفاح بين الطبقات إلى تضاد خبيث : إلى رأسمالين وبرولتاريين ، بورجوازيين وعمال ، مستغلين ومستغلين . أما التاجر - وهو الرأسمالى الأصيل - فقد تكتمته . فليس العدو الظاهر إلا صاحب المصنع ، والمالك الزراعى لأن كلا منهما يتسلم عمل الأجير ويدفع الأجر . هذا كلام لا معنى له ، ولكنه على رغم ذلك ذو تأثير شديد ، وفعل قوى فى النفوس ، فإكانت سخافة نظرية ما لتعوق فاعليتها وتأثيرها ، فالنقد من خصائص مؤلف كل نظام ، أما المؤمن فلا يعرف النقد مطلقاً .

والرأسمالية والاشتراكية ، كلاهما قديم ، وبينهما قرب فى الصميم ، لقد نشأ عن نفس النظرة إلى الأمور وحملتا نفس النزعات .

ليست الاشتراكية الرأسمالية الطبقة الدنيا : ان نظرية كوبدن المافشسترية لحرية التجارة ، ونظام ماركس الشيوعى قد نشأ معا فى إنجلترا عام ١٨٤٠ . ولقد بلغ الأمر بماركس أن رحب بالرأسمالية المتصلة بحرية التجارة .

فالرأسمالية من أسفل ترغب فى بيع السلعة المسماة « عملاً » بأكثر ما يمكن من ثمن من غير اهتمام بمقدرة المشتري الشرائية ، كما ترغب ألا تعطى من هذه

السلعة إلا أقل قدر ممكن .

وهذا هو سبب بغض الأحزاب الاشتراكية للعمل الممتاز والعمل بالمقطوعة وسر جهودها بما تنسج له القدرة والاستطاعة في سبيل القضاء على التمييز الأرستقراطي بين العمال المحنكين وغير المحنكين . إنها ترغب بوساطة الإضراب - وكان أول إضراب عام ١٨٤١ في إنكلترا - في رفع ثمن العمل اليدوي ثم في ترك تحديده لبيروقراطية العمال التي تكون آتت قد سيطرت على الدولة بعد نزع ملكية المصانع والمناجم . ذلك هو المعنى الصميم للتأميم . تسمى « الرأسمالية من أسفل » ، ما يحصل عليه الموهوبون والمتفوقون بجدهم من ملكية « سرقة » ، لتستطيع اغتصابها دون عمل أكثر من استغلال قبضاتهم . وهكذا تنشأ نظرية « حرب الطبقات » ، التي صيغت اقتصاديا لإحراز صوت العامل ، على حين أن القصد السياسي منها منفعة زعيم العمال ، وإذ إنه لقصد لا بقاء له ، فالحقول الضئيلة في نظرتها إلى المستقبل لا تستطيع أن تتجاوز الغد إلى ما وراءه ، وهي تعمل على هذا الأساس . وإذن فلم يكن لحرب الطبقات بدء من أن تتمخض عن التدمير لا عن شيء سواه ، وأن تقضى على قوى التقاليد السياسية والاقتصادية لتمكين قوى العالم السفلي من الانتقام المنشود والسيطرة . على أن هذه الدوائر لم توجه أى حظ من تفكيرها إلى ما يمكن أن يتأتى عن هذا الانتصار حين يصبح كفاح الطبقات من حديث الماضي البعيد .

هكذا بدأ منذ ١٨٤٠ هجوم ساحق على الحياة الاقتصادية الحقيقية المعقدة إلى النهاية للشعوب البيضاء من ناحيتين : الأولى من أعلى . وهي جماعة تجار الأموال والمضاربين ويتغلغل فيها كبار المالين بالأسهم والقروض

ومجالس الإدارة . ويعمل هؤلاء على أن يخضعوا لأغراضهم ومصالحهم النشاط الإدارى لمديرى العمل الإخصائيين ، وكم بينهم من صنّاع سابقين رفعهم عن جدارة جدهم وعبقريتهم . وهذا يهوى صاحب العمل الاقتصادى الفعلى فيكون عبدا للرجل المالى : قد يكون موفور النشاط والإنتاج حريصا على نجاح المصنع فى الوقت الذى تدهمه فيه إحدى المضاربات وهو لا يدرك من الأمر شيئا فتقوضه وتزهق ما بذل فى سبيل نجاحه من جهود . هذه إحدى الناحيتين اللتين ثار منهما الهجوم الساحق ، أما الأخرى فنقابة زعماء العمال وهى تهدم من أسفل فى بطء وعزم وثقة بناء الاقتصاد الحى . ولكل من هذين الفريقين سلاح ، فسلح أحدهما النظرى علم الاقتصاد القومى الليرالى الذى يبنى رأى العام فى المسائل الاقتصادية ، ويتدخل فى التشريع بمداولاته وقراراته . وسلح الفريق الآخر البيان الشيوعى الذى تتدخل مبادئه أيضا فى التشريع عن طريق أحزاب الشمال فى كل البرلمانات .

وكلاهما يمثل مبدأ الدولية ، وما هى إلا نيهلستية نقية سلبية . إنها توجه نشاطها ضد الصور التاريخية التى تضع الحدود - فكل صورة وكل شكل تحديد للأمة ، للدولة ، لأنواع الاقتصاد القومى التى يجمعها الاقتصاد العالمى . ولما كانت هذه جميعا تقف فى طريق أغراض المالية الكبرى والثوريين المخترفين - وجب إنكارها وتدميرها .

ولقد أصيب اليوم هذان النوعان من النظريات بالشيخوخة ، فكل ما يمكن أن يقال قد فرغ منذ حين من قوله ، وبلغ من تعرية كل منهما نفسه منذ عام ١٩١٨ بنبرواتهما - سواء فى اتجاه نيويورك أم موسكو - أن أصبح لا يؤمن أحدهما ، وإن كان اقتباسها وذكرهما لا يكادان ينقطعان . لقد بدأت الثورة

العالمية في ظلها ، وقد تكون اليوم في أوجها ، ولكن لا يزال أمام انتهائها وقت طويل وفي أثناء ذلك تتشكل في صور طليقة من كل تمسّدق نظرى .

- ١٥ -

يمكن الآن نهائيا تعيين الوان النجاح التى بلغتها الثورة الاجتماعية اليوم ، لأنها قد بلغت هدفها ، وانتهى تهديداتها ، وأحرزت النصر . فإذا ما أنكر أتباعها ذلك أمام غيرهم أو أمام ضمائرهم المشدوّهة المأخوذة فإنما يتكرر فى ذلك المصير الأبدى للتاريخ الإنسانى ، الذى يثبت فى جلاء قاس للمقاتل إذا ما أدرك هدفه - أن الهدف شىء آخر مغاير تماما لما أُمل وأنه لم يكن يستأهل ذلك العناء .

إنه نجاح عظيم شاذ ، إنه على درجة من الرعب للشعوب البيضاء لانهى لواحد منها أن يرى أو يحسّر على أن يرى كل ما فيها . وليس هناك من الشجاعة ما يدفع محركها إلى الاعتراف بأنهم محرّكوها ، ولا ما يدفع فضلات الطبقة العليا القديمة الباقية خلال الطبقة البورجوازية الحالية إلى تحديد أولئك على أنهم محرّكوها . ولقد تم قطع المسافة بين الليبرالية والبلشفية وبخاصة فى المعركة ضد السلطات السياسية . فلقد حُطمت وافترست ومزقت إربا إربا . لقد ثبت مرة أخرى - كما حدث فى عصر الجراكين فى روما - أن كل ما خلّقه فى قرون الحيوانات المفترسة القوية القليلة العدد ، أى الساسة والغزاة - تستطيع جميع الحشرات البشرية الضئيلة أن تقرضه فى وقت قصير . لقد أصبحت الصور القديمة المهيبة للدولة حطاما ، وحلت محلها البرلمانية الفاقدة الصرورة ، وماهى إلا كومة الفضلات القديمة من السلطة وفن الحكم

والحكمة السياسية . وفي سبيل الظفر بهذه الفضلات اعتركت الأحزاب ، وهم
أرهاب من السياسيين المشتغلين بالأعمال الحرة . إن السيادة الموروثة قد
أغفلت لتحل محلها الانتخابات التي ترفع إلى أعمال الدولة كل يوم جموعا من
ذوى الضآلة والقيم التافهة .

وبين هذه الأحزاب تختفي أحزاب العمال في كل مكان بنقاباتهم التي تعمل
بوسائل اقتصادية لإدراك الأهداف السياسية ، وبوسائل سياسية لبلوغ
الأهداف الاقتصادية ، وقد أصبحت هذه الأحزاب بتركيب قيادتها وبرامجها
وأساليبها في الدعاية مثالا يحتذى غيرها .

كلها تحاول اكتساب الجموع في المدن الغظمى فتلهبها بالآمال الفارغة والتهم
المثيرة . وليس من بينها حزب واحد يجرؤ على التصريح بأنه يمثل من الأمة
ناحية غير «العامل» . فكلها من غير استثناء يعامله كما تعامل طبقة ممتازة ،
وتصد في ذلك عن جهن أو عن أمل في نجاح انتخابي ، ولقد تم في نجاح
إفساد العامل في جميع البلدان . ليسخط في عنف ، وليغالي فيما يطالب ، وقد
أريد بإثارته إلى السخط والمغالاة أن يصبح أبأس مخلوق ، ويمتزج بغوغاء
الآزقة في وحدة لا معنى لها ، في «الطبقة» ويتخذ طراز البروليتي الروحي الذي
يكفل محض وجرده النجاح الثوري . والذي ينظر بعين الاحتقار إلى الجسد
والإنتاج ويراهما خيانة للقضية ، والذي ينحصر أعلى اطاعه في أن يكون
قائد جموع وحاملا للثورة .

وليس ثمة فارق إذا اتخذت هذه الجهات لعراك الطبقات شكل الأحزاب
البروقراطية أو النقابات كالماركسية ، والكاثوليكية والقومية في ألمانيا -
كما في إنكلترا ، أو اتخذت الصورة الرومانيسكية لنوادى الفوضويين

والاشتراكيين كما في برشلونة وشيكاغو ، أو كانت قائمة بحركات سلفية كما كانت سابقا في روسيا ، وكما هي اليوم في أمريكا ، لتتجمع حينها بأزف وقت الفعل فقط . ليس هناك فارق وإن تعددت هذه المظاهر ، فكلها تتألف من جماعات مهيمنة من الديماغوج المحترفين ، وأتباع مسوقين من غير إرادة إلى غاية عليهم أن يضحوا أنفسهم في سبيلها ، وإن كانوا لا يسكادون يفهمون منها شيئا . وقد أصبحت الحكومة الأداة المنفذة لهذه الجماعات إما لأن قادتها أنفسهم يملكون السلطة البرلمانية ، وإما لأن الخصوم الذين سحرتهم مثالية العمال تعوزهم شجاعة التفكير والفعل الذاتيين .

إنهم يحكمون الاقتصاد أيضا بوسائل سياسية لغرض سياسي ، لا يفتأ ماثلا لأنظارهم على الدوام ، لقد كانت حرب الطبقات موجهة إلى السلطات العضوية وصور الحياة الاقتصادية التي سميت رأسمالية . وكانت إبادتها الهدف الأخير منذ عام ١٨٤٨ ، وقد تحقق في النهاية . إن الكارثة الاقتصادية المتوقعة في نشوة منذ زمان يناهز قرنا - قد حلت . ليست الأزمة الاقتصادية لهذا العام وللأعوام الكثيرة المقبلة نتيجة عابرة للحرب ، للشورة ، للتضخم المالي وتسديد الديون كما يفهم العالم أجمع . إنها ثورة مقصودة ، إنها في جميع خصائصها الجهورية نتيجة صنع متعمد من جانب زعماء البرولتارية . إن جذورها لتمتد إلى أعماق مما يتصوره المفكرون بكثير ، ولن يتغلب ثائفة على آثارها إلى حد كبير إلا في معارك طويلة قاسية تشن على كل ما هو اليوم قومي . وأول شرط أساسي لذلك أن يحمّد الإنسان في نفسه الشجاعة على أن يرى ما أمامه . وإني لأخشى أن يكون أكثر هذه الشجاعة قد درس واحي . فلم يحدث قط أن بلغ الجبن والاستخذاء أمام الرأي العام للبرلمانات

والأحزاب والخطباء والكتاب ما بلغه الآن . لقد خر الجميع سجدا أمام «الشعب» ، أمام الجموع ، البرولتيارية ، أو سمها ماشئت ، أمام ما استخدم في عى وغير إدواك سلاحا صالت به يد زعماء الثورة العالمية . إن وجه كل سياسى ليربّد اليوم فرقا إذا ما رمى بأنه «معاد للعال» .

رس . من ذلك الذى ربح الحرب العالمية فى الواقع ؟ ليس الراج دولة ما على التحقيق : لافرنسا ولا إنكلترا ، ولا أمريكا ، بل إن جبهة العال البيضاء لم تربحها وهى التى دفعت الثمن أولا من دماؤها فى ميادين القتال ، وأخيرا من مستوى حياتها فى الأزمة الاقتصادية . فقد كانت أعظم ضحية لزعمائها . لقد دُمرت فى سبيل أغراضهم . إن الزعيم العالى هو الذى ربح الحرب إن احزاب العال والنقابات - نقابات موظفى الحزب ، بيروقراطية الثورة . هى التى انتزعت السيادة ، وهى التى تحكم اليوم المدنية الغربية ، وتدفع البرولتيارية من إضراب إلى إضراب ، ومن معركة شوارع الى معركة شوارع ، وتتقدم من قرار برلمانى مدمر الى آخر ، بقوتها الذاتية او بالخوف الذى تنطوى عليه البرجوازية المقهورة . لقد اصبحت كل حكومات العالم منذ ١٩١٦ متوقفة عليها بقدر يتزايد فى سرعة ، وعليها اذا شامت البقاء فى الحكم ان تطيع اوامرها . عليها ان ترضى بألوان العدوان الوحشى على بنائها ومعنى حياتها الاقتصادية ، او ان تقوم هى نفسها بتنفيذها ، ولقد ثارت الوان هذا العدوان الوحشى لخدمة احط انواع العمل ، اعنى العمل اليدوى المحض ، ثارت فى شكل ارتفاعات لا حد لها فى الأجور ، وتقصيرات فى وقت العمل ، وفى شكل قوازين الضرائب المهلكة لمناهضة القيادة ، والأملاك القديمة للأسرة والصناعة ، والفلاحة . ان نهب المجتمع قد تم انجازه ، ولقد كان ذلك هو المكافأة

التي نالها مأجورو حرب الطبقات . إن مركز الثقل الطبيعي للبناء الاقتصادي ،
للفكر الاقتصادي للخبراء - قد حل محله فكر مصنوع غير عملي ، فكر
حزبي سياسي . لقد فقد التوازن وانهار البناء . وكان ذلك هو الهدف الصريح
الناطق للبلشفية الغربية منذ عشرات السنين . لقد عدت الكارثة الاقتصادية
بذلك نجاحا تكتيكيا على قلة توقع جبهة العمل وإرادتها له ، هذا الانهيار
للرأسمالية ، هو الحكم الفاصل على البرجوازية ، ولقد بينه «بيبل» قبل أن
يحدث ، ومدحه متحمسا منذ ١٨٤٨ - هذا الانهيار كان من اللازم اللازم
أن يتلوه بالطبيعة ديكتاتورية البروليتارية المنشودة أي زعمائها ومبدعوها .
أليس ذلك هو الواقع ؟ لنصرف النظر عن موسكو ، ولننساها
كانت جمهوريات النقابات في ألمانيا شيئا آخر ؟ ألم تكن الاشتراكية
الاقتصادية المدارة بيروقراطيا هي المثل الأعلى المتحكم في أحزاب العمال
القومية لا في ألمانيا وإجلترا فقط بل في إيطاليا ؟ ألم يُسَرَّم بين حطام الاقتصاد
القومي بذوى المواهب الاقتصادية المبدعة ، وحاملى لواء الجهود الفردية في
الاقتصاد ؟ ألم تذهب بهم هذه الديكتاتورية كضحايا ، لقد دفع الزعيم السياسي
الذي لا يدري عن الاقتصاد شيئا - بالزعيم الاقتصادي الخبير في عنف وقوة
إلى الخارج ، ولكن الزعيم السياسي الذي لا يفقه الاقتصاد ولا يدريه يعرف
الكثير من أساليب الدعاية الديماغوجية . إنه يحكم كبير وقراطى في التشريع
الاقتصادي الذي حل محل التصرف الحر للمفكر الاقتصادي . كمدير لكثير
من اللجان ومجالس التحكيم والمؤتمرات والمصالح الوزارية وسائر الصور
الديكتاتورية مهما تكن أسماؤها ، إنه في وزارة التعاون الفاشية أيضا يريد
اشتراكية الدولة الاقتصادية ومحور الابتكار الشخصي ، يريد الاقتصاد المرسوم ،

وكل ما هو مماثل في الصميم ، أى الشيوعية ، لكن العامل نفسه ضحية إلى جانب صاحب العمل ، لقد استولى الزعيم العالى المحترف على السلطة المنشودة ، والشيوعية نهائيا على كل طريق يفضى إليها ، وأصبح قادرا على أن يصب جام الشيوعية على كل من يراه جديرا بالنظر فى الأمور وتديرها من على الشيوعية من رفعة الأصل ، أو المواهب والتفوق .

إنى أعرف ذلك معرفة صادقة ، ستنكر الاكثرية ذلك فى رعب ، ستأبى الاعتراف بأن هذا الانهيار الذى لن تقوم له قائمة - الانهيار لكل ماشيدته قرون من الزمان - كان مقصودا كنتيجة لعمل شاعر بالهدف . ولكن ذلك هو الواقع ، وإن إثباته لسهل يسير . وقد بدأ هذا العمل حينما أدرك الثوار المحترفون من جيل ماركس أن الصناعة المرتبطة بالفحم فى شمال غرب أوربة قد أصبحت أهم ناحية فى الحياة الاقتصادية ، وأن على ازدهارها تتوقف الحياة العادية للأمم المتحولة إلى جموع . لقد كان ذلك حال إنكلترا . وفى ألمانيا كان الناس ينشدونه ، وقد افترض التعاليمون الذين نظروا الى العالم كجموع من بورجوازية وبرولتارية - أن ذلك سيحدث فى كل الأنحاء حتما وبالبداهة . ولكن كيف كانت الحال فى أسبانيا وإيطاليا حيث لاخم ، وكيف كان فى فرنسا اذا تجاوزنا روسيا تجاوزا تاما ؟ ان مما يثير الدهشة ما اتصف به أفق هؤلاء اللاهوتيين فى حرب الطبقات من ضيق . وما اقل ما لوحظ ذلك الى اليوم . هل جردوا يوما ما افريقية وآسيا وأمريكا الجنوبية الى ميدان تقدم الاقتصادى وتنبؤاتهم ؟ هل جادوا ببذل فكرة واحدة توجه الى العمال الملونين فى المستعمرات الاستوائية ؟ كانوا يشعرون بسبب انعدام ذلك ووجوب انعدامه ؟ لقد كانوا يتكلمون عن مستقبل الإنسانية ولكنهم لم

يشملوا الكوكب الأرضى كله بافكارهم ، واكتفوا بالتحديق فى بضعة بلدان أوربية أرادوا هدم دولتها ومجتمعتها .

وهنا رأوا أن من الممكن بلوغ ذلك بالقضاء على حيوية الصناعة ، فبدأ الهجوم المصمم على أساس محاولة تعجيز عملها المنظم . وقد حدث ذلك فقصّرت بالعنف مدة العمل الجسماني المأجور اليومي فى المصانع . أما العمل الإدارى لأصحاب العمل والمخترعين والمهندسين فلم يظفر بشيء من ذلك .

لقد كانت المدة اليومية له فى القرن الثامن عشر ، بالتطبيق على العادة التى كانت شائعة فى العمل بين الزراع والصناع فى الشمال - أكثر من اثنتى عشرة ساعة دون أن يحددها قانون ما . وفى مستهل القرن التاسع عشر حددت فى إنكلترا باثنتى عشرة ساعة ، ثم انقصت إلى عشر فى ١٨٥٠ بقانون عشر الساعات الذى كلفه العمال أنفسهم فى شدة بالغة . وما أقر هذا القانون نهائيا حتى احتفلت به دوائر العمال وعدته نصراً لها . وإینه على التحقيق ليعند «تكميما للصناعة» ، وأعتقد أنهم بذلك قد أصابوها بضربة قاضية . ومنذ ذلك الوقت أخذت نقابات العمال فى كل البلدان على عاتقها فى اهتمام بالغ أن تعمل على تحقيق كل ما يستطيع من تقصير لمدة العمل اليومية ، وألا تختص بالتقصير العمال وحدهم بل تتعداهم إلى كل من يأخذ أجرا . وقد بلغت فى آخر القرن الماضى تسع ساعات ، وفى آخر الحرب العالمية ثمانى ساعات واليوم ونحن نقرب من منتصف القرن العشرين أصبح الحد الأدنى للمطالب الثورية - أسبوع الأربعين ساعة - وإذا راعينا أن منع العمل فى أيام الآحاد يزداد تطبيقه دقة بتوالى الأيام تجلّى لنا أن الفرد أصبح لا يقدم من « بضاعة العمل » إلا نصف الكمية الأصلية الممكنة الطبيعية . وبهذا صار العامل وهو

الوحيد الذى يعمل فى نظر تعاليم الديانة الماركسية - برغم إرادته وإلى حد كبير يقوم بأقل عمل . فأى مهنة أخرى تتفق مع مثل هذا العمل الضئيل ؟ لقد كان ذلك الإضراب وسيلة حربية فى صورة مقنعة بطيئة الفعل . ولم يصر لها أهمية إلا بالأمر الواقع : بأن ثمن هذه «البضاعة» أى الأجر - لم يكتف بأنه لم ينخفض بل ثابر على ارتفاعه . ولكن «القيمة» أى الإنتاج الحقيقى للعمل المنتج ليست بكمية مستقلة بذاتها ، إنها تتأتى من الكل العضوى للعمل الصناعى الذى يكون فيه نصيب الفكرة المنفذة : عمل الرياسة فى الإدارة وتنظيم الإجراءات ، نقل المواد ، تصريف الإنتاج ، تقدير النفقات والأرباح ، التأسيس والتأنيث ، الإمكانيات الجديدة - يكون نصيب هذه الفكرة فيه أكثر فضلا . فالإنتاج فى مجموعه يتوقف على مرتبة الرؤوس وعملها لأعلى الأيدي . وإذا لم يكن ثمة ربح ، أو لم يكن الإنتاج قابلا للتصريف - أصبح العمل الدائر قائدا للقيمة ولم يتأت بصفة عامة دفع ثمنه . وهذه حال الفلاح والصانع . ولقد فصل بفضل نشاط النقابات أجر الساعة للعامل عن وحدة الكائن الحى (الوحدة الحية) . لقد حدده الزعيم الحزبى ولم يقدره الزعيم الاقتصادى ولم يحسبه . فإذا لم يقره هذا الزعيم أو لم يستطع إقراره أخذ قسرا بالإضراب ، بالائتلاف ، بالضغط على الحكومات البرلمانية . ولقد أصبح الأجر فى مائة عام بالقياس إلى أجر العامل الزراعى واليدوى اضعاف ما كان عليه . إن كل شخص يعمل فى الحياة الاقتصادية يتوقف ربحه على الحالة الاقتصادية إلا الأجرى . إنه يطالب بالأجور العالية التى حددت بطريقة غير عضوية ، والتى نالها بكفاح حزبه السياسى ، ولاضير ان تنحط المؤسسات فى سبيل المحافظة على هذه الأجور أو ان يمحق الربح بصفة عامة ، أو ان يُقذف بالإنتاج

إلى الأسواق في خسارة تودى بالمصانع وتقضى عليها . وإذا ذلك تدوى صيحات الانتصار الشامتة من بين صفوف زعماء العمال . لقد أحرزوا من جديد نصرا وهم في سبيلهم إلى الهدف النهائي !

واليوم وقد مضى على نشوء نظرية حرب الطبقات ما يقرب من قرن ، ولم يبق من يؤمن بها في الواقع - أصبح من المشكوك فيه كون هؤلاء الزعماء لا يزالون يشعرون بالغاية التي من أجلها طالبوا فيما مضى بهذا العمل الهدام وشرعوا فيه . ولكنهم مازالوا يملكون وسيلة أصبحت تقليدا قديما ، وبها لا ينقطعون عن التأثير لاقلال العمل ورفع الأجور : تلك هي التدليل على كفايتهم أمام الحزب . فإذا ما نُسى اليوم المعنى الأصلي المسلم به ، وفقد الضمير الحي للمؤمن فإن الأثر لا يزال هناك ، الأثر الذي يحيلونه إلى «أسباب أخرى» كوسيلة جديدة للدعاية ، كإثبات لخطيئة جديدة تراد بالعمال ، خطيئة ينسبونها إلى الرأسمالية .

لقد كانت «نظرية القيمة الفائضة» فيما سبق مسيطرة على الفكر غير المنظور للجموع . لقد كانت قيمة الانتاج الصناعي كله مساوية لما دخل فيه من عمل يدوى فعلى . أما ما يأخذه المدير الاقتصادي منه لصيانة المصانع ودفع أثمان المواد الأولية والمرتببات والفوائد أى «القيمة الفائضة» - أما هذا كله فيعد سرقة . ثم إن المدير والمخترع والمهندس لم يعملوا شيئا ألبتة . وليس في العمل العقلى مهما يكن - أية قيمة عالية ، بل إنه ليس إلا نوعا من البطالة . إنها نفس النزعة الديموقراطية التي ازدرت كل ألوان الجودة ، وحاولت إبادةها ، ولم تخدم إلا الكم . وكذلك فعلت مع العمل اليدوى نفسه . يجب القضاء على الفارق الارستقراطي بين العمال المدربين وغير المدربين

يجب أن تتساوى أجورهما . لقد وصم العمل بالمقطوعية والعمل المتفوق
بأنهما خيانة للقضية . . لقد تم ذلك عام ١٩١٨ ولا سيما في ألمانيا : لقد
قُضى على المنافسة بين العمال وخُسق طموح المقدرة الممتازة ، وقلل بذلك
مرة أخرى مجموع الانتاج . ولقد كان ذلك كله نيهلستية وإرادة للهدم ذلك
ما نبه طريقة موسكو الراهنة فقد أعيد بناء الحال لعام ١٨٤٠ من كل ناحية
حين أدرك الهدف : مدة العمل الطويلة ، الأجور المنخفضة ، أكبر هوة
في العالم - بين العامل المدرب وغير المدرب - وإن هذه الهوة التي بين هذين
العاملين لأعظم مما في أمريكا نفسها - ثم استيراد المهندسين الأجانب ليسدوا
فراغ المهندسين الوطنيين الذين ذبحوا لأنهم طبقا لتعاليم البيان الشيوعي
لا يريدون إلا استغلال العامل دون ان يؤدوا هم شيئا . ولم تعرف قيمتهم
إلا بعد ان اوقع بهم .

ولقد ظل الرأي القائل بأن للعامل الحق في كل قيمة عمله الذي يساوى
جميع الانتاج - وعلى ذلك لاتزال فضلة من النظرية - ظل هذا الرأي محترما
إلى نهاية القرن . وبه وضع حد طبيعي على الأقل لمطالب الأجور . وبجانبه
وبالإضافة إليه نشأت على وجه التقريب منذ عام ١٨٧٠ الطريقة غير المنظورة
لاغتصاب الأجور بواسطة الضغط السياسي لأنظمة العمال . وبهذا لم يعد الأمر
أمر حدود وضعيتها الحياة الاقتصادية لهذا السلب لمصلحة طبقة ما ، وإنما أصبح
أمر حدود للقوة السياسية البرلمانية الشورية . ففي كل البلدان البيضاء إبان ملتقى
القرنين قام إلى جانب الحكومة ذات الوضع الدستوري حكومة إضافية غير
قانونية ولكنها قوية . وقد تجلى ذلك في ألمانيا منذ عام ١٩١٨ . وكان قوام هذه
الحكومة الإضافية كل لون من النقابات ، ومهمتها الرئيسية تغذية ناخبها

بالأجور ، وشراء الحق لذلك من السلطات البورجوازية عن طريق تمكينها من الحكم ، وكانت أصوات العمال التي عاجل أمرها زعماء الحزب فاصلة في كل ما أقدمت الحكومات البرلمانية على تقريره ، وهكذا أصبحت الأجور السياسية التي لم يعد لها حدود طبيعية اقتصادية أمرا واقعا . لقد عين الحزب الأجور المحددة ولم يحسبها على أساس اقتصادي ، وقد التزمت الدولة بحمايتها وأصبحت سيادة النقابات في تحديد الأجور حقا لا يجرؤ حزب بورجوازي أو حكومة بورجوازية على المساس به أو الشك فيه . لقد ارتفع الأجر السياسي بأكثر سرعة ممكنة ، فوق القيمة الكاملة للعمل ، ودفع بصناعة البلدان البيضاء متأثرا بغرائز الدفاع عن النفس وصيانة الذات - دفع بها إلى تطور تظهر نتيجته واضحة أمام أعيننا اليوم في كارثة الاقتصاد العالمي . ولقد كان دفعه بالصناعة إلى هذا التطور أبرز مما كان للمنافسة والإغراق في الإنتاج من دفع في هذا المضمار . لقد انتزعت بولشفية الأجور بالإضراب والإتلاف العمد والانتخابات والأزمات الحكومية من حياة الأمم الاقتصادية - لا من ألمانيا وحدها - دماء بلغت من الكثرة أن اضطرت إلى تعويضها بمحاولات حُمية وبكل ما يمكن تخيله من طرق .

ينبغي أن يعلم الإنسان كل ما يتضمنه معنى الأجور السياسية ليقس مقدار ضغط تلك الأجور على حياة الشعوب الاقتصادية جمعاء : إنها تشمل فوق المدفوع من المال هم الكيان الكلي للعامل ، الهم الذي يؤخذ منه ليلقى على كاهل غيره ، لقد صار على المجتمع والأمة أن يعولا العامل ، على حين أن كل إنسان أو حيوان ملزم أن يحمي نفسه من صروف القدر غير المقدرة ، أو أن يتحملها ، كل إنسان له همومه الشخصية ، وعليه مجاهدة كل

الأخطار في سبيل نفسه وأغراضه وتصرفاته الذاتية إنه محاسب حسابا كاملا عن شخصه . ليس هناك من يفكر في القضاء على عواقب خيبة المحصول "بهاثم" ، والحريق والضوايق التي يثيرها عدم تصريف المحصولات ، ولا على أخطار الخراب الاقتصادي ، وفقدان الكفاية المهنية بسبب الفقر في المواهب ، ولا على المرض والنوازل التي ترهق الصانع والطبيب والمهندس والتاجر والعالم . على كل إنسان أن يناجز هذه الأمور على حسابه الخاص ، بما يراه من وسائل ، أو أن يتحمل عواقبها ويتكفف الناس ، أو أن يهلك على النحو الذي يروقه . هذه هي الحياة . ولكن النزعة الراجبة في التأمين على النفس - ومصدرها ألمانيا - قد استقرت في تفكير الشعوب البيضاء كلها ، وتجلت في مظاهر وطرق شتى : فتكون ضد الشيخوخة ، أو الكوارث ، أو المرض ، أو العجز عن الكسب بل ضد القضاء في كل مظاهره المحتملة ! كل من ينزل بساحته الشقاء يصرخ مستغيثا بغيره دون أن يرغب في استنقاذ نفسه بنفسه . ولكن ثمة فارقا يميز انتصار الفكر الماركسي على الغرائز الانفرادية الجرمانية الأصل التي تلد السرور بالتبعات والكفاح الذاتي ضد القضاء ، والترحيب بالوائع . كل الناس إلا العامل يحاولون مستقلين بآرائهم ، وبقوتهم الذاتية تلافي الواقع أو لقاءه . إن العامل وحده هو الذي يعنى من هذا الموقف . هو وحده الذي يستطيع أن يعتمد على غيره ليفكر له ويعمل . وإن لهذا التحرر من الهموم الكبيرة لآثار إيهوى بالنفوس ، نلمحه جليا في أطفال الأسر المغرقة في الغنى . وقد أصاب هذا الأثر السيئ العمال جميعا في ألمانيا على التخصيص . فما يبدو ضيقا حتى يستغاث بالدولة - بالحزب ، بالمجتمع ، أى بالغير ، لقد تنوسيت المقدرة على اتخاذ قرار ما ، وعلى توطين النفس على

العيش مع ضغط الهموم الحقيقية .

وهذا يعنى زيادة العبء الذى يتجشمه العمل الراقى لمصلحة العمل المنحط فى الأمة . لأن هذا الشطر من الأجر السياسى ، التأمين فى مختلف أنواعه ضد القضاء ، وبناء المساكن للعمال - وما خطر لأحد أن يطالب لمساكن المزارعين بهذا الإجراء - وتنظيم ميادين الألعاب ، وبيوت النظافة ، والمكتبات ، والعناية بوضع أسعار تفضيلية للأغذية ولل سفر بالسكك الحديدية ، والملاهى - لأن كل ذلك سيدفع الآخرون ثمنه إما مباشرة أو على هيئة ضرائب تجبى منهم لمصلحة العمال . ذلك شطر حيوى من الأجر السياسى لم يتعود الناس التفكير فيه . وفى خلال ذلك تكون الثروة القومية التى يعول على مقدارها بالأرقام المعطاة - وهما اقتصاديا . إنها تحسب كـ رأسمال ، من إنتاج المنشآت الاقتصادية أو من سعر الأسهم المتوقف على الفائدة ، والذى يسقط معها حينما تصبح قيمة المصانع العاملة مشكوكا فيها بسبب ارتفاع أعباء أجورها . إن المصنع الذى يقف عن العمل يفقد قيمته ، ولن يساوى أكثر من ثمن مخلفاته بعد هدمه . ولقد تحمل الاقتصاد الألمانى تحت ديكتاتورية النقابات من أول يناير سنة ١٩٢٥ إلى أول سنة ١٩٢٩ أى فى مدى أربعة أعوام زيادة سنوية فى الأعباء نشأت عن رفع الأجور والضرائب والنفقات الاجتماعية مبلغا قدره ١٨٢٢٥ مليوناً من الماركات ، وهو ثلث الإيراد القومى كله وقد انتقل إلى جانب واحد . وبعد ذلك بعام بلغ عشرين مليارا . فهل نعد مليارنى التعويضات إلى جانبها شيئا ؟ لقد عرضت مالية الريخ وعملائه الأخطار ، ولكن ضغطها على الاقتصاد إذا قيس إلى تأثيرات البولشفية فى الأجور - لا يعد شيئا مذكورا . لقد نزع ملكية الاقتصاد كله

- ١٦ -

هناك عمل أعلى ، وآخر أدنى : ذلك مما لا يمكن إنكاره ولا تغييره . إنه التعبير عن الحقيقة الواقعة بوجود حضارة . فكلما ارتفع تطور حضارة ما وقويت مقدرتها على التشكل - اتسع الفارق في العمل بأنواعه بين المسيطر منها والمنحط . سواء أكان العمل سياسيا أم اقتصاديا أم فنيا . ذلك لأن الحضارة حياة مشككة ومشبعة بالفكر ، وصورة ناضجة مكتملة يقتضى امتلاكها مرتبة أعلى في الشخصية على الدوام . هناك من الأعمال ما يجب أن يكون الإنسان أهلا له في الصميم ، وآخر لا مفر له كي يعيش - من القيام به لأنه لا يستطيع القيام بأحسن منه . من الأعمال ما اشتدت قلة ذوى المرتبة الذين هم أهل له ، ومنها ما تنحصر كل قيمته في مدته ، في مقداره . ولقد ولد الإنسان مستعدا لهذا أو لذلك . هذا هو القضاء المحكم الذى لا يرضى لنفسه أن يتبدل ويتغير . إن الإنسان مفطور على القدرة على عمل بعينه ، ولن يستفيد القدرة بالحديث الراسيونالى عن المساواة أو بالحديث العاطفى الرومانتيكى . إن مجموع ما يبذل من العمل الذى تتطلبه الحضارة الغريبة - وما هو على التحقيق إلا هذه الحضارة نفسها - يزداد كثرة على مر القرون ، ولقد كان مقداره في عصر الإصلاح الدينى اضعاف ما كان عليه في زمن الحروب الصليبية ، وفي القرن الثامن عشر جاوز في نموه حد المعقول . وذلك بالتناغم مع ديناميكية عمل القادة المبدع ، تلك التى جعلت الحاجة إلى العمل الأدنى ، عمل المجموع تزداد كل يوم بالضرورة ، ولذلك يريد الثورى البروليتارى الذى

يرى الحضارة من أسفل ولا يظلمها لأنه لم يحط في نفسه بشيء منها - يريد هذا الثورى إبادتها للاستغناء عن العمل المحتاز بل عن العمل إطلاقا . فإذا ما أحيى الإنسان الحضارى الذى يعتبره هذا الثورى ترفا فإن العمل يقل ، هذا إلى أن ينحط فى نوعه حتى ليستطيع أى فرد القيام به . وقد قرأت يوما فى إحدى الصحف الاشتراكية أنه بعد القضاء على أرباب الملايين من المال يجب القضاء على أرباب الملايين الذهبين أيضا . يشور الإنسان حين يعاين العمل البديع ، ويكره ما فيه من تفوق ويحسد ما فيه من نجاح ، سواء أتجلى هذا النجاح فى القوة أم فى الثروة : إن القمامة (١) بالمستشفى أهم لديهم من الطبيب المدير ، واللاجير المرتبط (٢) بالمزرعة أكثر قيمة من صاحبها الذى ينتقى أنواع القمح ويهذب فصائل الحيوان ، والوقاد أكثر من مخترع الآلة . لقد تم انقلاب القيم الاقتصادية - بحسب اصطلاح نيتشه ، وبما أن كل قيمة تنعكس فى أعين الجموع كمال وكدفع للمال ، وجب أن يدفع لعمل الجموع الأدنى من الثمن أكثر مما يدفع للعمل الأعلى للشخصيات المديرة ، وإن ذلك ليتحقق الآن .

وقد كان لذلك نتائج لم يدركها أحد فى الحقيقة . إن العامل الأبيض قد صار حيوانا مترفا ، وما بلغ به ذلك المبلغ إلا جنب البورجوازية ، وتنافس زعماء أحزاب العمال فى تدليله وتملقه . علينا أن نسقط من الاعتبار تلك الموازنة السخيفة التى تعقد بينه وبين الميّلين الذين يعيشون فى رخاء ، فليس الأمر أمر أناس يقطنون القصور ، ويملكون الخدم والحشم ، ولنوازن مستوى نفقة عامل صناعى حديث بمستوى فلاح صغير : ففي عام ١٨٤٠

(١) المرطونة (٢) التعل

لم يكن ثمة بين حياتيهما غير فرق هين يسير . واليوم يعمل الأول أقل بكثير من الثاني . ولكن لون المسكن والطعام والكساء للزارع سواء أكان في بوميرانيا أم في يوركشير أم في كانزاس إذا ووزن بما يقوم بأود المشتغل بصناعة المعادن من وادى الرور إلى نحو بنسلفانيا وبما ينفقه في ملاحيه على التخصيص - يبلغ من الحقارة حدا يحمل العامل على الإضراب من فوره إذا ما طلب إليه مرة ثانية أن يقبل هذا المستوى لحقارته هذا إلى ما فيه من عمل مضاعف ، وهم دائم يثيره في نفسه تلف الغلة وأعباء تصريفها وكثرة الديون المرهقة . فما يعتبر حدا أدنى لمطالب الحياة ، وبؤسا في المدن الكبيرة في الشمال يعد إسرافا في قرية على بعد منها يقطعه الراجل في ساعة واحدة ، بغض النظر عن أسلوب الحياة في منطقة الشيوعية الزراعية في جنوب أوربة حيث القناعة بين الشعوب الملونة لاتزال خليقة من خلائق الطبع . إن الترف بين العمال قائم مائل ، وهو أثر للأجور السياسية المترفة . فمن الذى يحمل عبء هذا الترف وينهض به ؟ إن العمل المُستَجزَلَنَ يحتمل النهوض بتحقيق هذا الترف ، فقيمته اقل جدا من ان تهيئه لذلك . وإذن وجب ان يعمل آخرون ليُترف العمال ، وجب ان يعمل سائر الأمة في سبيل ذلك . وكم هناك من مآفين حمقى !! وإن فورد ليُعدّ احدهم لو كان جادا فيما قال وما كتب هؤلاء المآفين يعتقدون ان مقدرة شراء العامل المتصاعدة تُعَلَى من شأن الاقتصاد (المصنع او العمل) فهل قامت بذلك الجموع المتعطلة في روما منذ عصر الجراكين ؟ يتكلمون عن السوق الداخلية دون ان يفكروا في معنى ما يقولون . ليقوموا بتجربة لهذه الخرافة الجديدة المسلم بها من النقابات العمالية « البيضاء » فيدفعوا اجور العمال من إنتاج عملهم ذاته لامن النقد : لتكن الأجور قاطرات

أو آلات كيميائية ، أو بلاط شوارع . وعلى العامل حينئذ أن ينهض يبيعها .
لن يدري العامل ماذا يصنع بها . وسيستولى الرعب على العال حين يعلمون
قلة قيمتها . وسيتبين لهم إلى جانب ذلك أن إنفاق المال بدرجة ممتازة يتطلب
نفس المرتبة في الحضارة ، نفس التشبع الروحي بالذوق الذي يقتضيه ربح
المال بأعمال متفوقة . هناك ترف ممتاز وآخر منحط . تلك سنة لن يغيرها
أحد . ويتمثل فرق ما بينهما فيما يتجلى من بعد شديد بين إحدى أوبرات
موتزارت ، وأغنية شائعة لأوبرا فكاوية . وما من حاجة الآن إلى الترف
المهذب تقابل الأجور المترفة . وليس هناك ما يسبق الصناعة الرفيعة ممكنة غير
قوة الشراء للطبقة الرفيعة . أما الطبقات الدنيا فإنها لا تغذى إلا صناعة اللهو .
وتلك حال كحال روما القديمة ! !

ولقد كان لهذا الترف الخسيس للمدن الكبيرة ، الترف المتمثل في العمل
القليل والمال الكثير واللهو الأكثر - كان له أثر محتوم على سكان الأرض
المسطحة (الفلاحين) ، ذوى العمل الشاق المطبوعين على القناعة .
فتعلموا أمورا لم يحلم بها آباؤهم ، ونشدوا حاجات لم تدرهم في خاطر ، فليس
أثقل على النفس من زهد يلزم به الإنسان نفسه في دنيا تنزع إلى الترف
وتتهالك عليه . إن النفس لتبرم بهذا الزهد وتنفر منه . ومن أجل هذا
بدأ الهرب من الأرض (هجرة الريف) فهرب الأجراء (الأنفار) أولا
ثم أولاد الزراع ، وأخيرا هربت أسر بأجمعها لم تدر كيف تستطيع المحافظة
على ميراث الآباء أمام هذا التشويه للحياة الاقتصادية . ولقد حدثت هذه
الظاهرة نفسها في جميع الحضارات في تلك المرحلة عينها . وليس من الحق
في شيء أن يقال : إن إقفار إيطاليا من السكان بعد عهد هانيبال كان بسبب

الملكية الأرضية الكبيرة ، فما أحدث ذلك الإقفار إلا ، الخبز واللحم ،
بالمدينة العالمية أعنى روما . وقد أدى هجران الأرض التي فقدت قيمتها بسبب
ذلك إلى تطور فلاحية الملكية الواسعة بوساطة الرقيق ، ولولا هذا التطور
لأصبحت الأرض صحراء . ولقد بدأت التعرية من السكان في القرى
الإنجليزية عام ١٨٤٠ ، وفي ألمانيا عام ١٨٨٠ ، وفي الغرب الأوسط للولايات
المتحدة عام ١٩٢٠ . لقد مل الفلاح العمل من دون اجر فهرول الى المدينة
التي لوحث له بأجر من غير عمل . لقد هرب الى المدينة واصبح برولتاريا .

وإن وزر ذلك لا يقع على العامل نفسه ، فهو لم يحس قط ان مستوى
حياته قد اترف ، بل إنه ليحس عكس ذلك ، لقد اصبح بائسا ، ساخطا
لا يرضى ككل متمتع بامتياز من غير استحقاق . إن ما كان بالأمس هدفا
لرغائب متطرفة قد اصبح اليوم بديهيا ، وقد يبدو غدا كمشقاء يحمل على المطالبة
الصارخة بالإقالة منه . لقد افسد زعيم العمال العامل حين ساواه بالخاصة في

حرب الطبقات . ففي ايام البيان الشيوعي كان من الواجب ان يُعَدَّ
العامل نفسيا كبرولتاري لهذا الغرض . واليوم وللغرض نفسه يُغذى
بالأمل بأنه لن يصبح كذلك في المستقبل . وقد أدى الارتفاع غير المكسوب
للأجر السياسى هنا وهناك الى ان تكون الزيادة المستمرة فيه امرا
لا مناص منه .

ولكن ، هل يمكن ان يصبح هذا الأجر كمية مستقلة بجانب الاقتصاد ؟
ايمكن ان يدفع إطلاقا ؟ وبأى شيء ؟ وعن ؟ إن التأمل الدقيق يثبت ان فكرة
الربح الاقتصادى قد اعتورها التغير بطريقة غير ملحوظة تحت ضغط الوان
اغتصاب الأجور . لا يمكن ان يثمر غير الحياة السياسية السليمة . ان الربح الطبيعى

من غير إكراه يتحقق حين يكون أجر العمل المنفذ متوقفاً عليه كوظيفة. فإذا أصبح هذا الأخير كسفاً سياسياً مستقلاً أى نزيفاً غير منقطع لا يحتمله أى جسم حي - بدأ لون وحساب مصطنعان مريضان فى الإدارة الاقتصادية، منافسة بين المقطوعية التى يجب أن تحتفظ دلى قمة ارتفاعها كى لا يهلك الجميع ، وبين الأجور المتوازية مع الضرائب والتفقات الاجتماعية التى ليست إلا ضرائب غير مباشرة . إن التوافق الزمنى الحمسى لزيادة الإنتاج يعود معظمه إلى هذا الجرح الحفى فى الحياة الاقتصادية . إن التحريض على الاستهلاك بكل أساليب الدعاية ينتشر ، إن المقطوعية فى البلاد البعيدة بين الشعوب الملونة تنسج وتفرز فرضاً بكل الوسائل الممكنة . إن الأمبريالية الاقتصادية للدول الكبرى الصناعية التى تكفل ميادين المقطوعية بوسائل حرية وتبدل جهودها فى إبقائها كذلك - قد أصبحت نزعة المحافظة على الذات لزعماء الصناعة تكشف فيها أيضاً ، هؤلاء الزعماء الذين يحملهم على أن يثقفوا موقف الدفاع - ما يحسونه من ضغط الأحزاب السياسية ضغطاً مثابراً لا يفتقر فى سبيل الأجر السياسى . فما يحدث انتعاش حقيقى أو وهمى فى الصناعة بأية بقعة فى العالم ، الأبيض ، حتى تعلن النقابات مطالب فى الأجور لتحقيق لاتباعها أرباحاً لا وجود لها . وحينما وقعت ألمانيا دفع التعويضات لم يتأثر إلى النفوس إثر ذلك من معنى إلا أن هذه الوفور يجب أن يعطاها العمال وقد كانت النتيجة الطبيعية للأجور المترفة إرهاب نفقات الإنتاج ، وبعبارة أخرى تخفيض قيمة النقد . وهنا حدث تدخل سياسى لضمان المقدرة الشرائية للأجور فحفظ على مستوى أثمان البيع أو خفض بحكم القانون . لذلك ألغيت ضرائب القمح فى إنجلترا عام ١٨٥٠ ، وهذا الإجراء رفع مقنن للأجور . وبه ضحى

بالزراع فى سبيل العامل ، وهذا ما حول أو حقق فى كل مكان منذ ذلك الحين على الأساس السخيف الذى أخذ به المصرفيون ومن يماثلهم من الخبراء بأن العالم يجب أن يقسم إلى أقطار زراعية وأخرى صناعية للوصول إلى تنظيم للصناعة العالمية يتفق مع هذه الأغراض . ولم يعن أحد بالأحداث التى لابد أن تنزل بساحة المزارعين فى الأقطار الصناعية . لقد كانوا محض موضوع للسياسة العالمية ، والحصم الحقيقى لاحتكار مصالح العمال ، لجميع التنظيمات العالمية تعادى الزارع سواء اسلمت بذلك أم تحدته . وعلى هذا الأساس نفسه ثبتت ثمن الفحم والحديد تحت وطأة الضغط البرلمانى من غير اعتبار لنفقات النقل ، وما روعى غير اعتبار الأجور ، واغتصبت اثمان تفضيلية من كل نوع لمصلحة العمال ، وكان من الحتم لإمكان تسويتها أن ترفع الأثمان العادية ، للغير . ولقد طوّقت الإدارة الاقتصادية من جراء ذلك مشكلة اعتُبرت خاصة بها ، تلك هى أن المقطوعة قد تتأثر بسبب ذلك أو تصبح مستحيلة . وحين يضطرب مركز الإدارة الاقتصادية يزداد شعور النقابات بالانتصار .

وكانت إحدى نتائج هذه التأثيرات لحرب الطبقات - أن اشتدت حاجة الاقتصاد المنتج إلى « القرض » و « رأس المال » أى إلى قيم نقدية خيالية لاتدوم إلا بدوام الإيمان بها ، وتمسّحى فى الحال إذا ما اصطدمت بأقل شك على صورة انهيار فى البورصة . لقد كان استبدال قيم وهمية بالقيم الحقيقية المدمرة محاولة يائسة . لقد بدأ عصر ازدهار لنوع جديد ما كرم من المصارف يمول المشروعات لتصبح له السيادة عليها . ولم يُقتصر على إعطاء القروض فتعداه إلى إنتاج هذه القروض كراسمال وهمى هائم بلا موطن . وفى معدل

سرعة دائم التوائب يحول ملك الأسرة القديم إلى شركات مساهمة ، أى يجعل متحركا (منقولاً) لتسد بهذا المال الثغرات بين الإنفاق والاكتساب فى الدورة التجارية . إن إقبال الاقتصاد المنتج بالدين - وليست الأسهم أخيراً إلا ديناً - قد نما إلى حد لا يتصور . حينها بدأ احتساب الفوائد إلى جانب دفع الأجور يبدو ككم مشكوك فيه من هذه الأخيرة - حينها بدأ ذلك ظهرت طفرة الوسيلة الأخيرة فى حرب الطبقات ، المطالبة بأن تنزع الدولة ملكية المصانع : وبذلك وجب انتزاع الأجر من الحساب الاقتصادى نهائياً ، وجعله مرتبات حكومية يجرى تحديدها وفق هوى أحزاب العمال الحاكمة ، وقد حمل هذا الأجر بلشفية الضرائب على الحصول على وسائله من سائر الأمة . ومنذ عام ١٩١٠ أخذت تتوالى سريعاً العواقب الأخيرة الحاسمة لجنون هذه الأجور المترفة : لقد دفع الجذب المطرد للأرض الزراعية جموعاً لا تفتقر تتكاثر إلى ميدان الخبز واللحم ، فى المدن الكبيرة ، وأضل الصناعة فجذحت إلى توسع دائم الازدياد فى المصانع على حين لم يؤمن بضرورة بذل أى جهد أو عناية فى سبيل تصريف منتجاتها . لقد هاجر خمسة عشر مليوناً من الزراع من جنوب أوربة وشرقها فى الأعوام من ١٩٠٠ إلى ١٩١٤ إلى الولايات المتحدة على حين نقص فى الواقع عدد السكان فى المزارع (١) ، وفى شمال أوربة حدثت هذه الهجرة الداخلية نفسها وفى هذا المدى عينه من الاتساع ، فى منطقة

(١) لم يزد عدد السكان الزراعيين الخالص فى أمريكا عام ١٩٠٠ ، وفى عام ١٩١٠ كان النقص السنوى فى عددهم ١٠٠٠٠٠ ، ومن عام ١٩٢٠ ارتفع النقص السنوى إلى نصف مليون ، ومنذ عام ١٩٢٥ بلغ مليوناً فى السنة .

(شبنجـلر)

مناجم برى بفرنسا كان عدد الذين يعملون عام ١٩١٤ من البولنديين والإيطاليين أكثر من عدد الفرنسيين . ولكن قضى على هذا التطور من ناحية لم يدخلها زعماء حرب الطبقات في دائرة حسابهم بل لم يلحظوها .

لقد أعجب ماركس بالاقتصاد الصناعي للأفطار ، البيضاء ، في الشمال ، وأبغضه كأسمى إنتاج للبرجوازية . لقد اتجهت نظرتة دائما إلى موطنه ، إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا . ولم يبرح هذا الأفق الأقليمي عند خلفائه الأساس القويم لكل الاعتبارات التكتيكية . ولكن الدنيا أكثر اتساعا إنها ، شيء يختلف عن هذا الأفق ، إنها أكثر من منطقة ، منطقة استنفدت في صمت واستسلام صادرات شمال أوربة الصغير . إن حياة جموع العمال البيض لم تقم أبدا على الصناعة ، وإنما قامت على الاحتكار الصناعي للدول العظمى الشمالية . وعلى أساس هذه الحقيقة الواقعة فحسب كانت الأجور السياسية تدفع دون أن تؤدي في الحال إلى الكارثة . ولقد ارتفعت اليوم فوق حرب الطبقات الناشئة بين العمال والمجتمع داخل الشعوب البيضاء - ارتفعت حرب أخرى هي حرب العناصر ، ومضت في اتساع مباين كل المباشنة ، اتساع لم يقع في حسابان أى زعيم من زعماء العمال . انها حرب لم يتوقعها واحد من هؤلاء وليس ثمة اليوم من يفهمها أو يجد الجرأة على فهمها في قسوتها التي لاتلين ، في قسوتها المثقلة بالمصير . قد قضى نظام النقابات والأجور المحددة على أن تنافس الشعوب البيضاء . ولم يمنع الضرر الذى يثيره الفارق الآخذ في الازدياد منذ ١٨٤٠ بين مستوى حياة العامل الصناعي وحياة الفلاح الا أن الأمور الاقتصادية السياسية الفاصلة - العوائد الجبركية ، الضرائب والقوانين - قد قام بوضعها جانب العمال مستهدفين مناهضة الفلاحة . وهنا ظهرت منافسة

مستوى حياة الملونين للأجور المترفة للعمال البيض .

إن الأجور الملونة كَمَّ من نظام وأصل مختلفين عن الأجور البيضاء .
لقد فرضت فرضا ولم يطالب بها ، وحافظ على انخفاضها بقوة السلاح حين
لم توجد مندوحة عن استعماله . ولم يسم ذلك رجعية أو سلب حقوق
البروتيارية وإنما سمي سياسية استعارية . ولقد اطمأن العامل الإنجليزي إلى
هذا الوضع وفهمه وأساغه ، ولا عجب فقد تعلم أن يفكر على أساس
إمبراطورى . قد حاول ماركس بمطالبته بقيمة نفقات الإنتاج الكاملة -
كأجر للعمال - أن يخفي حقيقة واقعة كان عليه أن يلحظها ويدخلها في
حسابه لو آثر حظا أكبر من النزاهة : هذه الحقيقة هي أن من بين نفقات
الإنتاج للصناعات الشمالية - أثمان الخامات الاستوائية : القطن ، المطاط ،
المعادن ، ثم إن هذه النفقات قد بنيت على الأجور المنخفضة التي يتقاضاها
العمال الملونون . فرفع أجور العمل الأبيض يرتكز على خفض أجور
العمل الملون .

إن ما أعلنته روسيا السوفيتية كأسلوب للكفاح ضد الاقتصاد الأبيض
للقضاء على حيويته بقطع الأثمان : وبعبارة أخرى أخذها في إعادة عمالها
أنفسهم من حيث مستوى الحياة ومدة العمل إلى مثل ما كانت عليه الحال
عام ١٨٤٠ ، متدرعة بكل وسيلة ، ولو أدى الأمر إلى الموت جوعا أو إطلاق
المدافع - كما حصل في موسكو ١٩٢٣ - إن هذا الأسلوب الكفاحي الذي
أعلنته روسيا قد أخذ في الظهور منذ زمن في غير إكراه في جميع أنحاء
العالم . وقد اتجه ذلك بتأثير مروع ضد حياة العمال البيض أكثر مما اتجه
ضد درجة هذه الصناعة . أفلم يدرك السوفيت ذلك بسبب افتتانهم بتعاليمهم

أم كان ذلك إرادة الإبادة تتحفز من جانب الشعور الآسيوى المستيقظ الذى يرمى إلى استئصال شعوب الحضارة الغربية ؟

فى مناجم جنوب افريقية يعمل البيض والكافير جنباً إلى جنب ، ويتناول الأبيض شلنين عن كل ساعة ومدى عمله اليومى ثمانى ساعات على حين يعمل الكافير اثنتى عشرة ساعة بأجر يقارب شلناً واحداً عن هذه الساعات جميعها وتدعم نقابات العمال البيضاء هذه النسبة الصارخة وتؤيدها ، وتحرم على الملونين أى محاولة تهدف إلى أن ينظموا فى جماعة - كما تنع بطريق الضغط السياسى على الأحزاب طرد العمال البيض بقضهم وقضيضهم ، وإن كان ذلك هو الإجراء الذى تحتمه طبيعة الأشياء . وفى ذلك المثل ما يكشف العلاقة العامة بين العمل الأبيض والملون فى جميع أنحاء العالم ، إن الصناعة اليابانية تكتسح المنافسة البيضاء من الميدان فى جنوب آسيا وشرقها ، تكتسحها برخص أجورها ، وهامى ذى بدأت تظهر فى الأسواق الأوروبية والأمريكية . ثم هامى ذى المنسوجات الهندية تجد سبيلها إلى لندن . وفى أثناء ذلك حدث أمر يثير الرعب : لقد عرفت اليوم مناجم الفحم فى جميع أنحاء الأرض وأثيرت للاستغلال ، وفى عام ١٨٨٠ لم تكن هناك مناجم فحم مستغلة إلا فى شمال أوربة وشمال أمريكا . وبذا انتهى احتكار العمال البيض للفحم ، هذا إلى أن الصناعة قد تحررت إلى حد كبير من الارتباط بالفحم ، لقد حررتها القوة المائية ، الزيت الأرضى ، نقل القوى الكهربائية . إن الصناعة تستطيع الهجرة ، وهى تقوم بها ، انها تهاجر فى كل مكان من ميدان دكتاتورية نقابات العمال البيضاء ميممة صوب الأقطار ذات الأجور الدنيا . إن تشيت الصناعة الغربية يسير سيرا حثيثاً منذ عام ١٩٠٠ . لقد أسست مصانع الغزل فى الهند

على أنها فروع للمصانع الإنجليزية ، لتقرب من المستهلك ، ذلك ما عني وقصد أولا ، ولكن الأجور المترفة في غرب أوربة قد أحدثت أثرا مختلفا كل الاختلاف . وفي الولايات المتحدة تهاجر الصناعة على صورة أوسع مدى من شيكاغو ونيويورك إلى مناطق الزنوج في الجنوب ، ولا تقف على حدود المكسيك . لقد نشأت مناطق صناعية في الصين وجاوة وجنوب أفريقية وجنوب أمريكا وإنها لتسير في طريق النمو قدما . إن الأساليب الصناعية البالغة حدا عاليا في تكوينها لتسرع الخطر في هربها إلى الملونين ، وقد أخذت الأجور المترفة البيضاء تتحول إلى وضع نظري لأن العمل الذي تأتي به لم تعد هناك حاجة إليه .

- ١٧ -

وما حل عام ١٩٠٠ حتى كان الخطر قد استفحل وهال . لقد تقوض بناء الصناعة الغربية . وأخذ ينذر بالانهيار تحت ضغط الأجور السياسية ، وانخفاض مدة العمل الفردي ، وتشبع أسواق التصريف الأجنبية ، ونشوء مناطق صناعية أجنبية مستقلة عن أحزاب العمال البيضاء . ولم يحافظ على الوهم المتسلط أمام الكارثة الشديدة السريعة في اقترابها إلا السلم غير الطبيعي ، السلم الذي نشره منذ عام ١٨٧٠ خوف الساسة من حواسم الأمور للشعوب « البيضاء » ، تلك الحواسم التي ليس من الهين تقديرها .

إن النذر التي تورث الانقباض والضييق لم تلحظ ولم تقدر ، لقد سيطرت على زعماء العمال والاقتصاد - ودعك من الساسة - تفاؤلية قدرية سطحية تكاد تكون إجرامية - إيمان بتقدم ثابت الخطأ يعبر عن نفسه

بالأرقام - ودعمُ هذا التفاؤل بالتضخم العليل لرأس المال الصوري ، الذي عدّته الدنيا كلها ملكية حقة ، وقبلا مالية حقيقية غير قابلة للتدمير . وحين حل عام ١٩١٠ ارتفعت أصوات فردية تذكر بأن العالم يوشك أن يُستخم منتجات الصناعة بما فيها الزراعة الصناعية الكبيرة . واقترحت هنا وهناك اتفاقات بين الدول على نظام الحصص الاختياري للإنتاج . ولكن ذلك كان نفخة في رماد . لم يكن هناك من يؤمن بأى خطر جدى ، ولا من يرغب فى الإيمان به . لقد كان مؤسسا على الوهم من أصحاب نظرة اقتصادية مصوبة من جانب واحد ، لم يروا فى الاقتصاد إلا كُما مستقلا فلم يلحظوا السياسة العظمى فى قوتها للثورة العالمية المتسللة ، تلك التى ضُغِطت ودُفِعت فى صور واتجاهات كاذبة . إن الأسباب لأعمق وأبعد من أن تتأثر بالتفكير فى مشكلات الهزات الاقتصادية . ولقد فات أوان ذلك منذ بعيد . وكل ما حدث هو السماح بفترة قصيرة من الانخداع الذاتى : الإعداد للحرب العظمى ، وهو يتطلب أيديا لا حصر لها . أيديا تُنتزع من الإنتاج ليكون أربابها حشودا فى الجيوش العاملة ، وعمالا لصنع العتاد الحربى .

ثم أتت الحرب العظمى بصاحبها الانهيار الاقتصادى للعالم الأبيض ، ذلك الانهيار الذى لم تكن الحرب سببا فيه ، والذى لم يعد فى الاستطاعة منعه . لقد وجب أن يكون ولا مفر من حدوثه فى بطن ، وفى صور أقل رعبا . ولقد اذكت إنجلترا الشعلة الأولى من نار هذه الحرب ، فعلت ذلك وهى موطن الاشتراكية العالية العملية لتبيد اقتصاديا أحدث الدول العظمى : ألمانيا ، الوحدة الاقتصادية التى تسير قدما فى أقوى سرعة ممكنة إلى الأخذ بأساليب أفضل وامثل ، فعلت ذلك لتبيدها ، ولتقصيها مدى الدهر عن ميدان المنافسة

العالمية ، وكلما غاض في فوضى الحوادث التفصكير السياسي واختفى ، وكلما تحكم في الموقف في كل مكان محض النزعات الحربية والاقتصادية الخشنة زاد أمل إنجلترا الغامض في أن تنقذ مركزها المالى والصناعى ، وتنقذ عمالها أنفسهم تبعاً لذلك - يانزال الخراب بألمانيا ، ثم روسيا ، ثم دول الاتفاق . ولكن ذلك لم يكن مطلقاً البدء الحقيقى للكارثة التالية فلقد تطورت عن الأمر الواقع ، ف منذ عام ١٩١٦ تحققت في جميع الأقطار البيضاء : ما اشترك منها وما لم يشترك في الحرب - تحققت فيها ديكتاتورية العمال أمام قيادة الدولة جهراً أو سراً ، في صور ودرجات جند متباينة وإن سادتها النزعة الثورية نفسها . لقد أسقطت كل الحكومات أوسيطرت عليها ، وكانت سوسا دب في كل الجيوش والأساطيل فأوهاها ، لقد خشى بأسها أشد ما خشيت الحرب نفسها ، وبحق كان ذلك . لقد دفعت بعد انتهائها بأجور عمل الجموع الأدنى إلى ارتفاع شاذ ، وحقت اليوم ذا الساعات الثمانية . وحين عاد العمال إلى مساقط رموسهم بعد الحرب نشأت في كل مكان على وجه البسيطة أزمة المساكن المشهورة - على الرغم من الخسائر الهائلة في النفوس البشرية . وتُرَدّ هذه الأزمة إلى أن البرولتيارية أرادت أن تسكن على نمط البورجوازية ، وقد حققت ذلك فعلاً ، لأنها رأت فيه الرمز الحقيق إلى انهيار كل القوى القديمة للطبقة والدرجة . ومن هذه الناحية فهم على حقيقته أولاً التضخم العام لمالية الدول والقروض الاقتصادية ، فهم على أنه إحدى صور البلشفية الفعالة التي نزعّت بوساطتها ملكية الطبقات السائدة في المجتمع ، وهدمت وتحولت إلى برولتيارية ، وترتب على هذا أن أقصيت عن السياسة المحركة . ومنذ ذلك الحين تولى حكم العالم الفكر المنحط ، القصير

النظر ، فكر الرجل الوضع الذى استحال فجأة رجلا قويا . هذا هو النصر !
لقد تمت الإبادة ، وأوشك اليأس من المستقبل أن يستحكم ، وأطفئت
غلة الانتقام من المجتمع الراقى . وفى أثناء ذلك تبدو الأمور كما هى : ينتقم
المنطق القاسى للتاريخ من المنتقمين ذوى الفكر الخسيس ، الحاسدين ،
الحالمين ، المتحمسين ، الذين عُموا عن الأمور الواقعة للحقيقة
العظيمة القاسية .

إن ثلاثين مليوناً من العمال البيض لا عمل لهم اليوم على رغم الخسائر
العظيمة فى الحرب ، وإلى جانبهم ملايين أخرى يعمل بعضهم فحسب ، وقد
ضربنا عنهم صفحاً ، وليس ذلك من عقايل الحرب لأن نصفهم يعيش فى
أقطار لم تشترك قط فى الحرب أو لم تُبْعِد فيها ، ولا هو نتيجة لديون الحرب ،
أو مناورات فاشلة فى العملة كما يظهر فى الأقطار الأخرى . إن تعطل العمال
يناسب فى جميع الأنحاء مع ارتفاع الأجور السياسية تناسباً دقيقاً . إنه يصيب
مختلف البلدان فى دقة بنسبة عدد العمال البيض فى الصناعة . وفى الولايات
المتحدة كان الأجملو أمريكيون أول من أصيبوا بالاستغناء عن عملهم ، ثم
أصيب به المهاجرون من شرق أوربة وجنوبها ، وبعد ذلك بوقت طويل
أصيب به الزنوج ، ومضت الحال وفق ذلك فى أمريكا اللاتينية وفى جنوب
أفريقية . وفى فرنسا يقل عدد المتعطلين بالقياس إلى ما سلف لأن التراب
الاشتراكيين - فوق كل شيء - يفهمون الفرق بين النظرية والواقع ، فيبيعون
انفسهم للمالية الكبرى فى سرعة بالغة ، مؤثرين نفع انفسهم على أن ينفعوا
ناخبينهم باغتصاب الأجور لهم . وفى روسيا واليابان والصين والهند لا تجد
نقصاً فى العمل لأن الأجور المترفة لم تعرف سبيلها إليها . إن الصناعة تهرب

إلى الملونين ، وفي الأقطار البيضاء لاتجد المخترعات والأساليب التي توفر من عمل اليد وتقتصد فيه - لاتجد من يدفع فيها مالا ، لأنها تخفف ضغط الأجور . ومنذ عشرات السنين كان الإكثار من الإنتاج مع المحافظة على عدد العمال بالتحسين الفنى الوسيلة الأخيرة لاحتمال هذا الضغط . ولقد أصبح احتمال اليوم عما لا تنهض به القدرة لأن التصريف صار مفقودا . لقد كانت الأجور في برمنجهام وإسن ، وبنسبورج يوما ما المقياس للعالم ، أما اليوم فقد أصبحت أجور الملونين في جاوة وروديسيا ويروهي ذلك المقياس . ويضاف إلى ذلك تقصيب أفراد المجتمع الراقى في الشعوب البيضاء بثرواتهم الموروثة ، وذوقهم الذى بنته السنين على مهل ، وحاجتهم إلى الترف الحق الأصيل الذى يرسم لغيرهم المثل . إن بولشفية ضرائب التراكات والإيراد التي أملاها الحسد ، والتي بدأت في إنكلترا قبل الحرب ، ثم ألوان التضخم المالى المذيبة للثروات قد قامت بعمل أساسى فى إنجاز التقصيب . ولكن هذا الترف الأصيل كان قد خلق العمل الممتاز وحافظ عليه ، وغذى الصناعات الممتازة وهى لها أن تنمو . كان قد هذب الطبقات الوسطى وأغراها بأن تكون لها مطالب ممتازة . وكلما عظم هذا الترف ازداد ازدهار الاقتصاد . ذلك ما فهمه نابليون يوما ما فلم ترضه النظريات القومية الاقتصادية إذ كان أحسن فهما للحياة الاقتصادية : فمن بلاطه انبعث ثانية الاقتصاد الذى كان قد قوضه اليعقوبيون ، انبعث حين تألف من جديد مجتمع رفيع احتذى النموذج الإنجليزى ، لأن نظام الفرنسى القديم كان قد فتك به ودمر وأصبح ما تخلف منه باليا حقيرا . إذا ما أريدت الثروة المتجمعة فى الطبقات الرفيعة بهجوم الدهماء ، وإذا ما أصبحت مناط اشتباه ومصدر اضطهاد وخطر على ممالكها فإن الإرادة النوردية

لحياسة الملكية ، وإدراك السلطة عن طريقها تقف عن الإبداع ، يموت الطموح الاقتصادي النفسى ، وتصبح المنافسة غير مربحة . يجلس الإنسان فى زاوية ، قصاره الزهد والادخار ، وبالادخار الذى هو دائما ادخار لعمل الغير - يهلك كل اقتصاد واسع التقدم بالضرورة . وكل أولئك أسباب تعمل معا . قد أصبح العمل الأجير الأبيض فاقد القيمة ، وأصبحت جموع العمال حول الفحم الشمالى تزيد على الحاجة . لقد كان ذلك الهزيمة الأولى للشعوب البيضاء أمام مجموعة الشعوب الملونة فى العالم أجمع ، وهى التى تضم الروسين والأسبانيين الجنوبيين ، والإيطاليين الجنوبيين ، والأمم الإسلامية ، كما تشمل الزوج فى أمريكا الإنجليزية والهنود الحمر فى أمريكا الأسبانية . كان العلامة الأولى المنذرة بأن السيادة العالمية «البيضاء» تواجه احتمال السقوط بين يدى القوة الملونة كنتيجة لحرب الطبقات تشن عليها من وراء ظهرها .

وعلى الرغم من ذلك لا يجرؤ أحد على مواجهة الأسباب الحقيقية لهذه الكارثة ، ورؤية أعماقها السحيقة . إن العالم الأبيض يحكمه الاغبياء بصفة مسيطرة - وإن الانسان ليشك فى أن هذا العالم الأبيض محكوم فى الواقع - ويقف حول سرير مرض الاقتصاد الأبيض سلطات هزلية لاترى ما وراء السنة التالية ، وتتناطح حول التافه من المسائل يسبب الآراء الاقتصادية الضعيفة التى شاخت منذ بعيد : «الرأسمالية» ، و«الاشتراكية» . واخيرا - والجن يعمى - لا يتحدث احد عن عواقب هذه الثورة التى يبلغ عمرها أكثر من مائة عام ، والتى اندفعت من اعماق المدن الكبيرة لتهدم الحياة الاقتصادية بل لتهدم غيرها ايضا . هذه العواقب لا يراها احد بل لا يجرؤ احد على رؤيتها .

إن العامل اليوم كما كان بالأمس - معبود العالم أجمع ، و زعيم العمال ،
معنى من كل نقد احتراماً للزعة التي قضت بوجوده ، ومهما يدور الطعن .
في الماركسية فإن كل حرف من تلك العبارات الطاعنة ينطق بالماركسية نفسها ،
إن أكثر خصومها صخباً قد استحوذت عليهم الماركسية وهم لا يشعرون .
يكاد كل منا يكون في إحدى زوايا قلبه اشتراكياً أو شيوعياً . إلى ذلك يعود
النفور العام من النسل بالأمم الواقعة ، بحرب الطبقات المسيطرة ، واستخلاص
ماله من نتائج . إنهم ينصرفون عن مكافحة أسباب الكارثة في غير رحمة وبكل
ما يتسع له الذرع من جهد يستغرق أمد الإمكان ، ويحاولون إزالة النتائج ،
الأعراض ، وإنهم في محاولتهم هذه لا يرتفعون إلى إزالتها ، فيقنعون
بتغطيتها ، إخفائها ، إنكارها . وهنا نجد أسبوع الأربعين ساعة هو المطلوب
الثوري الجديد بدلاً من البدء ببحث ارتفاع الأجور الثوري ، إن هذا المطلوب
خطوة جديدة في الطريق الماركسي ، إنه إنقاص آخر لعمل العمال البيض مع
المحافظة على الإيراد نفسه ، أي إغلاء آخر للعمل الأبيض ، فلقد أصبح عدم
جواز تخفيض الأجور السياسية أمراً مقرراً ، إذ افترض أنه بديهي ، وسُلم
بذلك . لا يوجد من يجسر على مجابهة جموع العمال بالقول بأن انتصارهم ليس
على التحقيق إلا أكبر هزيمة حاقت بهم وأن زعماء العمال وأحزاب العمال قد
جروهم إلى ذلك ليشبعوا نهم أنفسهم إلى الشعبية ، إلى القوة ، وإلى المناصب
التي تدر الربح ، ولن يفكروا قبل انقضاء أمد بعيد في أن يتركوا فرائسهم
تفلت من أيديهم حتى لا يختفوا هم أنفسهم وشيكاً . هذا حال العمال البيض على
حين يعمل الملونون عملاً رخيصاً وطويلاً ، عملاً يستغرق غاية استطاعتهم :
يؤدي الملونون العمل على هذه الشاكلة في روسيا تحت ظل العصا ، وفي غيرها

في ظل الشعور الصامت بأنهم يملكون التصرف في سادة اليوم المكروهين -
أو سادة الأمس على التحقيق !!

هذا معنى العبارة الخلابة الخاوية عبارة « القضاء » على تعطل الحال ، أى
إيجاد عمل ، عمل زائد على الحاجة ، عمل لا هدف له ، إذ لم يعد هناك في هذه
الظروف عمل مربح ذو أهداف - ولا من يحدث نفسه بأن نفقات هذا
الإنتاج الذى لا تصريف له ، هذه القرى البوتمكينية (١) في صحراء
اقتصادية - يجب أن تسدد ثمانية بيولشفية الضرائب ، تلك التى تشمل خلق
وسائل دفع وهمية من بقايا الفلاحية السلمية والمجتمع الرفيع الحضري . هنا
سياسة اغراق الأسواق بالتخفيض المصمم لقيمة العملة ، وبذلك التخفيض
يحاول كل قطر انقاذ تصريف انتاجه على حساب غيره . وهو فى أساسه
احتساب مغلوطة مستسهل للأجور الحقيقية ونفقات الإنتاج التى يندفع بها
المشتري والتى يتحمل عبئها من جديد ما فضل من ملكية لبقية الأمة عن
طريق تخفيض القيم . ولكن انهيار الاسترليني - وهو تضحية هائلة من جانب
الكبرياء الإنجليزية - لم ينقص عدد المتعطلين فردا واحدا . لا يكون اغراق
الأسواق مكفول النجاح الا اذا قام على أساس طبيعى فى الحياة الاقتصادية ،
أساس من الأجر الأرخص والعمل الأكثر . وعلى هذا الأساس ، تعتمد
النزعة المدمرة للصادرات الروسية ، والتفوق الواقعى لميادين الإنتاج والملاحة ،
كاليابان ، سواء أكان ذلك التفوق فى ميدان الصادرات أم فى الزراعة ،
وسيان فى ذلك القضاء على الانتاج الأبيض بالصادرات الذاتية ، أو بمنع

(١) سياسى روسى وإدارى قدير ، بنى أسطول البحر الأسود وأكثر موانئه -
عرف بالاسراف الشديد ، وكان أقرب المقربين إلى كاترين الثانية .

الواردات بتموين البلاد بإنتاجها الذاتي الأرخص .

وأخيرا تظهر الوسيلة الأخيرة اليأسه لألوان الاقتصاد القومى
المُحتَضرة : الأوتاركية (سياسة الاكتفاء) أو أى لفظ كبير يطلق على
هذا الموقف للكائنات الحية فى موتها ، هى العزل الاقتصادى المتبادل عن
طريق السياسة بوسائل المكوس الحربية ، وحظر التوريد ، والمقاطعة ،
والحواجز أمام الحوالات النقدية ، وسائر ما اخترع ، وما سيخترع للوصول
إلى حال الحصون المحاصرة : تلك الحال التى تكاد تطابق الحرب الحقيقية ،
والتي سوف تذكر يوما ما الدول المتفوقة فى القوة الحربية - تذكرها بالمطالبة
بفتح الأبواب والتسليم الاقتصادى وهى تشير إلى دباباتها وأسراب حاملات
قنابلها . يجب ألا نمل تكرار القول ، بأن الاقتصاد ليس بملكة منطقية
على نفسها ، إنه مرتبط ارتباطا وثيقا بالسياسة الكبرى ، ولا يستطيع
تصور وجوده من غير سياسة خارجية قوية ، وهو من أجل ذلك ولهذه
الغاية يتوقف على قوة البلاد الحربية التى يعيش فيها أو يموت .

ولكن ، أى معنى للدفاع عن الحصن إذا كان العدو بداخله ، وإذا كانت
الحياة على هيئة حرب الطبقات تدفع إلى الشك فى من وفيما يدافع عنه فى
الواقع ؟ هنا تقوم مشكلات العصر الحقيقية الثقيلة . تقوم المشكلات
الكبيرة كى يُسنَّضى التفكير فى معالجتها الرموس الكبيرة حتى لتفلق نفسها بيدها
كدا وبجشا . أما إذا رأى الإنسان كيف ينحط التفكير إلى تناول مشكلات
صغيرة وهمية ، يُستترف الكذب فى سبيلها ، ليظهر على المسرح أشخاص
ذو وضالة بآراء ضئيلة ، ووسائل ضئيلة ، وأما إذا كان وزر الكارثة الاقتصادية
لا يبحث عنه إلا فى الحرب ، وفى ديون الحرب ، وفى التضخم المالى وصعوبات

العملة ، وكانت عبارات « عودة الرواج » ، و « انتهاء البطالة » تدل على انتهاء عصر هائل في تاريخ العالم ، ولا يخجل منها الإنسان - إما إذا كان هذا وكان ذلك فالمستقبل إذن ميثوس منه . إننا نعيش في عصر من أكثر عصور التاريخ جبروتية ، على حين لا يرى ذلك أحد ولا يدركه أحد . إننا نعانى انفجارا بركانيا لا ضريب له : لقد أقبل الليل ، واقتشعت الأرض ، وانسابت سيول الحمم تكتسح ألما بأجمعها . والناس يستغيثون بفرقة المطافئ . ومن لهم بها ؟ إنها الدماء في كل ناحية ، الدماء الذين أصبحوا سادة ، لا الأفراد النادرون الذي يحرزون « العنصر » ، إن التاريخ لا يصنعه الا الأفراد العظام . أما ما يبدو على هيئة الجموع فليس الا موضوعا له .

- ١٨ -

هذه الثورة العالمية لم تنته : سوف تتخطى أواسط هذا القرن ، وربما آخره . انها تخطو قدما دون توقف صوب أمورها الحاسمة النهائية . مقترنة بالقسوة التاريخية لمصير عظيم لم تفلت منه أية مدينة في الماضي . وستخضع لحتميته جميع الأمم البيضاء في الحاضر . ولم يفهمها بحال ذلك الذي ينادى بنهايتها ، أو يؤمن بانتصاره عليها . ان عقودها الجبارة لتستهل الآن . وليست كل شخصية متزعمة في عصر الثورة الجراكية : سيبو وخصمه هانيبال على السماء ، وسلا كاربوس ، ولا كل حادثة عظيمة : كسقوط قرطاجنة ، الحروب الأسبانية . ثورة الحلف الإيطالي ، ثورة الرقيق من سيسيليا الى آسيا الصغرى - ليست كل هذه ولا تلك الا صورا تدنو فيها من نهايتها هذه الأزمة العميقة للمجتمع ، أي للبناء العضوي للأمم الحضارة . لقد وقع ذلك

فى مصر الهكسوسية ، وفى الصين على عهد الدول المتناطحة ، وفى كل مكان آخر فى المراحل التاريخية والمعاصرة، مهما تكن قلة علينا به : إنا الآن جميعا فى غير استثناء عبيد لإرادة التاريخ ، أدوات تتعلون على تنفيذ حدث عضوى . فى هذا النزال الهائل بين النزعات القوية ، النزال الذى تدور رحاه فى العالم الأبيض متمثلا فى حروب وانهيارات . وفى شخصيات قوية مشحونة بالهزيمة والمأساة ، وفى ألوان الإبداع الجسارة ذات التكوين العابر . فى هذا النزال لا يزال يتلو الهجوم الذى تشنه من أسفل جموع المدن - دفاع من أعلى وإن يكن ضعيفا ، غير شاعر بحتميته . ولن تبدو النهاية إلا إذا انقلبت الأوضاع ويوشك ذلك أن يقع .

فى مثل هذه الأوقات يقوم حزبان طبيعيان ، جبهتان لحرب الطبقت ، قوتان واتجاهان داخليان . سمهما ما شئت من أسماء ، فهما اثنان لمحب مهما يكن عدد الأنظمة الحزبية الموجودة ، وسواء أكانت قائمة أم لا . تدل على ذلك البلشفية المطردة فى التقدم ، بلشفية الجموع فى الولايات المتحدة ، الطراز الروسى فى فكره وأمله ورغبته . هذا هو «الحزب» . لم ينهض بعد فى هذه البلاد مركز مقالومة له . إنها بلاد لا أمس لها ، وقد تفقد الغد أيضا . إن مرحلة سيادة الدولار اللامعة وبنائها الاجتماعى تلك التى بدأت بحرب الانفصال عام ١٨٦٥ - لتبدو أمام نهايتها . فهل تصبح شيكاغو موسكو العالم الجديد ؟ وفى إنجلترا قد اتخذت جماعة اتحاد أكسفورد - وناديا أكبر ناد لطلبة أسمى جامعة فى البلاد - اتخذت القرار الآتى بأكثرية ساحقة : « هذا المجلس لن يحارب فى أى ظرف دفاعا عن الملك والوطن » . ومعنى هذا انتهاء الفكرة التى كانت مسيطرة إلى ذلك الوقت على جميع تشكيلات الأحزاب .

ليس بمستحيل أن تكون الدول الأنجلوسكسونية على وشك الذبول . ولكن ما مصير القارة الغرب أوربية ؟ إن أنظف مكان من هذه البولشفية البيضاء هو روسيا ، لم يعد بها شيء اسمه حزب ، وإن انطوى بها تحت هذا الاسم فئة حاكمة من النوع الآسيوي . ولم يبق بها أى إيمان ببرناج ما ، وإن بقي بها الخوف من الموت ، بسحب بطاقة المواد الغذائية ، أو الجواز أو بالإرسال إلى معسكر الاعتقال . أو برصاصة مودية ، أو بجبل خناق . إن جبن طبقات بأجمعها ليهذل جهده عبثا للعب دور «وسط» بين النزعات «اليمينية» و«الشمالية» الراديكالية . فالوقت الحالى نفسه راديكالى ، ولا يحتمل مصلحة ما . لا يمكن القضاء على الأمر الواقع بالسلطان القائم للشمال والإرادة الآخذة فى اليقظة لحركة يمينى لاتجسد لها فى هذا الوقت مستقرا إلا فى دوائر معينة ، وبين بعض الجيوش ، وفى مجلس اللوردات الإنجليزى دون غيره من الهيئات . ولذلك اختفى حزب الأحرار الإنجليزى ، وسيمضى فى أثره وارثه حزب العمال فى صورته الراهنة . واختفت أحزاب الوسط الألمانى من غير مقاومة . إن النزعة نحو الوسط رغبة فى الدعة بأى ثمن ، وإنها لرغبة واهنة كهرمة ، تنزع إلى مسووسة (١) الأمم ، إلى أن تنزل كل منها عن عرشها التاريخى ، رغبة يتخيل بها الانسان القدرة على الهرب من ضربات التاريخ . إن التضاد قائم مائل بين نظام المراتب الاجتماعية والجموع الحضرية ، بين التقاليد والبولشفية ، بين السكيان المتفوق للعمل اليدوى القليل . وعمل الجموع الأدنى . بين هاتين الناحيتين اللتين لاثالث لهما ، ولك أن تسميهما بما تشاء . ولكن من الخطأ كذلك الايمان بإمكان وجود حزب واحد . فما الأحزاب

(١) أى أن تكون كل أمة سويسرا أخرى

إلا صور ليبرالية ديمقراطية للمعارضة . إنها تفترض وجود معارضة حزبية .
إن الحزب الواحد مستحيل الوجود في الدولة ، كما يستحيل وجود دولة في
عالم ليس فيه غيرها . إن الحد السياسي - لقطر أو فكرة - يفصل دائماً
قوتين إحداهما عن الأخرى . إنه المرض الطفلي لكل الثورات ، الإيمان
لوحدة منتصرة - على حين تتطلب مشكلة العصر التي نشأت هي نفسها عنها -
الانشقاق . إن أزمت التاريخ العظيمة لا تحل بهذه الطريقة . إنها تنزع إلى
النضج لتتحول إلى مشكلات معارك جديدة . إن «الدولة الكلية» ، وهي عبارة
خلافة مما أشاعته إيطاليا قد أصبحت بدعة دولية ، حققها اليعقوبيون في سنتي
حكم الإرهاب ، فلما أبادوا السلطات المتداعية للحكم القديم ، وأسسوا
الديكتاتورية انشقوا هم أنفسهم إلى جيرونديين وجبليين ، وقد شغل الأولون
المحل الشاغر ، ثم سقط زعمائهم فرائس اليسار وقد ثار لهم خلفاؤهم من بعد
فجرعوا اليساريين الكأس نفسها . وبحلول ترميدور حل أو ان ارتقاب القائد
المنتصر . قد استطاع القضاء على حزب كنظام وبروقراطية لذوى المرتبات
ولكن القضاء عليه حركة ، كسلطة روحية فكرية مما لا يقع في الذرع بحال .
إن العراق الذي تحتمه الطبيعة سوف ينتقل إلى من بقى من الحزب ، وهنا
تتكون جبهات جديدة لاستمرار العراق . وسيحاول في هذا العراق أن
ينكر نفسه ، أو أن يتنكر . ولكنه على أية حال قائم مائل فيه .

ينطبق هذا على الفاشية ، وعلى كل الحركات الكثيرة التي تحتذى حذوها ،
والتي نشأت ، أو لاتزال تنشأ ، كما في أمريكا مثلاً . كل منها أمام خيار لا مفر
منه . على الإنسان أن يعرف بصفة حاسمة أين يقوم أ إلى اليمين أم إلى
اليسار ؟ وإلا فإن مجرى التاريخ سيفصل فيه ، والتاريخ أقوى من كل نظرية

أو أحلام فكرية . إن المسئلة اليوم مستحيلة بقدر استحالتها في عصر الجراكين .

إن البولشفية الغربية تحيا في كل مكان ما خلا روسيا . اذا ما قضى على أنظمتها الكفاحية حيت في صور أخرى ، كجناح شمالي للحزب الذي خيّل إليه أنه قد قضى عليه ، كفكرة قد ينخدع آحاد وجموع انخلعا تماما في وجودها في أفكارهم أنفسهم ، كحركة تذبثق فجأة ذات يوم في صور منظمة .

ماذا يعني « اليسار » ؟ ان الألفاظ الحسلاية التي اشاعها القرن الماضي كالاشتراكية والماركسية والشيوعية قد شاخت وهرمت انها لم تعد تعبر عن شيء ما . والناس يستعملونها حتى لا يلزموا بأن يقدموا حسابا لأنفسهم عن موقفهم . ولكن العصر يتطلب الوضوح . ان « اليسار » - وهو ما هو - « حزب » ، وكل من يؤمن بحزب ، لأن ذلك صورة ليبرالية للكفاح ضد الطبقة الراقية ، لكفاح الطبقات منذ ١٧٧٠ ، للشوق الى الأكثريات ، للجرى مع « الجميع » ، للكثم قبل النوع ، القطيع قبل اليسد . ولكن القيصرية الحق لكل الحضارات المنتهية تعتمد على أقبليات قوية صغيرة . ان اليسار - وهو ما هو - برناج لأن ذلك هو الاعتقاد الفكري الراسيونيالى بقهر الحقيقة بالجردات . اليسار هو الدعاية المهيجة الصاخبة على بلاط الشوارع ، وفي الاجتماعات الشعبية ، هو فن اثاره جموع المدينة بعبارات قوية وعمل علدية . ولقد وصل النثر اللاتيني على عهد الجراكين في تطوره الى ذلك الأسلوب البليغ الذي لا يجدى الا في البلاغة الممعنة في التدقيق كتلك التي يصطنعها شيشرون . اليسار هو التحمس للجموع دائما كأساس للسلطة ، هو ارادة تقصيب الممتاز ، وتسوية الصانع بالشعب بنظرات جانبية تفتحهم الفلاحين

والبورجوازيين وتزدرهم .

ليس الحزب صورة هرمة فحسب ، فهو يستند أيضا إلى مثالية الجموع التي انتهت إلى الشيخوخة ، إنه يرى الأشياء من أدنى ، ويجرى وراء تفكير الأكثرية . « واليسار » أخيرا وقبل كل شيء - الافتقار إلى احترام الملكية . ولن تجد عنصرا يحوى غريزة الملكية قوية قوتها في نفس الجرمانى ، لالشيء إلا أنه أقوى الأجناس التاريخية في نزعتيه الإرادية . إن إرادة الملكية هي في الحقيقة - المعنى النورديكى في الحياة . إنها تسيطر على تاريخنا كله ، وتشكله بادئة بغزوات الملوك نصف الأسطوريين ومنتية إلى صورة الأسرة الراهنة ، التي لا بد أن تموت إذا انحلت فكرة الملكية . من لم يُرزق هذه الغريزة فليس من « عنصر » .

هذا هو الخطر العظيم لمنتصف هذا القرن : أن يتابع الإنسان ما يرغب في محاربته . إنه عصر أنصاف الحلول وألوان الانتقال . ولن تنتهى الثورة طالما كان ذلك ممكنا . إن قيصرية المستقبل لن تقنع ، بل لن تقتصر بالسلاح ولن تغلب الثورة إلا إذا صار ذلك بديهيا : عند ما تحس الأكثرية كحجة مبررة وتحتقر ، عند ما يرى البعض الجموع ، الحزب بكل معنى الكلمة ، كل البرابج والأنظمة - عند ما يراها دونه ، حتى في الفاشية يقوم الأمر الواقع الجراكى لجهتين : اليسرى لجموع المدينة الدنيا ، واليمنى للأمة المشكلة من الفلاحين فصاعدا حتى الطبقات السائدة في المجتمع - ولكن تكبحها الهمة النابليونية لفرد . إن التضاد لم يمنع ، ولا يتأتى منعه . ولسوف يظهر في صورة حرب بين الخلفاء إذا ما أطلقت هذه اليد الحديدية دفة الأمور . إن الفاشية انتقال أيضا . لقد نشأت بين جموع المدينة لحزب للجموع متذرعة بالدعاية المثيرة

الصاخبة وخطب الجماهير . وليست نزعات الاشتراكية العالية غريبة عليها . وإن الديكتاتورية حين يكون لها مطمع اشتراكي ، وحين ترى أنها ما قامت إلا من أجل العامل ، فتذهب تلتمس الرضا عنها والحب لها في الأزقة - إنها حينئذ تعد صورة عابرة . إن قيصرية المستقبل تجاهد في سبيل القوة فحسب ، في سبيل إمبراطورية ، وتناجز كل لون من الحزب .

كل حركة مثالية تؤمن بنهاية أعمالها . إنها ترفض الفكرة بأن التاريخ سيتابع سيره « بعدها » ، ولا يزال يعوزها الشكاكية القيصرية والنظرة الازدرائية الى الناس ، والعلم العميق بوقتيية جميع المظاهر . لقد كانت فكرة موسوليني المبدعة عظيمة ، وكان لها أثر دولي : لقد رؤيت صورة ممكنة لمكافحة البولشفية . ولكن هذه الصورة نشأت عن تقليد الخصم ، ولذلك كانت مليئة بالآخطار : الثورة من أدنى ، وأكثرها من صنع الإنسان الأدنى ومشاركته ، الميليشيا الحزبية المسلحة - كان يوازنها في روما القيصرية عصابات كلوديوس وميلو - الميل الى جعل العمل الرئيسى الفكرى والاقتصادى دون العمل المحض اذ قد فقد فهمه ، والى الإقلال من احترام ملك الغير ، الخلط بين الأمة والجوع . وبالاختصار المثالية الاشتراكية للقرن السابق .

كل هذا أصبح مما طواه الماضى . ما يشير الى المستقبل ليس كيان الفاشية كحزب ، بل صورة مبدعها فحسب . ليس موسوليني زعيما حزبيا على الرغم من أنه كان زعيم عمال ، ولكنه سيد بلاده . من المحتمل أن يقدر لـ « لينين » وهو الصورة المثالية التى احتذاها موسوليني - أن يكون كذلك لو أرخى له فى الأجل وطال عمره . انه يملك عدم المبالاة المتفوقة تجاه حزبه ، والإقدام على الانسحاب من كل مثالية . ان موسوليني رجل سياسى فوق كل شئ ، هادى

كالثج ، وشكاكى واقعى ، ودبلوماسى . إنه يحكم وحده على التحقيق . إنه يرى كل شىء - وتلك أشد المواهب ندرة لدى الحاكم المطلق . إن نابليون نفسه كان فى عزلة عن محيطه ، إن أصعب الانتصارات التى ينتزعها حاكم ما ، وأكثرها ضرورة ما يكسبه من أتباعه البريتريانيين لا من خصومه . ذلك ما يتميز به الحاكم الأصيل . ومن لا يعلم ذلك ولا يستطيعه ولا يجرؤ عليه يطفو طفو غطاء الفلين على سطح الأمواج : يُرى عاليا ولكن فى غير سلطان . إن القيصرية المكتملة ديكتاتورية ، ولكنها ليست ديكتاتورية حزب . بل ديكتاتورية رجل واحد يناجز الأحزاب كلها ولا يبالىها وفى مقدمتها حزبه نفسه . وتبلغ النصر كل حركة ثورية لطلاع من البريتريانيين ، تستنزف جهودهم وتستغل ، ثم يستغنى عنهم إثر ذلك ويعتبرون مصدر خطر يجب استئصاله . إن السيد الحق يبدو فى الطريقة التى يتخلص بها منهم فى غير مبالاة ، أو إقرار بالجميل ، مرسلا نظره إلى هدفه الذى فى سبيله يبحث عن الرجال اللائقين ، ويعرف كيف يخدمهم . وقد بدت الثورة الفرنسية فى أوائلها على نقيض ذلك ، فلم يملك السلطة يومئذ أحد ، كل يريد لها وكل يأمر وما من مطيع .

إن موسولينى رجل خلق للسيطرة ، إنه أشبه بزعيم العصابات المأجورين (الكوندتييرى) فى عصر النهضة ، أولئك الذين سرى فيهم مكر الجنس الجنوبى ، فقدروا الملائمة التامة بين مسرح حركتهم وطبيعة إيطاليا - موطن الأوبرا - ولم تفتنهم أنفسهم تلك الفتنة التى لم يستطع نابليون أن ينجو منها تماما ، والتى أدت إلى هلاك رينيزى (مثلا) . إن موسولينى يصيب كبد الحقيقة إذا ما أشار إلى أنه يتوخى المثل البروسى ويحتذيه . إنه أدنى إلى

فردريك العظيم بل إلى أبيه من نابليون .

وهنا مجال كلمة فاصلة عن « البروسية » و « الاشتراكية » . ولقد وازنت بينهما عام ١٩١٩ . إن الأولى فكرة حية ، أما الأخرى فكلمة شائعة خلافة مسيطرة لقرن كامل . ولكنني يوم وازنت بينهما لم أفهم ، ولا بد من أن أعلن ذلك وأقوله . فلقد أصبح الناس لا يفهمون كيف يقرأون . لقد مات ذلك الفن العظيم منذ عصر جوته . إنهم يتصفحون المطبوعات (بالجملة) ومن عادة القارئ أن يحيط من قدر الكتاب - لقد أبنتُ يومئذ أن الجيش الضخم من العمال ، الذي صاغه بيبيل بما يسوده من نظام يتمثل في الوفاء للتبعية والزمالة ، والترحيب بأقصى غاية التضحية - إن ذلك الجيش ليس إلا استمرارا لحياة ذلك الطراز البروسي القديم ، الذي ظهر أول مرة في معارك حرب السنين السبع . لقد كان المعول على الفرد الاشتراكي بـ «لعبته» خلقا ، على أوامر ضميره الخلقية ، لا عليه بالنظر إلى ما في رأسه من اشتراكية مطروقة . ليست إلا خابطا بروسيا من مثالية غبية ، وطموح خسيس . ولقد أبنت أيضا أن هذا الطراز من الوجود على صورة تلقاء الواجب - يعود بأصله التقليدي إلى وقت تنظييات الفرسان الألمان ، التي قامت في القرون اللغوية على حراسة حدود الحضارة الفلوسفية تجاه آسيا . وإن هذه التنظيمات لتنهض بهذا اللعب في يومنا هذا مرة أخرى . وفي أغسطس ١٩١٤ ظهر هذا الموقف الخلق غير الواعي موفيا على غاية بهائه . وهو في هذا ككل طراز أصيل للحياة ، ولذا فلم ترقظه ولم تهذب الخطابة والكتابة ، وإنما أثاره المثل الحي ووصفه . لقد ربى الجيش المانيا ، الجيش الذي خاتمه الأحزاب عام ١٩١٨ حين انطفت الدولة . ومنذ يومئذ انتصبت قامة الإرادة المنظمة في الحركة القومية ثانية ،

في موقفها الخلقى للصفوة لا في برامجها وأحزابها . وعلى هذا الأساس قد تتأق تربية الأمة الألمانية لمهام مستقبلها الثقيل على مهل وفي مثابرة . وما لنا عن ذلك سمعدى إذا أردنا ألا نهلك في المعارك المقيمة .

ولكن ذوى الأذهان السطحية لا يستطيعون فكاً من التفكير الماركسى للقرن الماضى . إنهم فى كل أنحاء العالم لا يفهمون الاشتراكية على أنها صورة خلقية للحياة بل يفهمونها على أنها اشتراكية اقتصادية ، اشتراكية العمال ، مثالية الجموع بأهداف مادية . ليست اشتراكية البرامج إلا تفكيراً من أدنى ، قائماً على غرائز خسية إنها أوج الشعور القطيعى الذى يحتفى اليوم فى كل مكان وراء الشائعة الخلابه : « قهر الفردية » ، إنها عكس الشعور البروسى الذى مارس ضرورة التفافى المنظم على يد زعماء مثاليين ، يملكون من أجل ذلك الحرية العميقة فى أداء الواجب ، الحرية التى هى أمر النفس ، حكم النفس ، أمام هدف عظيم .

إن اشتراكية العمال فى مختلف صورها - على العكس - من أصل إنجليزى صميم . ولقد أثبت ذلك من قبل . نشأت عام ١٨٤٠ كالصورة المنتصرة لرأس المال الذى لا وطن له عن طريق سيادة السهم كلاهما تعبير عن مبدأ حرية التجارة المائشترية : هذه البلشفية « البيضاء » رأسمالية من أدنى ، رأسمالية الأجور . كما أن رأس المال المضارب طبقاً لطريقته - اشتراكية من أعلى ، من البورصة . كلاهما نشأ عن أصل فكى واحد ، من التفكير فى المال ، من التجارة بالمال فى شوارع المدن العالمية . وإن من المسائل الثانوية أن يبدو ذلك فى الصورة الأولى ارتفاعاً فى الأجور . وفى الأخرى رجحاً فى سوق المضاربة .

لاتضاد بين الليبرالية الاقتصادية والاشتراكية . فسوق العمل بورصة

البروليتارية المنظمة . ونقابات العمال اتحادات لاغتصاب الأجور تفتح في نزعها وطريقتها منهج اتحادات الزيت والصلب ، والمصارف المطابقة للنموذج الانجلو أمريكي والتي تتخلل اشتراكاتها المالية مشروعاتها الفردية المدارة فنيا ، لتحللها وتخضعها وتمتصها وتسيطر عليها إلى أن تنتزع ملكيتها بتصميم اقتصادي . لم تعط بعد لمدة طويلة حقها من الاعتبار الصفة المدمرة المغتصبة التي لرزم الأسهم وسائر ألوان المساهمات ، الفصل بين الملكية بالمعنى المالى الحديث ، والعمل القيادى المسئول الذى ينهض به صاحب العمل ، ذلك الذى لم يعد يعرف من صاحب المصنع فى الواقع .

إن الاقتصاد المنتج ليس آخر الأمر إلا شيئا لا إرادة له لمساورات البورصة . ولم تحرز البورصة قوة الفصل فى الحياة الاقتصادية بعد أن كانت محض وسيلة مساعدة للاقتصاد - إلا بسيادة السهم . إن هؤلاء الاشتراكيين المالبين ، وسادة الاتحادات كمورجان وكرويجر - يوازيان بدقة زعماء الجموع لأحزاب العمال ، والقوميساريين الاقتصاديين فى روسيا : طبائع تجارية يتجلى فيها ذوق محدثى النعمة . الفريقان يحاربان القوى المحافظة للدولة ، للجيش ، للملكية ، للزارعين ، لأصحاب العمل ، فما أشبه يومنا هذا بعصر الجراكيين ! ولكن الطراز البروسى لا يتطلب أسبقية السياسة العظمى على الاقتصاد فحسب ، وتنظيمه وتهذيبه بدولة قوية ، مما يتطلب المقدرة الابتكارية الحرة فى روح قيادة العمل الخاصة . وايس فيما ينشده الطراز البروسى من تنظيم الاقتصاد شيء من التنظيم الحزبى البرنامجى والغلو فيه إلى أن تزول فكرة الملكية التى تعنى بين الأمم الجرمانية بالذات حرية الإرادة الاقتصادية والتصرف المطلق فى الملكية الفردية .

«التنظيم» هو ترويض جواد أصيل بفارس خبير لا ضغط الجسم الاقتصادي الخي في مِشْد مصمم على أساس اقتصادي أو تحويله إلى آلة مصففة في إيقاع متزن . بروسى يعنى التنظيم الأرستقراطى للحياة على حسب مرتبة العمل . بروسى يعنى السبق المحتوم للسياسة الخارجية ، أى للقيادة الناجحة للدولة فى عالم من الدول - على السياسة الداخلية التى عليها أن تحصر مهمتها فى المحافظة على إعداد الأمة للحرب ، تلك السياسة التى تؤدى إلى الاضطراب والإجرام إذا كانت بالاستقلال عنها تتبع أغراضا خاصة مثالية. فى هذا يتمثل ضعف معظم الثورات التى ارتفع زعماءها عن طريق الديماجوجية فلم يتعلموا شيئا آخر ، ولم يعرفوا كيف يهتدون إلى الطريق الذى ينقلهم من التفكير الحزبى إلى التفكير السياسى - كدانتون وروبسبير . لقد مات ميرابو ولينين فى سن مبكرة جدا ، ونجح موسوليني . إن المستقبل لرجال الأمور الواقعة بعد أن تبختر زهوا على مسرح التاريخ العالمى - المثاليون منذ عصر روسو ، أولئك الذين درجوا ولم يتركوا وراءهم أثرا ثابتا .

وبروسى - أخيرا - يعنى خلقا ربى ونظم نفسه ، الخلق الذى تمثّل فى فردريك الأكبر ، وصاغه فى عبارته عن نفسه : « الخادم الأول لدولته » . مثل هذا الخادم ليس خادما بالمعنى الحرفى ، ولكن يبدل كان مصيبا فيما يخص الأكثرية حين قال : إن الأمة الألمانية ذات روح خادمية . وقد أثبت حزبه ذلك المعنى الذى عناه عام ١٩١٨ . إن خدم النجاح فى ألمانيا أكثر منهم فى أى بلد آخر ، وإنهم ليمثلون القطيع الإنسانى فى كل الأزمان والشعوب . لا فرق أن قامت البيزانطية بعربيتها أمام كيس النقود ، أو السعادة السياسية ،

أو اللقب أو أمام قبعة جيسلر (١) . عندما نزل شارل الثاني إلى البر في إنجلترا لم يعد بها لجأة أى جمهورى . خادِم الدولة يعنى فضيلة أرسقراطية لا يحرزها إلا القليل ، فإن كان ، اشتراكيا ، فإنما هى اشتراكىة متشاححة معصورة على أناس ذوى عنصر ، أى على الصفوة فى الحياة . البروسىة شىء كله سمو ، وعظمة ، شىء مناجز لكل لون من الأكرىة وسيادة الدهماء ، ولا سىما سيادة الصفات الجموعية . لقد كان كذلك مولتكه المرنى العظم للضابط الألمانى ، والمثل الأعظم للبروسىة الصافىة فى القرن التاسع عشر . ذلك الذى جمع الكونت شاليفن شعار شخصىة فى : كلام قليل ، إنتاج كثير ، مخبر أجل وأسمى من مظهر .

ومن هذه الفكرة للكيان البروسى سوف ينطلق التغلب النهائى على الثورة العالمية . ليس ثمة احتمال آخر . وقد سبق ان قلت عام ١٩١٩ : « ليس بروسيا كل من ولد فى بروسيا ، فهذا الطراز يتأق وجوده فى كل مكان فى العالم الأبيض . وهو موجود فى الواقع وإن فى قلة . إنه موجود فى كل مكان كأساس للصورة العابرة للحركات القومية - هذه الصورة التى ليست شىئا نهائيا - والمسألة هى : إلى اى مدى ينجح فى فصل هذا الطراز عن العناصر القومية الليبرالية الاشتراكىة التى تسرع فى شيخوختها ، تلك العناصر الشعبىة الديمقراطية حزبيا التى تسيطر عليه مؤقتا . إن الشعور القومى الصامت للإنجليز عام ١٩٠٠ ، والشوفينىة السطحية المطنطنة للفرنسيين تلك التى تجلت صاخبة فى قضية دريفوس - كانا من هذا الطراز : فى الأول تتمثل عبادة

(١) كان يرفع قبعته على جذع شجرة ، ليرهب بها السويسريين ، وكان يرغمهم على تحيتها . وقصة «تل» تدور حول إصراره على عدم تحيتها .

الأسطول ، وفي الشوفينية تتضح عبادة الجيش . وليس في أمريكا من ذلك شيء . إن الأمريكية الخالصة أى مائة فى المائة محض عبارة ترددها أمريكا إذا ما لزم أن تبقى كأمة بعد الكارثة المقبلة بين الشيوعية الكامنة والمالية الكبرى التى أدركت نهاية تقوضها . إن الفكرة البروسية تتجه ضد الليبرالية المالية كما تتجه ضد الاشتراكية العالمية . إنها تسمى الظن بكل ما هو جموع وأكثرية ، بكل ما هو يسار ، وتتجه فوق كل شيء ضد إضعاف الدولة وإساءة استخدام مصالحها الاقتصادية بطريقة مُسِيئة محقرة . إنها محافظة ، يمينية ، وتنشأ من القوى العريقة فى القدم للحياة طالما كانت لا تزال باقية فى الأمم النوردية : من غريزة القوة ، والملكية . الملكية كقوة . والميراث والخصب التناسلى والأسرة - فهما متلازمان - وتباين المرتبة والتنوع العضوى والاجتماعى . تلك القوى التى كانت الراسيونالية من ١٧٥٠ - ١٩٥٠ - ولا تزال - خصمها اللدود . إن وطنية الجيل الحاضر مصاحبة للنزعة الملكية التى تختفى فيها مرحلة انتقال : إنها التهديد للقيصرية المقبلة مهما يظهر أو أنها بعيدا . فيها يظهر التقزز بكل ألوان الحزبية الليبرالية والاشتراكية . بكل لون من الشعبية التى تتسامح فى موضوعها دون انقطاع ، وبكل ما يظهر كجموع ترغب فى إسماع صوتها . إن هذه الخصيصة مهما يكن عمق اختفائها تحت النزعات الأكثر ملاءمة للعصر - إن لها المستقبل وزعماء المستقبل . إن كل الزعماء الذين يؤمن التاريخ بعظمتهم يتجهون يمينا مهما يكن مبلغ انخفاض شأنهم . وفى ذلك ما يدل على السيد والحاكم الأصليين . وإنه لينطبق على كروموويل وميرابو انطباقه على نابليون . كلما فضج الزمن اتسعت آفاق المستقبل . لقد قضت على سيبو الكبير الخصومة بين تقاليد نشأته التى

حرمت عليه الدكتاتورية غير القانونية ، وبين المركز التاريخي الذي شغله على غير إرادة منه يانقاده روما من خطر قرطاجة ، قضت عليه فلقى حتفه غريباً . وقد بدأت الحركة الثورية منذ ذلك الوقت فحسب تقوض بالتقاليد الصور الشائعة حتى أن سيبو الصغير لم يقف من الجراكين إلا موقفاً ضعيفاً . ولكن سولا اتخذ من ماريوس موقفاً رائعاً في قوته . ثم أتى قيصر أخيراً ، وكان قد بدأ أمره ككاتيليني ، ولهذا لم يلق أية مقاومة حزبية ، لأن البومبيين لم يكونوا حزبا بل أتباعاً لفرد . إن الثورة العالمية - وإن تبدأ قوية - لا تنتهي بنصر أو هزيمة ، بل باستسلام من الجموع المرفوعة إلى الأمام . لن تقاوم مثلهم ، ولكنها ستصبح مملّة ، ولن تجذب في النهاية أحداً ليتحمس لها . كل من يتحدث عن نهاية البورجوازية يدل على بروولتاريته ، وعلى أنه لا يمت إلى المستقبل بأية صلة . إن المجتمع غير البورجوازي لا يبقى إلا بالإرهاب ، ولا يمتد إلا أكثر من بضعة سنين فحسب ، ثم يمل ويسأم ، ودعك من أن زعماء العمال في أثناء هذه الفترة يتحولون إلى بورجوازيين جدد . وليس ذلك مما يوافق مزاج طبائع الزعامة الصافية .

إن الاشتراكية بألوانها قد شاخت اليوم شيخوخة الصور الليبرالية التي نشأت عنها ، هي ككل شيء يتصل بحزب أو برنامج . إن قرن عبادة العامل من ١٨٤٠ إلى ١٩٤٠ - قد انتهى إلى غير رجعة . كل من يتغنى اليوم باسم العامل لا يفهم العصر . إن الصانع اليدوي يرتد ثانية إلى مجموع الأمة لا كطفلها بل كأدنى درجة في مجتمع المدينة . إن ألوان التضاد التي تنشأ عن كفاح الطبقات ترتد ثانية إلى ألوان التباين الثابتة من أعلى وأدنى ، ولقد رُضِيَ عنها . إنه استسلام عصر الأباطرة في روما ، الذي لم تعد فيه مشكلات اقتصادية من

هذا النوع . ولكن ماذا يتبقى في العصور الأخيرة للفوضى العالمية الاشتراكية ليصيبه التدمير والتقصيب ؟ إن ما يتبقى يبلغ من القلة حدا لا يسمح في كثير من الشعوب البيضاء بأن يجد فيه قيصر ما « مادة يستطيع أن يصوغ منها البناء الذي يريد خلقه » : جيشه - وستجل الجيوش في المستقبل محل الأحزاب - ودولته .

هل يوجد اليوم فيما يدعى في غير وضوح كاف « بالشبيبة » « جيل الجبهة » في كل الأقطار البيضاء التي شاركت في الحرب - هل يوجد أساس راسخ يستطيع حمل أمثال هؤلاء الأشخاص والاضطلاع بالثقل من المهام ؟ إن الارتجاج العميق الذي أحدثته الحرب العظمى ، والذي انتزع العالم أجمع من أحضان أو هام الأمن والتقدم كعنى للتاريخ - لم يبلغ قط في أى مكان الجلاء الذي بلغه في الفوضى الروحية التي أعقبته . إن فقدان الشعور بهذه الفوضى ، والاعتقاد بأننا نحمل في أحشائنا نظاما جديدا - يدلان على وجودها فعلا في وضوح لا يرتفع إليه أى دليل آخر . إن الرجال الذي ولدوا حول ١٨٩٠ لم يُرزقوا نظرة الزعيم العظيم الحقيقي . لقد اختفت في ضباب الأدب التاريخي شخصيتا بسمارك ومولتكة ، إذا صرفنا النظر عن غيرهما في البلدان الأخرى - كان يصح أن يكونا مقياسا للعظمة الصافية ، ولكن ذلك لا يتأتى من دون الحاضر الحى . لم تظهر الحرب ملكا عظيما واحدا ، ولا سياسيا رائعا واحدا ، ولا قائدا واحدا يحكم الخطط الحربية في موقف الحسم . ولن ينفى ذلك جميع التماثيل ، ولا ما أطلق على الشوارع من أعلام . ولقد حدث من جراء ذلك عوز في الشعور بالسلطة أصاب الملايين من الجانبين ، أولئك الذين غادروا الخنادق إلى منازلهم . عوز تجلى في النقد الذي لم يقف عند حد من جانب الشباب ،

لكل ما هو قائم : للرجال والأشياء . والذي لم يوجهه ولو مرة واحدة إلى ذواتهم . لقد استهزئ بالأمس دون أن تستشف قوته الماثرة . تجلى في هذا وبان فوق كل شيء في الطريقة التي تصاح بها الناس في كل مكان مطالبين بدكتاتوريات تجرى مع ميولهم الخاصة دون أن يعرفوا أو يقرؤا دكتاتورا واحدا بالطريقة التي بها ينتخبون اليوم الزعيم ويعبدونه ليقفوا به من غد جانبا - بريمو دي ريفيرا ، دانتزيو ، لودندروف - والتي بها فاقشوا الزعامة كمشكلة بدلا من أن يكونوا مستعدين للفلسيم بها كأمر واقع حين يجب وجودها . لقد أصبحت للحذقة السياسية الكلمة العليا . فأخذ كل إنسان يكتب شارحا لدكتاتوره المقبل ما يجب أن يريده ويتحراه ، كل إنسان عاجز عن تنظيم نفسه . ولهذا فهو ينشد النظام من الآخرين ، لقد نسي الإنسان من السياسي الحق الذي يعرف كيف يدير دفعة الأمور ، فانحط لهذا إلى هستيريا البراج والمثل العليا ، مأخوذا بأحلام جدباء ، وانغمس خطيبا ومتكلما فيما يجب إعادة تشكيله من دون قيد ولا شرط ، غير ملق بالا إلى تبين إمكانه أولا ، فلقد سُلّم مقدما بيداه ذلك الإمكان . إن الافتقار إلى احترام التاريخ لم يكن أعظم في عصر من العصور منه في هذه السنين . إن للتاريخ منطقته الخاص الذي تتحطم أمامه كل البراج . تلك حقيقة لا يعرفها الناس ولا يريدون أن يسلّموا بها . ولكن بسمارك أصاب هدفه لأنه فهم سير تاريخ قرنه واندمج فيه ، وكان ذلك منه سياسة عظمى باعتبارها فن الممكن .

وقد أنبعث من هؤلاء الشباب في جميع البلدان البيضاء الصراخ الثوري الخاص ضد الانفرادية في ألمانيا ، في إنجلترا ، في إسبانيا ، في كل مكان . أولئك الشباب الذين رغبوا في أن ينهوا من أدنى على هيئة البلشفية ثورة عالمية مداها قرنان

لأنهم لم يفهموها ، ولقد كان فيهم أنفسهم كثير من هذه البلشفية . لقد كانوا
انفراديين ضئالا بل غاية في الضآلة ، لاموهبة ، ولا عمق . ومن أجل ذلك
عرّاهم مس^ن من الحاجة التشنجية لأن يكونوا على صواب ، وأبغضوا تفوق
الأعظمين الذين لم تكن غريبة عنهم على الأقل نفحة من الشكاكية تجاه أنفسهم .
كل الثوريين فاقدوا الفكاكة ، وهذا سبب سقوطهم جميعا . إن التعصب ليس
إلا العناد الضئيل في الرأي ، والعوز في الفكاكة ، وذلك تعريفه . ولم يدخل
هؤلاء الشبان أبدا في وعيهم أن الزعامة والسلطة والاحترام في واد ،
والاشتراكية في واد آخر . إن الخصومة للانفرادية هي البدعة النظرية بين
الفكرين في الوقت الراهن ، برغم إرادة جميع الأقطار البيضاء . كما كانت
بالأمس - انفرادية لم تفرق عنها كثيرا . إن هذا اللون من الفكر مهما
تكن ضآلته هو وحده كل ما يستطيعه هؤلاء الفكريون ويملكونه ، إنه الحياة
الأدبية للمدن الكبيرة ، وليس فيه شيء الجدة ، فلقد أعيت كثرة الكلام
فيه اليعاقبة . ليس العوز في الذكاء تغلبا على الراسيونالية .

مم تتكون اشتراكية هؤلاء الأبطال الذين ينازلون حرية الشخصية ؟ إنها
التجمعية الآسيوية غير الشخصية للشرق ، روح السهل العظيم ، متحدة مع
النفس الغربي لعام ١٧٩٢ . من يشور هناك في الواقع ؟ إنهم فاقدوا
القدر ، الذين كل قوتهم في عدهم ، فيهم يكمن كثير من الصقلي
السفل ، وفضلات الأجناس السابقة للتاريخ وفكرها البدائي ،
هذا إلى الحسد للروح الروسية التي تحررها إرادتها التي لم يكتمل
تطورها من آلام الضعة لذوى العقول الضئيلة حينما يريدون شيئا
ولا يعرفون كونه ، ويلزمون برغبة شيء فلا يحسرون عليه . من لم يرتض في

شجاعة دور المطرقة فسوف يفتح بنور السندان . وإن هذا الدور لا يخلو من ملطف : إن النزوع إلى التحرير من الإرادة الذاتية ، الانغماس في الإكثارية الخاملة الراسخية ، سعادة روح الخدم بعدها عن حيازة هموم السيد . إن كل أولئك يتنكر في أزياء من عبارات ضخمة ، إنها رومانتيكية التافهين ، تأليه شعور القطيع ، الوسيلة الأخيرة لتحويل الخوف الذاتي من التبعات إلى مثل أعلى . إن هذه الكراهية للانفرادية ، الكراهية الصادرة عن الجبن والحجل هي الصورة المزلية لعظام الباطنيين في القرنين الرابع والخامس عشر في تخليصهم عن صميم الذاتية . لقد كانت النفوس التي بليت وقتت عزلة ألمانا ، الجرمانية الصافية الهائلة في العالم نفوسا قوية . بليت هذه العزلة فأحست مرارة أعماق آلامها اللبنة المتحرقة للغناء فيما أسمته الله ، وأو في الكل ، أو في أي شيء آخر لم يكن غير أنفسهم من جديد ، لقد كان مضيقها القدرى إلى ، الأنا ، القوية التي لا تلتين . وكل محاولة لتخطي حدودها لم تقدر إلا أنها ليس لها حدود . واليوم يعرف الناس على بساطة أكثر : الإنسان يصير اشتراكيا ، ويناصب بالكلام : أنا ، الآخرين

إن ، الأنا ، الذاتية لا تثير لهم متبعية ما ، إن تقصيب الأذهان قديمتهم : مجتمع الإنسان في جموع ، يريد الإنسان في جموع ، يفكر في جموع . ومن لا يفكر مع غيرم يريان ويشعر بهما كخصمين . لقد حلت الجوع محل الألوهية . وذلك ما انحطت إليه أنا ، الخاملة الغيبة المريضة بكل الوأن الصكبت : ذلك أيضا تخليص ، إنه باطني تقريبا . ولقد عرف الناس ذلك عام ١٧٩٢ . إنها حاجة الدهماء للبحري وماوالعمل معا . ولكن الطراز البروسى زهد بمحض الإرادة الذاتية ، إخضاع أنا ، القوية

لو اوجب عظيم ، ومهمة غوامها عمل من أعمال ضبط النفس ، فمن هذا نظر از
 أسمى انفرادية يتأق للحاضر أن يأتي بها .
 .ة ليه اوله أن يلبا
 له . إن العنصر الكلي الجرماني أقبل يرد عن ظهر له آية العالم لإرادة له ولكن هذه
 لماه أريد به - أريد - التي تكتظ بهل الراج ، الفيلوسوفية إلى المدعاة ، والتي نظري
 آخر معنى اليكياها ، وتسيطر على كل تعمير الحضارة الفاضلية هذه الفكر والمقل
 والتربية والسلوك - ليكن ألد أريد به هذه قطع أيقظت الشعوب بالحرارة للقيامه
 . للأناء في الفراغ اللائقي ، والإرادة والعزلة شورة واحد في صيغتهما ، وإلى
 ذلك يعود صمت جوتكم ، وي تعود الحاجة في طبيعة جسمانية إلى أكثر الحوامه
 وأتوية - إلى اعتبارات الإرادة طبع أم لم علم تطوره لتفسيلا ، وهي حاجة ، لتغلغل
 في كل مفارقاته ، فإنه التوقان إلى الحد أبدى بين الفراغ والكوار ، ألم نفسي مرهفة
 من متاجاة كيانها ، يستطيع الإنسان أن يدركه من عزله ، فلا يشقى بهل ، ولكنه
 لا يستطيع أن يهرب منها . إن الله جسم كل الدين ، المحققات والآلية - كلواثر -
 يشتهي العفور والخلاص من المصير ، من يد بخاريتة ، ولكن بعد بالقوة ، ولكن
 إلى رجل السيامي في الشمال مطور منها مقاومة عشيده هائلة ضد الواقع ، نوال قد جاء في
 إيجدي الأساطير (الساجا) الإيسلندية : إنك تأتي بسيفك لأكثر مما تأتي بالنور () ،
 فإن كان ثمة في العالم انفرادية فهي هذا التحدي من الفرد للعلم وأجمع ، فالعلم
 بالإرادة الذاتية التي لا تلبس ، الفتحاح بحوة اسم الأملور للنهائية ، وللغرام بالمقدر
 حتى في لحظة الهلاك به البرومانية تغلق الانحناء والاختيار في شأن قبضة للتضحية
 في صبيوتا ، من لاله أنا ، لديه ليضحي بها فليس له أن يتخلى عن عقله وفاء
 الأتباع : إنه لا يجري إلا وراء من حمله التبعة ، وإذا كان ثمة ما يدعوا إلى

(١) إله إسكندنافي جرمانى

العجب فليس غير حقارة المثل الأعلى الاشتراكي الذي يراد به تخليص العالم .
ذلك ليس تحريرا من قسوى الماضى . انه استمرار فى أردإ ميوله ، انه
الجن أمام الحياة .

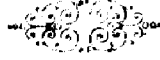
ان الوفاء المطيع - الوفاء البروسى الصميم - هو ذلك الذى تشتد اليه حاجة
العالم فى هذا العصر لما يعانى من الكوارث العظمى . ان المرء لا يركن الا الى
ما يبدى مقاومة . هذا يحك الزعيم الحق . كل من ينشأ من الجموع يجب أن
يكون على بينة من أن الجموع ، الاكثريات ، الأحزاب - ليست بأتباع .
ان الفوائد هى كل ما يريدونه ، انهم يتخلون عن يتقدمهم فى السير حين
يطلب اليهم تضحية . كل من يفكر أو يشعر كفرد بين جموع - فلن يترك
وراءه فى صفحة التاريخ شيئا آخر غير شهرة الديماغوجى .

هنا تفرق الطرق يسارا ويمينا : الديماغوجى يعيش بين الجموع دائما
كواحد بين أمثاله . أما من ولد للسيطرة فإنه يستطيع استخدام هذه الجموع
على حين يختلج فى نفسه شعور الازدراء لها . انه لا يخوض أشد معاركه
ضد العدو وانما يخوضها ضد أصدقائه الفنانين فى الإخلاص له .

لذلك كانت الجيوش لا الأحزاب - الصورة المقبلة للسلطة ، أعنى الجيوش
من وفاء ايثارى كالذى فقدته نابليون بعد معركة . فاجرام ، : لقد كان جنوده
القدماء من يوثق بهم . اما كبار الضباط فلا . وان قيمة الجيش لا تقاس الا
بهؤلاء . لقد درجوا على الا يروا فيه القائد ، بل الدائم العطاء . . وحين
ثقلت كفة التضحيات وشالت كفة المنافع انتهى وجود الجيش العظيم .

لقد آن الوقت لكى يتدبر العالم الأبيض ولأسيما ألمانيا هذه الأمور الواقعة ،
تخلف الحروب العالمية والثورة العالمية البروليتارية التى لما تنتهى تظهر اعظم

الأخطار ، تظهر الثورة الملونة . تلك الثورة التي سوف يحتاج من أجل لقائها إلى كل ما في الأمم البيضاء من « عنصر » . إن ألمانيا من بين سائر البلدان ليست بجزيرة كما يتخيل الساسة المثاليون الذين يميلون إلى تطبيق برامجهم عليها باعتبارها موضوعا وهدفا . إنها ليست إلا نقطة صغيرة في عالم عظيم فائر . ولكنها نقطة في موضع فاصل منه ، ما في ذلك شك . فيها وحدها تتمثل البروسية كحقيقة واقعة ، وبهذا الكنز من الكيان المثالي تستطيع أن تكون المربية للعالم الأبيض ، وقد تكون المنقذة له أيضا !



الثورة العالمية الملونة

- ١٩ -

لا يهدد المدينة الغربية في هذا القرن ثورة واحدة بل ثورتان عالميتان واسعتا المدى . وكلتا الثورتين لم تعرفا حق المعرفة في مداهما وعمقها وفعلها . إحداهما آتية من أدنى والأخرى من الخارج : حرب الطبقات ، وحرب الأجناس . الأولى أصبحت معظمها خلفنا ، ولو أن ضرباتها الحاسمة التي قد تنزل بالمنطقة الأنجلو أمريكانية - يحتمل أن يكون وقوعها موشكا . والأخرى لم تبدأ بصفة حاسمة إلا في الحرب العالمية الأولى ، وهي تتخذ في سرعة كبيرة نزعة وصورة ثابتتين . وفي عشرات السنين المقبلة سوف تقاتل الاثنتان جنباً إلى جنب ، وليس بمستبعد أن تكونا في هذا القتال حليفتين . ويومئذ سوف تكون أشد أزمة يجب على الشعوب البيضاء أن تجتازها جماعة - متحدة أو غير متحدة - إذا أرادت أن تكفل لها مستقبلاً .

ولقد قامت الثورة من الخارج ، في وجه كل من الحضارات الماضية أيضاً . وما كان يعيشها دائماً إلا البغض العنيد الذي أثاره التفوق المنيع لجماعة من أهم الحضارة ، المعتمدة على صورها ووسائلها السياسية والحربية والاقتصادية والفكرية التي بلغت أوج نضجها - أثاره في نفوس من يحيط بها من الشعوب الدنيا ، الفاقدة الأمل ، من المتوحشين ، أو البرابرة ، المستغلين بغير حق . ولم تنج أية حضارة عالية من هذا الطراز الاستعماري . ولم يكن

هذا البغض لمنع قيام ازدرام خفي لهذه الصورة الأجنبية للحياة التي عرفتها الشعوب الدنيا شيئاً فشيئاً ، واخترقتها ساخرة واقتحمتها بأنظارها . ثم أقدمت أخيراً على تقديرها في ضوء حدود فاعليتها . فأدركت أن في استطاعتها تقليد الكثير من أعمالها ، وأن غير يتأتى لها القضاء على أذاه ، أو ليست له تلك القوة التي نسبتها هي إليه أول الأمر مأخوذة بما سيطر عليها من رعب ودهش . لقد شهدت الحروب والثورات داخل هذه الأمم السائدة ودُفعت بحكم الحوادث إلى أسرار التسليح والاقتصاد والسياسة . فتولاها الشك أخيراً في مدى المقدرة الحقيقية للأجانب . وما احست التراخي في الحكم حتى اخذت تفكر في الهجوم وتقدر ما يمكن ان يتبها لها من نصر . ذلك ما حدث في الصين في القرن الثالث قبل الميلاد حينما دُفع بالشعوب المتبربرة القاطنة شمالي وغربي الهوانج هو ، وجنوبي اليانج تسي كيانج في المعارك الفاصلة بين الدول الصينية الكبرى . وقد تجلى ذلك في العالم العربي في عصر العباسيين حينما ظهرت جموع الأتراك المغول كجنود مأجورة ثم كسادة . وكذلك كانت الحال قبل كل شيء في تاريخ الدولة القديمة ، إذ نجد به الحوادث المطابقة في دقة لتلك التي دخلنا في غمارها في غير رجعة .

وقد بدأت حملات البرابرة على العالم الآتيكي بالحركات الكلتية منذ عام ٣٠٠ ق.م. ولم تنقطع بعدها على إيطاليا . فقد ايدت القبائل الغالية في معركة «سنتنوم» الحاسمة الأترسكيين والسامنيين ضد روما عام ٢٩٥ ق.م. وحينما استعان بها هانيبال بنجاح . وفي عام ٢٨٠ ق.م. فتح كلتيون آخرون مكدونية وشماليون حين لم يبق في الوجود أية دولة صحيحة بسبب الحروب الداخلية . ولم يصدوا إلا امام ديلني ، وقد اسسوا في تراقية وآسيا الصغرى

إمبراطوريات برابرة بسكان : بعضهم هيليني وبعضهم مُسَهلين . ثم بدأ بعد ذلك في الشرق وفي إمبراطورية الإسكندر الأكبر المنهارة - بدأ رد الفعل البربري في ثورات لاحصر لها على الحضارة الهلينية فاضطرت إلى التراجع خطوة خطوة . حتى إن ميثريدات كان يأمل تدمير الدولة الرومانية الغارقة في الفوضى التامة الناشئة عن حرب الطبقات التي تفشتها في ذلك الأوان - كان يأمل ذلك حين تحالف مع « الهمج » الروس الجنوبيين ، الشيشيين ، الباستارنيين معتمدا على التوغل المطرد للبارثيين داخل سوريا من شرق إيران . ولم يصد ميثريدات إلا في بلاد اليونان ، بعد أن انضمت إليه أثينا ومدن أخرى وبعض قبائل كلتية كانت تقيم في مقدونية في ذلك الوقت . لقد كانت الثورة السافرة تسود الجيوش الرومانية ، وكان كل جزء من هذه الإمبراطورية يحارب الجزء الآخر ، والزعماء يتصاولون ويقتل بعضهم بعضا حتى أمام العدو . وفي ذلك الوقت لم يعد الجيش الروماني جيشا قوميا واستحال إلى أتباع شخصيين . إن الجنود الذين ساقهم هانيبال إلى روما عام ٢١٨ ق.م. لم يكونوا قرطاجيين حقيقيين بل أناسا من قبائل الأطلس وجنوبي أسبانيا المتوحشة . وبهم قامت روما بحروب مرعبة لم تنقطع منذ عام ١٤٦ ق.م. - وإن خسائرها في هذه الحروب لتعد المستولة عن قيام الفلاحين الرومانيين في اضطرابات الجراكين - وبهم حاول سيرتوريوس الروماني بعد ذلك تأسيس دولة محاصنة لروما . وتلا ذلك منذ عام ١١٣ ق.م. الحملة الكلتية الجرمانية للكهربيين والتيتون ، تلك التي لم يستطع القائد الثوري ماريوس أن يردها إلا بعد أن افنت جيوشا رومانية كاملة ، وإلا بعد أن أفرغ لها جهده إثر تمكنه من كسر يوجورتا الذي الب شمال افريقية على روما ، واحبط كل رد فعل

عدة سنين بما لجأ إليه من رشوة السياسة الرومانيين . وفي عام ٦٠ ق. م بدأت حركة ثنائية كلتوجومانية من (سوييفين وهلفيتيين) قام في وجهها قيصر بفتح بلاد الغال على حين هُزم كراسوس أمام البارثيين المنتصرين وسقط صربعا في حومة الوغى . وبذلك انقضى عهد المقاومة عن طريق الاتساع . وظلت خطة قيصر بإعادة إمبراطورية الإسكندر للقضاء على خطر البارثيين - ظلت من غير تنفيذ . ولقد اضطر تيبريوس إلى رد الحدود في جرمانيا إلى الوراء بعد أن أخفق في تعويض الجيوش التي أيدت في معركة فاروس ، وبعد أن شبت أول ثورة من كتائب الحدود في موت أغسطس . ومنذ حينئذ ساد نظام الدفاع ، وامتلا الجيش شيئا فشيئا بالبرابرة وأصبح قوة مستقلة وظهر في قيادته الجرمان والأليريون والإفريقيون والعرب ، وانحدر سكان الإمبراطورية إلى «فلاحينية» ، «لسلام دائم» . وحين بدأت الحملات العظيمة من الشمال والشرق لم يكتف السكان المدنيون بأن يعقدوا المعاهدات مع الدخلاء بل استسلموا طواعية لتبعيةهم : وهذه هي السلبية المتأخرة لمدينة متعبدة .

ومع ذلك قد أمكنت المحافظة لعدة قرون على هذا الوضع ، لأن الإمبراطورية الرومانية كانت رقعة متصلة يمكن الدفاع عن حدودها . وإن موقف إمبراطورية الشعوب البيضاء الراهنة التي تشمل سطح الأرض كلها ، وتضم الملونين - إن موقفها لأصعب من ذلك بكثير . لقد انتشرت في جميع الأصقاع البشرية البيضاء بنزعتها الشموس إلى الابتعاد القاصي ، في أمريكا الشمالية والجنوبية ، في جنوب أفريقية ، في استراليا ، وفي قواعد لا حصر لها بين هذه الأصقاع . إن الخطر الأصفر والأسمر والأسود والأحمر يمكن

داخل منطقة سلطان البيض ، ويتوغل في الاتفاقات والمخالفات الحريية
والثورية بين الدول البيضاء ، ويسهم فيها ، وينذر بأنه سينزع الجسم ليصبح
رهن يده في النهاية .

ما الذى يندرج فى مدلول « العالم الملون » وينضوى تحته ؟ إنه لا يشمل
أفريقية فحسب ، بل يجمع إليها الهنود الأمريكيين - بجانب الزوج والمختلطى
الجنس - فى أمريكا كلها ، والشعوب الإسلامية ، والصين ، والهند إلى جاوة ويجمع
فوق كل شيء آخر اليابان والروسيا ، تلك التى ارتدت ثانية دولة عظمى أسيوية
« منغولية » . عند ما قهر اليابانيون الروس انبثق أمل غمر كل آسيا : لقد
أرغمت دولة شابة أسيوية مستعينة بوسائل غريبة - أكبر دولة فى الغرب على
ن تحشوين يديها ، وبذلك بددت هالة المناعة التى كانت تحيط « بأوربة » ، ولقد كان
هذا النصر بمثابة بشير امعن فى الهند وتركيا بل فى منطقة الرأس والصحراء
الكبرى الإفريقية معلنا : لقد أصبح فى الإمكان ان يُقتص من الأمم
البيضاء لما جرعوا الملونين لسقرن من الوان الإيلام والإذلال . ومنذ ذلك
الوقت يفكر المكسر العميق للأسيويين فى وسائل ليست فى متناول الفكر
الغربي . وسائل لا يستطيعها لتفوقها .

والآن وقد نزع روسيا النقلاب الأبيض واسترجعت ثانية اسيويتها
بكامل روحها ، ويغض مستعر لأوربة بعد ان اصابته من الغرب عام ١٩١٦
الهزيمة الثانية الحاسمة على عين حليفها إنكلترا الراضية الساخرة . لقد بليت
فى ذلك نواحي ضعفها العميق ورتبت اساليب جديدة خبيثة للمحاربة ،
وادخلتها فى فكرة المقاومة المشتركة عند جميع الشعوب الملونة على سطح
الأرض . وهذا هو الأثر الحقيقى الثانى للحرب العظمى إلى جانب انتصار

الاشتراكية العالمية على المجتمع في الأمم البيضاء - تلك الحرب التي لم تقرب إلى الأذهان ولم تفصل في واحدة من المشكلات الخاصة بالسياسة العظمى . لقد كانت هذه الحرب هزيمة للأجناس البيضاء . كما كان صلح ١٩١٨ أول انتصار عظيم للعالم الملون : إنه لرمز أن يتمكن العالم الملون اليوم من المشاركة في مناقشة ما شجر بين الشعوب البيضاء من ألوان الخلاف - في جمعية الأمم في جنيف ، تلك التي ليست إلا الرمز الحقيق إلى أمور مخزية .

لم تكن المعاملة السيئة التي أصابت الألمان المغتربين في البلاد الأجنبية بيد الملونين ممثلين لأوامر الإنجليز والفرنسيين - لم تكن لإجراء يثير الدهشة في جدته . فلقد بدأ هذا الأسلوب بالثورة الليبرالية في القرن الثامن عشر : في عام ١٧٧٥ حين جند الإنجليز قبائل الهنود الحمر الذين بطشوا بالأمريكيين ومثلوا بهم حرقا ونزعا لشوأة الرأس . ولا يجب أن تنسى الطريقة التي بها حرك اليعاقبة زنوج هايتي في سبيل «حقوق الإنسان» . لقد انقلبت رأسا على عقب نظرة الملونين إلى الأوضاع النفسية على سطح الأرض بعد أن استعان بهم البيض على البيض فاقبضوا من كافة أنحاء المعمورة جموعا جموعا إلى الأرض الأوربية . ثم رجعوا إلى أوطانهم بعد أن تعلموا أسرار أحدث الوسائل الحربية وحدود فعلها ، وهم يطوون نفوسهم على اعتقاد راسخ بأنهم قهروا الدول البيضاء . لقد شعروا بقوتهم المشتركة وبضعف الآخرين . لقد أخذوا يزدرون البيض كما ازدري يوجورتا من قبل روما العظيمة . إن الألمان لم تخسر الحرب العالمية ، وإنما خسرها الغرب حين فقد احترام الملونين .

لقد كانت موسكو أول من أدرك مدى هذا الانتقال لمركز الثقل السياسي . أما غرب أوروبا فلم يدركه بعد . لقد نزلت الأمم السائدة البيضاء عن مرتبة

السيادة . إنها تساوم اليوم وقد كانت تأمر بالأمس ، وغدا ستُسلم بالهلق وتحمل عليه لتستطيع أن تساوم . لقد فقدت الشعور بيداهة قوتها ولكنها لا تلاحظ ذلك قط . لقد تخطت لأمريكا عن اختيار الساعة في « الثورة من الخارج » ، ولآسيا فوق شكل شيء ، تلك التي أصبحت حدودها اليوم على الفستولا والكازبات . لقد اضطرت ثانية لأول مرة بعد حصار الأتراك لفينا إلى التزام الدفاع ، وسوف تضطر إلى تعبئة قوى عظيمة روحية وحرية توضع في يد رجال أوفوا على الغاية في عظمتهم إذ أرادت أن تتعلب على الهجوم العاصفي الجبان الذي لن تنتظر وقوعه وقتا طويلا .

لقد شبت في روسيا منذ عام ١٩٢٧ كلتا الثورتين في وقت واحد : البيضاء والملونة . الأولى متطحية حضرية ، اشتراكية للعمال ، ذات إيمان غربي بالحزب والمهتج ، مصنوعة من الأدباء والبرولتاريين الأكاديميين والمحرضين النيهلستيين من طراز باكونين باتحاد مع حشالة المenden الكبيرة ، كلهم أرباب بلاغة وأدب في الصميم ، وقد أودت هذه الثورة بالمجتمع البطرسي ذي الأصل الغربي في أكله ، وأقامت على المسرح طقوس عبادة « العامل » الصاخبة ، لقد أصبحت صناعة الآلة الاجتية البغيضة إلى الروح الروسية فجأة آلهة ومعنى للحياة . ومن تحت ذلك وفي بطن وإصرار وصمت وامتلاء بالآمال بدأت الثورة الاخرى ، ثورة الموشيك (١) ، ثورة القرية ، البولشفية الاسيوية الحقيقية . وكان تعبيرها الاول نهم الفلاح الابدئ للأرض ، ذلك الذي دفع الجنود إلى ترك حبهة القتال لينالوا انصباءهم في العملية الكبيرة لتوزيع الارضين . ولقد أدركت الاشتراكية العالسة الحظر في سرعة بالغة

(١) الفلاح الروسي

فأخذت بعد الحلف المبدئي تستخدم البغض الذي تعهدته كل الأحزاب الحضرية بألوانها الليبرالية منها والاشتراكية ، وانطوت عليه للفلاح - تستخدمه في القيام بالحرب تشنها على هذا العنصر المحافظ ، الذي يثبت التاريخ بصفة ثابتة بقاءه بعد فناء جميع التشكيلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المدين . انتزعت هذه الاشتراكية من الفلاح ملكيته ، وأعادت إدخال نظام للرق الواقعي والسخرة ، وقد رفعهما منذ ١٨٦٢ إسكندر الثاني وأدت بإدارتها العدائية البروقراطية للزراعة - وكل اشتراكية تنتقل من المحيط النظري إلى التطبيق الفعلي تحتق في سرعة متناهية في بيروقراطية - أدت إلى إجذاب الأراضي وإلى تضاؤل الثروة البهيمية في كسر ضئيل بالنسبة لماضيها ، وإلى أن تصبح المجاعة من الطراز الآسيوي حالا دائمة لا يطيقها إلا جنس ضعيف العزيمة ، مطبوع على حياة العبودية .

ولكن البولشفية البيضاء تسرع هنا وثبا إلى الفناء ، ويحافظ على قناعاتها الماركسية من الخارج فحسب لإطلاق الثورة وتوجيهها في جنوب آسيا وأفريقية وأمريكا ضد الدول البيضاء . لقد حلت طبقة جديدة آسيوية من الحكام محل الطبقة التي كانت نصف غربية ، وعادت من جديد سكنى الجواسق (١) والقصور حول موسكو ، واتخاذ الخدم والحشم ، ولم تعد تخشى أن تظهر البذخ البربري كعادة المغول المكتظين بالغنيمة في القرن الرابع عشر . لقد أصبح هناك «غنى» في صورة جديدة مدونة في اصطلاحات برولتيارية !

وأيا ما كان الأمر فسوف يعود القوم إلى الملكية الزراعية والملكية الشخصية مما لا يجعل رق الأراضي مستحيلا . وذلك مستطاع لأن السلطة في يد الجيش لا الحزب المبدئي كما كانت . الجندي في روسيا هو الكائن الوحيد

الذى لايجوع ، إنه يعلم السبب ويعلم مداه الزمنى . إنها منيعة من الخارج بسبب الاتساع الجغرافى للدولة ، ولكنها نفسها تهاجم . لها الجنود المأجورون ، والحلفاء فى كل انحاء الأرض ممن يلتزمون بحيتها فى التنكر . أقوى سلاح لديها الدبلوماسية الجديدة الثورية الآسيوية الحقبة التى تعمل بدلا من أن تسام . تعمل من تحت ومن خلف : بالدعاية والقتل والثورة . وبذلك تتفوق تفوقا واضحا على الدبلوماسية العظيمة للبلدان البيضاء التى لم تفقد بعد تماما طرازها الأرستقراطى القديم على الرغم من المحامين والصحفيين الذين يلعبون بالسياسة ، ذلك الطراز الذى نشأ فى الأسكوريال . والذى كان بسمارك آخر سيد عظيم له .

إن روسيا سيدة آسيا ، روسيا هى آسيا . واليابان تتبع آسيا جغرافيا فحسب . فهى من حيث الجنس أقرب فى غير شك إلى الملايو الشرقيين وسكان بولنسيا وكثير من شعوب الهندود الحر فى غرب أمريكا . ولكنها على الماء فى مثل مركز روسيا على اليابسة : سيدة منطقة واسعة لم يعد فيها للدول الغربية نفوذ ما . إن سيادة إنجلترا فى إمبراطوريتها بل فى مستعمرات التاج الملونة لاتضارع فى قوتها سيادة اليابان فى تلك المنطقة . إن اليابان تمد نفوذها بعيدا فى الخارج ، إنها تملك نفوذا فى يبرو وقناة بناما . إن صلة الدم المفروضة بين اليابانيين والمكسيكيين يؤكد لها الجانبان فى الظروف المناسبة ويحتفيان بها . ولقد نشأت فى المكسيك أول عام ١٩١٤ فى الدوائر العليا الهندية الحمراء دخطة سان ديجو ، وبمقتضاها يهبط على تكساس وأريزونا جيش من الهندود الحر والزوج واليابانيين ، ويذبح السكان البيض ، وتستقل الولايات الزنجية وتنشأ مكسيك كبرى لدولة من الجنس الهندى الأمريكى النقى . ولو تم

تنفيذ هذه الخطة لبدأت الحرب العظمى بتوزيع مختلف كل الاختلاف ، وعلى أساس مشكلات أخرى ، ولقضى بذلك على مذهب مونرو الذى اتخذ صورة أمبريالية الدولار برأسها المصوب إلى أمريكا اللاتينية . إن روسيا واليابان اليوم هما الدولتان الفاعلتان الوحيدتان فى العالم ، لقد صارت بهما آسيا العنصر الحاسم فى حوادث العالم . والدول البيضاء تعمل فى ظل ضغطهما وهى لا تدرى . إن هذا الضغط قائم فى نشاط الثورة الملونة التى استخدمت حرب الطبقات كوسيلة . لقد تكلمنا عن الأسباب البعيدة للكارثة الاقتصادية . وبعد أن شقت الثورة من أدنى على هيئة اشتراكية العمال بوساطة الأجور السياسية طريقها - توغل الاقتصاد الملون متسلحا بالأجور المنخفضة تقوده روسيا واليابان ، وهو اليوم يوشك أن يتم الإبادة ، ولا عجب فى ذلك إذا علم أن اليابان تباع الدراجة فى جاوة . وتنضم إلى ذلك الدعاية السياسية الاجتماعية فى مدى هائل ، الدبلوماسية الآسيوية الحقيقية لهذه الأيام ، إنها تتوغل فى الهند والصين ، ولقد أدت إلى بناء جبهة عنصرية فى جاوة وسومطرة تقف تجاه الهولنديين ، إنها تتوحد من شرق آسيا إلى الجنس الهندى الأمريكى المتفوق فى هباته ، القاطن بين المكسيك وشيلي ، وتؤهل الزنجى للمرة الأولى لشعور مشترك يناصب الشعوب البيض ذوات السيادة .

وقد أعدت الثورة البيضاء هنا أيضا منذ عام ١٧٧٠ الميدان للثورة الملونة . وقد مؤن الأدب الإنجليزى لميل وسبنسر باتجاهاته الفكرية التى تعود إلى القرن الثامن عشر - مؤن المعاهد العليا فى الهند بنظرتها العالمية . ومنها يجد شبان الهند المصلحون أنفسهم السبيل بعد ذلك إلى ماركس : لقد وجد زعيم الثورة الصينى سون يات سن فى أمريكا . وعنه نشأ أدب ثورى خاص

غطى في راديكاليته ماركس وبرودين . إن الحركة الاستقلالية في أمريكا
 الأسبانية منسذ بوليفار ١٨١١ ، والثورة الأمريكية الشمالية على إنكلترا -
 لا يمكن تصورهما من دون الأدب الثوري الإنجليزى الفرنسى لعام ١٧٧٠ ،
 رومن نابليون . وقد كان ذلك العراك محصورا بين البيض : الارستقراطية
 السريولسية المالكة للأرض التى عاشت فى البلاد منذ أجيال ، والموظفين
 الأسبانين الذين حافظوا على بقاء مبدأ السيادة الاستعبادية ، كانت لبوليفار -
 الأبيض النقى كيراندوسان مارتين - خطة لتأسيس مملكة تدعمها أوليغاركية
 بيضاء صافية . وكذلك كان الدكتاتور روزاس الأرجنتينى - وهو شخصية
 قوية من الطراز البروسى - يمثل هذه الارستقراطية ضد اليعقوبية التى
 ظهرت فى سرعة شديدة ولستفاضت من المكسيك إلى أطراف الجنوب ،
 ووجدت فى نوادى الماسونية المناصرة للكنيسة عوناً وعضداً ، فطالبت
 بالمساواة العامة حتى للأحناس : وبذلك بدأت حركة الهندود الحرة الصافين
 ونصف الصافين ضد الدم الأبيض إطلاقاً ضد أسبانيا فحسب . وقد تقدمت
 فى غير هوادة وهى تقف اليوم أمام هدفها . وقد رأى هامبولت هذا الاعتزاز
 بالأصل الأيبيرى النقى ، ولا يزال التقليد بالرجوع إلى الأصل الغوى الغربى
 والبسكى - باقياً إلى اليوم فى الأسر العظيمة فى شيل . ولكن معظم هذه
 الارستقراطية قد هلك أو هاجر ثانية إلى أوربة فى القوضى التى سادت منذ
 منتصف القرن التاسع عشر . إن الكاودلس ، وهم ديماجوجيون حريون
 من السكان الملونين يسيطرون على السياسة ، وبينهم هندود حمر خاص
 ذوو واهب رائحة من أمثال جواردوبورفير يودياز . واليوم تبلغ الطبقة العليا
 البيضاء أو التى تعتبر نفسها بيضاء - مع استثناء الأرجنتين - ما بين ربع السكان

وعشرهم . وفي كثير من الدول والولايات يكاد يكون جميع الأطباء والمحامين والمعلمين ، والضباط أيضا من دون استثناء - هنودا حمرا ، وإنهم ليسعرون بارتباط مع البروليتارية المختلطة في المدن - الميخوبيلو - ويبغض للملكية البيضاء ، سواء أكانت في يد كريولين أم إنجليز ، أم أمريكيين من الشمال . في بيرو وبوليفيا وأوكوادور تقوم الأيثارا كاللغة الثانية في الإدارة والتعليم . وتقام بتأييد من موسكو الطقوس لعبادة شيوعية الإنكا المدعاة . إن المثل العنصري لسيادة الهنود الحمر يحتمل أن يتحقق وشيكا .

وفي أفريقية يُرى المبشرُ المسيحي ولا سيما المتودست الإنجليزى يُعد في براوة وبتعاليم المساواة بين جميع البشر أمام الله ، وخطيئة الثروة - يعد الثروة التي يبذر فيها الداعية البولشفيكي ويحصد . ثم يتلوه في نجاح أعظم جدا المبشرُ الإسلامي آتيا من الشمال والشرق ، وبالغا اليوم منطقة الزامبيزي (نياسالاند) خفيثا تكن بالأمس مدرسة مسيحية فسيقوم غدا كوخ لمسجد إن روح هذا الدين ذات الرجولية الحريية أقرب إلى ذهن الزنجي من تعاليم الشفقة التي تسمح تقديره واحترامه للرجل الأبيض . إن القسيس المسيحي يصير مربيا فوق كل شيء لأنه يمثل أمة سيده تتجه الدعاية الإسلامية إلى مقاومتها بحزم ماهر على أساس يتصل بالسياسة أكثر مما يتصل بالعقيدة . إن هذه الثورة الملونة الشاملة للأرض ترحف في نزعات مختلفة إلى الأمام : قومية ، اقتصادية ، اجتماعية . إنها تتجه علانية حينما ضد حكومات بيضاء لإمبراطوريات استعمارية كما في الهند ، أو ضد حكومات بيضاء في بلادها نفسها كإقليم الرأس ، وحينما ضد طبقة عليا بيضاء كما في شيلي ، وحينما ضد قوة الجنية أو الدولار أي السلطة الأجنبية إطلاقا ، وحينما ضد عالمها

المالى نفسه لأنه يعامل البيض كما فى الصين ، أو ضد أرسقراطيته أو عرشه الخاصين . وقد تنضم إلى ذلك عوامل دينية : الكراهية للمسيحية ، أولأى لون من الكهانة ، والأرثوذكسية إطلاقاً ، للعرف أو العادة أو النظرة العالمية أو للقانون الخلقى . وجوهر الأمر أننا نجد منذ ثورة التايننج (١) فى الصين والسيوى فى الهند ، والمكسيكيين على الإمبراطور مكسيمليان ، وفى كل مكان - نجد السبب نفسه : البغض للجنس الأبيض والإرادة الجازمة المنعقدة على إبادته ، وليس بما يهم أن تستطيع مدينة عريقة فى القدم كالهندية أو الصينية حفظ النظام من غير سيادة أجنبية . وإنما الذى يهم هو قدرتها على أن تلقى عن كاهلها النير الأبيض . أما من يكون السيد التالى من بين الدول الملونة وآلروسيا ام اليابان ام مغامر عظيم على رأس جيش ضخم - مهما يكن نسبه واصله - اما من يكون السيد فذلك ما يفصل فيه بعد او مالا يفصل فيه ابدا . لقد توالى على المدينة المصرية القديمة منذ عام ١٠٠٠ ق.م كثير جدا من السادة الليبيين ، والأشوريين ، والفرس ، والأغريق والرومان فلم تعد قادرة على ان تنهض بشورة ناجحة . اما ان يتحقق او يستطاع تحقيق غرض واحد من بين الأغراض الأخرى الكثيرة فإن ذلك امر ثانوى تماماً . إن المسألة العظيمة التاريخية هى : هل ينجح انهيار الدول البيضاء ؟ لقد تكونت حول ذلك ومن اجله وحدة قوية كل القوة فى القرار ، وحدة تدفع الى التفكير . فإذا يملك العالم من قوى المقاومة المادية والروحية حيال هذا الخطر ؟

(١) ثورة شبت فى الصين فى منتصف القرن الماضى ، وانتهت بفتح

الصين اقتصاديا للأوربيين .

إن ما يملكه العالم الأبيض من قوى المقاومة لهذا الخطر قليل جدا على ما يظهر لأول نظرة . فالواقع أن شعوبه قد أصبحت متعبة من الحضارة . لقد استهلك الجوهر الروحي في طيب الصورة العليا ، وفي الصراع نحو الكمال الداخلى . كثيرا ما بقى هناك توهج ، ولكن لم يكن ثمة إلا رماد غالبا . على أن ذلك لم يكن الحال فى كل مكان . كلما قل دفع الشعب فى زوبعة التاريخ الماضى فى حال قيادة كثر احتفاظه بالفوضى التى تستطيع أن تتحول إلى صورة . فإذا هبت عليها عاصفة الحواسم العظمى كعام ١٩١٤ - اندلع الشرر المحتقن فجأة وارتفعت منه ألسنة اللهب إلى السماء ، وفى الجنس الجرمانى على التخصيص ، وله أقوى إرادة فى الوجود - لاتزال إمكانيات عظمى راقدة . وإذا تكلمت هنا عن العنصر ، فليست أريد ما يعنيه اليوم خصوم السامية فى أوربة وأمريكا كبدعة داروينية أى مادية . إن نقاوة العنصر عبارة شاذة فى صورتها بالنظر إلى الأمر الواقع : فلقد اختلطت الأنواع والأجناس منذ آلاف السنين ، وكانت العشائر الحربية بالذات ، أى السليمة الجسم ، المليئة بالمستقبل - ترحب منذ الأزل بضم الأجنبي إليها إذا كان (من عنصر) بغض النظر عن نوع العنصر الذى ينتسب إليه . كل من يسرف فى الكلام عن العنصر لم يعد لديه شئ فيه . إن الحاجة لأشئ إلى العنصر القوى الذى تحتويه الأمة لا إلى العنصر النقي .

يتبين ذلك - قبل كل شئ - فى الخصوبة التناسلية الأولية البدئية فى الثروة النسلية التى تستطيع الحياة أن تستهلكها دون أن تستنفدها قط . إن الله -

كقول فردريك العظيم المشهور - مع أقوى الكتاب دائما . وإن ذلك ليتبين
هنا بالذات . إن ملايين القتلى في الحرب العالمية كانوا من حيث العنصر أفضل
مالدى الأمم البيضاء . ولكن العنصر يدل على وجوده بتمكنه من تعويض
ما يخسره بسرعة . قال لى مرة أحد الروسيين : « ما ضحينا به فى الثورة
تعوضه المرأة الروسية فى عشرة أعوام » . هذه هى الغريزة الحق ، وإن مثل
هذه العناصر لا يقاوم . إن نظرية مالتوس السخيفة التى تمتدح العقم وتعتده
تقدما ، تلك النظرية التى يوعظ بها اليوم فى كل الأقطار البيضاء - ليست لها
غير دلالة واحدة ، هى أن هؤلاء المفكرين لا عنصر فيهم . وعلينا أن
نُعدى عن الفكرة التى اتضحت بلاهتها ، تلك التى تقول : إن من المستطاع
القضاء على الأزمات الاقتصادية بإقلال السكان ، فالواقع ضد ذلك : إن
الكتاب القوية - وهى مُنْبِعث السياسة العظمى وعماد وجودها - تحمى
الحياة الاقتصادية أيضا وتمنحها القوة والثروة الداخلية .

إن المرأة « ذات العنصر » لا ترضى أن تكون « رفيقة » أو « حبيبة » بل إما
لا أم طفل واحد يتخذ العوبة أو مسلاة بل أم اطفال كثر . إن صوت
الغريزة للعناصر القوية ايدين ويتضح فى الاعتزاز بكثرة الأطفال ، وفى
الشعور بأن العقم هو اشد اللعنات التى يمكن أن تصيب المرأة ، وأن تصاب
بها العشيرة بالوساطة والتبعية . ومن هذه الغريزة تنشأ الغيرة الفطرية الأصلية
التي بها تنتزع امرأة من أخرى الرجل الذى تمتلكه كأب لأطفالها . إن الغيرة
الفكرية للمدن الكبرى التى لا تزيد الا قليلا على النزعة الشهوانية والتى تقدر
الشطرن الآخر كوسيلة للذة ، وإن محض التفكير فى عدد الأطفال المرغوب
أو المخوف - إن هذا وتلك يكشفان عن نزعة من العنصر للبقاء تنحدر آخذة

في الهبوط ، نزعة لا يتأتى للقلم والشان إيقاظها ثانية ، إن الزواج البدائي أو غيره من ألوان العرف الشعبي القديم ، وما يظفره من عادات متأصلة بعبيدة العمق لتعجيس الإنسال - ليس فيه من العاطفية شيء : فالرجل يريد أن يأتى بأولاد أقوياء يكفلون لاسمه وأعماله الخلود والنباهة بعد مماته ، على النحو الذى يحسه هو وقد انتهى إليه بالوراثة اسم آبائه وأجداده وأفعالهم . هذه هى الفكرة النوردية للخلود . ولم تعرف هذه الشعوب عن الخلود فكرة أخرى ، ولم تردعها . وعلى هذه الفكرة تستند اللهفة إلى الشهرة ليستبقى الميت الخالد الحياة بين الخلف فى عمل ما ، اللهفة إلى رؤية الاسم مختلفا على التنايل ، أو - على الأقل - إلى المحافظة على ذكرى مشرفة . لذلك لا يمكن فصل فكرة الميراث عن الزواج الجرماني . إذا ما سقطت فكرة الملكية ذات معنى الأسرة فى لاشيء . من يهاجم أحدهما قائما يهاجم الأخرى . إن فكرة الميراث التى تلتصق بكيان كل ضيعة وكل مصنع ، وكل متجر قديم ، وبالميراث الوراثة كلها ، التى وجدتت أسمى تعبير رمزى عنها فى الملكية الوراثة - تكفل القوة لغريزة العنصر . إن الاشتراكية لا تقتصر على مهاجمتها ، فمحض وجودها كان - ولم يزل - علامة على انحطاطها .

ولكن سقوط الأسرة البيضاء وهو التعبير المحثوم للكيان فى المدينة الكبيرة - ينتشر اليوم بقوة ، ويستنفذ العنصر ، فى الأمم . لقد ضاع معنى الرجل والمرأة وإرادة الاستمرار . لا يعيش المرء لمستقبل العشائر بل لنفسه فحسب . الأمة كمجتمع ، وهى فى الأصل نسيج عضوى متصاقر من الأسر ، ينذر عن طريق المدن بالانحلال إلى مجموعة ذرات فردية ، يتزع كل منها من حياته الخاصة ، وخياة غيره أصكبر ما يستطيع من تمتع ؛ خبز ولهو - إن

تحرر المرأة لعصر إيسن لايعنى تحررها من الرجل وإنما من العنفل ، من حمله وتبعاته . كما يرمى تحرر الرجل المعاصر إلى تحرره من الواجبات نحو الأسرة ، نحو الأمة والدولة - إن الأدب الميبرالى الاشتراكى المعالج للمشكلات - يدور كله حوله هذا الانتحار للعنصر الأبيض ، وكذلك كانت الحال نفسها فى جميع المراتب الأخرى .

لقد أصبحت العواقب ماثلة لأعيننا . لقد كانت الأجناس الملونة فى العالم الى يومنا هذا ضعف عدد البيضاء . فى عام ١٩٣٠ كانت الزيادة السنوية للمواليد على الوفيات فى روسيا أربعة ملايين . وفى اليابان مليونين ، وفى عشر السنوات من ١٩٢١ الى ١٩٣١ زاد سكان الهند أربعة وثلاثين مليوناً . وفى أفريقية يتكاثر الزوج بخصبهم الهائل فى الإنسال بدرجة أكثر سخفا منذ اقتحمها الطب الأوروبى وقضى على الانتخاب الطبيعى القوى عن طريق الأمراض . هذا هنالك أما فى ألمانيا وإيطاليا فقد كانت الزيادة أقل من نصف مليون ، وكانت أقل من نصف ذلك المقدار فى إنجلترا بلد التأييد العلنى لفكرة تحديد النسل . وفى فرنسا وبين النزلاء الأمريكين القدماء فى الولايات المتحدة لم تكن شيئاً . وهذا الشطر الجرمانى الاصل من الأمريكين فى طريقه المسرع الى الزوال منذ عشرات السنين . ان التكاثر فى السكان هناك قائم كله فى جانب الزوج والاوربيين الشرقيين والجنوبيين الذين أخذوا فى الزواج الى البلاد منذ عام ١٩٠٠ . ولقد فقدت عدة أقاليم فى فرنسا فى الخمسين سنة الاخيرة أكثر من ثلث عدد سكانها ، وفى بعضها كانت المواليد نصف الوفيات ، وكادت بعض المدن وكثير من القرى تقفر من السكان . ويهاجر آتياً من الجنوب القطلونيون والإيطاليون كمزارعين ، والبولنديون والزوج حيثما كانوا

فينهضون بغير عمل واحد ، وقد أمكنهم أن يبلغوا الطبقة الوسطى ، ويدركوا مستواها ويصبحوا من أهلها . ففي فرنسا ، اليوم قس و ضباط وقضاة من السود ، وإلى هؤلاء النازحين وحدهم - ويبلغ عددهم أكثر من عشر السكان - يعود الفضل في المحافظة على مستوى عدد الفرنسيين على وجه التقريب لخصبهم الإنساني وحده . إن الفرنسي الصافي لن يكون سيد فرنسا بعد قليل من الزمن . إن الزيادة الظاهرية لمجموع السكان البيض في جميع الأرض على قلتها بالنسبة لزيادة الملونين تقوم على وهم عابر : إن عدد الأطفال آخذ في النقصان أما الذي يزيد وحده فعدد الكبار ، لا لأنهم كثيرون ولكن لأن حياتهم تطول .

ولكن الجنس القوي لا يتطلب عددا لا ينفد من المواليد فحسب ، بل يتطلب كذلك انتخابا قاسيا على يد مقاومات الحياة : الشقاء ، والمرض ، والحرب . إن طب القرن التاسع عشر ، وهو محصول أصيل للراسيونالية - يعتبر إذا ما نظرنا إليه من هذه الناحية مظهرا من مظاهر الشيخوخة . إنه يطيل كل حياة بمفردها سواء أكانت حقيقة بالحياة أم لم تكن . إنه يطيل نفس الموت . إنه يعوض عدد الأطفال بعدد العجائز . إنه يرحب بموقف الحزن والهم والنفسى حين يقيس قيمة الحياة بمقدار عدد أيامها لا بجوهرها . إنه يعوق الانتخاب الطبيعي ، ويزيد بذلك سقوط العنصر : لقد ارتفع عدد حالات الأمراض العقلية الميثوس من شفاها في إنكلترا وبلاد الغال في العشرين عاما الأخيرة من ٤٠٦ إلى ٨٠٦ في الألف . وفي ألمانيا يبلغ عدد ضعاف العقول نصف مليون تقريبا . وفي الولايات المتحدة أكثر جدا من مليون . وقد جاء بتقرير للرئيس هوفر . إن بين النشء في أمريكا

١٣٦٠٠٠ مصاب بعجز عن الكلام والسمع ، ومليوناً من المرضى بالقلب
و ٨٧٥٠٠٠ مصيب تنذيرهم أو فيهم ميل إلى الإجرام ، ٤٥٠٠٠٠ هم ضعف
عقلي ، ٣٠٠٠٠٠ عاجز ، ٦٠٠٠٠٠ أعمى . وإلى هؤلاء يضاف عدد هائل
من الشواذ نفسياً وبدناً من كل لون ، ومن المهتمزين والمرضى العقليين ،
ومرضى الأعصاب الذين يعجزون عن إنسلك أو حمل لأطفال أصحاء . إن
عديدهم لا يستطاع حصره ، ولكن استطاع استخراجهم من عدد الأطباء الذين
يعيشون عليهم ، ومن أخصائس المكتب التي كتبت عنهم . من هذا النسل
تنمو الين ولتبارية الثورية بحقد الخففين وبولشفية المقاصير (١) للفئتين
والأدباء الذين ينعمون ويسرون بفتنة مثل هذه الأحوال النفسية ويعطون لها .
إنه لأمر واقع معروف : أن المشهورين يندر أن يكونوا أكبر الإخوة ،
ويكادون يُفقدون بين من أوجدتهم آبائهم ، فالرواج الفقير في الأطفال
لا يصيب الكم الحبيب بل يصيب فوق كل شيء نوع الجنس . وإن حاجة الأمة
إلى الجنس السليم لتناظم في قوتها وشدتها حاجتها إلى وجود الصفوة من المتفوقين
الذين يقودونها : ان صفوة كالتي بنتها الخدمة الاستعمارية الإنجليزية وهيئة
الضباط الروسية ، والكنيسة الكاثوليكية أيضاً ، بقصرها كل التقدير في قسوة ،
وغير أكثر من اللئال والأصل على السلوك المهذب والمقدسة على اجتياز
المصاعب - ان صفوة كهذه لا يمكن أن تنشأ ان كان قسول الموجود لا يعالو
على المتوسط ، يجب أن يسبق أولاً انتخايب الخيالة ، فلي يتأق انتخايب الطبقة
الابعد فلك ان الجيل القوي يتطلب أمهات وآباء أقوىاء . من الحتم أن
يوجد في الدم أثارة من بربرية العصر العتيق ، وصرامة للصدور للحضارة
القديمة التي تنطلق في أوقات الشرق لتنفذ وتنصر .

هذه البربرية هي ما أدعوه بالعنصر القوي ، الروح الحرية الأبدية في طراز الحيوان المفترس المسمى إنسانا . قد يبدو أنها لم تعد موجودة ، ولكنها على استعداد روحي للوثب . ليحدث أي تحدقوى لها لترينا العدو تحتها وشيكا إنها لا تموت إلا حيث تدير سلبية المدن طمئنها على الأجيال رغبة في الدعة تنال بأى ثمن حاشا بذل الحياة الخاصة . وهذا هو نزع السلاح الروحي بعدد السلاح الجسماني عن طريق العقم . ما السبب الذي جعل الشعب الألماني أقل الشعوب البيض استنفادا ، فصار من أجل هذا موطن أمل أقوى ؟ ذلك أن ماضيه السياسي لم يسرح بفرصة يبذر فيها من دمه الغالي ومواهبه العظيمة . وإنها للنعمة الوحيدة لتاريخنا المفعم بالشقاء منذ عام ١٥٠٠ . لقد استنفدت التاريخ منا القليل . لقد جعل منا الحالمين والنظرين في شئون السياسة العظمى على جهل بالعالم وعمى وضيق في الأفق ، ومشاكسين ، وإقليميين ولكن ذلك مما يعالج ، ولم يكن ذلك خطأ عضويا ولا نقصا فطريا في المواهب كما يظهره عصر القياصرة . إن الدم الثمين - وهو أساس كل ألوان التفوق الفكري - كان ولا يزال محفوظا . إن التاريخ العظيم باهظ المطالب ، إنه يستنفد أحسن العناصر عنصرية . ولقد استنفدت الرومانية في بضعة قرون . حين استؤنفت في طراز عظيم إثر كشف أمريكا هجرة الأقبام النوردكية عبر البحار - تلك الهجرة التي وقفت قبلها بألف سنة في جنوب أوربة - حين استؤنفت نزحت إلى هنالك العشائر الأسبانية القوية ، وجلها من أصل نورديكي ، وقد استطاعت أن تحارب وتغامر وتسود . هنالك توطنت الأرستقراطية القيمة ذات الطابع الأسباني حول عام ١٨٠٠ على حين انطفأت الحياة القوية في أرض الأمومة وكذلك استنفدت في السياسة العليا منذ عصر لويس الثالث عشر الطبقة العليا

الفرنسية المولودة للسيطرة ، ولم تستنفد فيها وحدها ، فالحضارة العليا تدفع
منها غالبا . وكانت الارستقراطية الانجلوسكسونية في الامبراطورية الانجليزية
أكثر منها استنفادا : من كانوا فيها من العشائر المتفوقة دفعوا بالرجال لا إلى المكاتب
التجارية والوظائف الصغرى في جزيرة الوطن بل إلى حياة الأخطار ، فاندفعوا
فيها بنزعة الفيكينج ، وهلكوا في كل أنحاء العالم في مغامرات وحروب لا عدد
لها ، كما أتلفهم المناخ . ومنهم من ظلوا بعيدا حيث بنوا في شمال أمريكا (مثلا)
أساسا لطبقة سيده . أما من بقي بعد ذلك فقد أصبح «محافظا» يعنى هنا : غير
مبدع ، متعبا ، مليئا بالحقد العقيم على كل جديد ، وغير متوقع . وكذلك
كانت الحال في ألمانيا : فقد فقدت كثيرا جدا من أفضل دماؤها في الجيوش
الاحنية لتحقيق مصالح أمم أجنبية . ولقد نزلت إقليمية أحوالهم السياسية
بطموح موهوبهم إلى الخدمة في البلاطات الصغيرة ، في الجيوش والحكومات
الصغرى ، وهنا بقوا كطبقة وسطى سليمة ومنسلة كما لزم جل النبلاء الفلاحة
العليا . لم تكن هناك حياة عليا ولا غنية . لقد نام «العنصر» في القومية ، وترقب
إيقاظه على يد عصر عظيم . هنا يمكن على الرغم مما استنفدته عشرات السنين
الآخيرة كنز من الدماء المستحصدة لا يملكه أى بلد آخر ، من المستطاع
إيقاظها على انه يجب إشباعها روحيا لتكون متأهبة لحل مهام المستقبل الهائلة
ومقتدرة على الفاعلية فيها . ولكن هذه المهام قائمة اليوم . لقد بدأت الحرب
للسيطرة على الأرض كلها ، فيجب التغلب على سلبية القرن الليبرالى إذا أردنا
البقاء في الحياة .

الى اى مدى بلغت خطا الشعوب البيضاء صوب هذه السلبية ؟ أهذه
الصرخة المناهضة للحرب حركة فكرية ام استسلام جدى امام التاريخ على

حساب الكرامة والشرف والحرية ؟ إن الحياة هي الحرب . فهل يمكن ترك معناها والمحافظة عليه في وقت واحد ؟ يبدو أن الحاجة إلى الراحة الفلاحية والتأمين من كل ما يزعج خطأ الزمن ، ومن القضاء بألوانه - تريد ذلك . إن كل أولئك لون من المحاكاة الهزلية تجاه التاريخ العالمى ، وتمات الحشرات البشرية قبالة الخطر . إنها النهاية السعيدة لسيان خالو أتت سآمتة بموسيقى الجاز ورقص الزنوج لعزف المارش الجنائزى لحضارة عظيمة .

ولكن ذلك لا يمكن أن يكون ويجب ألا يكون . قديخدع الأرنب الثعلب . أما الإنسان فلا يستطيع خداع الإنسان . إن الملون يخرق الأبيض بنظرته ويصل إلى ما ينطوى عليه قلبه حين يتحدث عن « الإنسانية » والسلام الدائم . إنه يشم رائحة العجز وفقدان الإرادة للدفاع عن النفس . وهنا يتطلب الموقف تربية من ذلك النوع الذى سمّيته بروسيا - والذى لا يعينى أن سمي « اشتراكيا » . فلا عبرة بتغاير الألفاظ مادام المدلول واحدا ، تربية توظف القوة النائمة عن طريق المثل الحى لا المدرسة ولا المعرفة ولا التعليم ، فالتهديب الروحى هو الذى يبحث عما فى الداخل ، ويظهره ويقويه ويدفع به إلى الازدهار ، إنما لانستطيع أن نرضى لأنفسنا أن نكون متعبين ، والخطر يقرع الباب : ليس الملونون سلبين ، إنهم لن يتشبثوا بحياة كل قيمتها فى طولها ، إنهم يمسون بالسيف إذا ما طرحناء ، لقد خافوا الأبيض يوما ، ولكنهم اليوم يزدرونه . إن الحكم مدون فى أعينهم إذا ما استرسل البيض من الرجال والنساء فى مسلكتهم الراهن فى أوطانهم أو فى بلاد الملونين أنفسهم . لقد تولاهم من الرعب يوما أمام قوتنا ما تولى الجرمان أمام الكتائب الأولى الرومانية . واليوم - وقد أصبح الملونون أنفسهم قوة - تلتصب روحهم الخفية التى لم نفهمها قط ،

وترمق الأبيض من عل كما ترمق شيئا غابرا .

ولكن الخطر الأعظم لم يسمَّ بعد . فإذا يحدث إذا انضمت يوما حرب الطبقات إلى حرب الأجناس وثارنا معاكتفا إلى كتف لتأتيا على العالم الأبيض ؟ إن هذا ما تهدي إليه طبيعة الأمور . ولن تزدري ثورة منهما مساعدة الأخرى لمحض احتقارها لحمة لوائها ، فالبغض المشترك يسمح الازدراء المتبادل . وماذا يحدث إن قام على رؤوسهم مغامر أبيض كما حدث في أحوال كثيرة ، مغامر تعجز روحه الوحشية عن التنفس في حظيرة المدينة الدافئة ، فيحاول أن يرضى ظمأه إلى الأخطار بمشروعات استعارية جريئة بين متانصة البحار والكتائب الأجنبية ، وذلك إلى أن يستبين لعينيه فجأة هدف عظيم . أى شيء يحدث حينئذ ؟ وإن التاريخ ليعد مفاجآته العظيمة بمثل هذه الطبائع . إن تقرز ذوى العمق بأحوالنا ، وكراهية الذين سقط غطاء الخداع عن أعينهم قد يرتفعان إلى ثورة ترغب في الإبادة . وما كان ذلك غريبا على عصر قيصرو . وأيا ما كان الأمر فإنه إذا ما انطلقت البروليتارية البيضاء في الولايات المتحدة فسيكون الزنجى في الميدان ، ومن ورائه الهنود الحمر واليابانيون يترقبون الساعة الملائمة . إن فرنسا السوداء في مثل هذه الحال لن تتردد في أن تبذل المناظر الباريسية لعامى ١٧٩٢ و ١٨٧١ . هل يحار القادة البيض لحرب الطبقات إذا ما فتحت الاضطرابات الملوثة الطريق امامهم ؟ انهم لم يكونوا أبدا في اختيار وسائلهم مدققين . لن يتغير الموقف كثيرا إذا ما خمد صوت موسكو كمصدرة للأوامر . لقد انجزت عملها وتأق للعمل نفسه ان يسلك طريقه وحده . لقد ادرنا رحى حروبنا وحروب طبقاتنا تحت ابصار الملوذين واذل بعضنا بعضا وغدريه . وقد طالبناهم بالمشاركة فيها ، فهل يكون عجبا

أن يقوم الملونون في النهاية بذلك لحسابهم أنفسهم ؟

هنا يرتفع التاريخ المقبل فوق المثل العليا الاقتصادية والسياسية الداخلية .
هنا تتدخل قوى الحياة الأولية نفسها في المعركة التي تدور حول كل شيء أو
لا شيء . إن الصورة السابقة للقبصرية توشك أن تظهر في تحديد أتم ، ووعي
أقوى ، وسفور أعظم .

سوف تسقط النقب كلها عن وجوه الحوادث البرلمانية . وستنسى مربعا
جدا كل المحاولات في سبيل إبقاء كيان المستقبل على هيئة أحزاب ، وستنتقل
التشكيلات الفاشيستية لهذه العقود من السنين إلى صور جديدة غير مقدورة ،
وستختفي كذلك وطنية هذه الأيام ، ولن يبقى كقوة مانحة للصورة إلا
«الروح البروسية» الحربية . ستبقى كذلك في كل مكان لا في ألمانيا وحدها .
إن المصير الذي يتكئف يوما في صور مشبعة بالأهمية وفي تقاليد عظيمة -
سوف يصنع تاريخا « يقوم بحوادث فاصلة » على هيئة قوات فردية فاقدة
الصورة . إن كتاب قيصر تستيقظ ثانية !

وهنا ، وقد يكون ذلك في هذا القرن نفسه - تتربح الحواسم النهائية
رجلها . ستدوب أمامها الأهداف والأفكار الصغار لسياسة اليوم . فمن يمتزج
سيفه النصر هنا يكن سيد العالم .

هنا أزالام اللعبة الهائلة وقداحها ، فمن ذا الذي سيجرؤ على إجالتها
ورميها ؟ !

الفهرس

ص	
١	مقدمة المترجم
٥٥	مقدمة المؤلف
٦٣	الآفق السياسى
٨٢	الحروب والدول العالمية
١٣٨	الثورة البيضاء
٢٥٠	الثورة العالمية الملونة

تقدير

يسعدني أن أسجل كل تقدير وثناء لما بذله حضرة الأستاذ
أحمد عثمان عبد المجيد المدرس بالمنصورة الثانوية للبنات من جهود صادقة
في سبيل مراجعة اللغة ثم الأصول في الطبع .
كما لا أنسى فضل جمعية الطباعة بمدرسة المنصورة الثانوية التي قامت بالطبع
وأني لأرجو لها دوام التوفيق واطراد التقدم .
كما لا يفوتني أن أسجل للكثيرين من الأصدقاء كريم تشجيعهم
وتقديرهم ؟

على حسن الراح